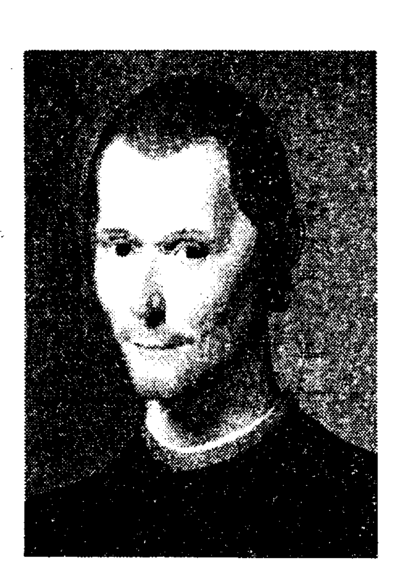


نيكولو ميكافيللي

مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي التبريري

اسم الكتاب : ميكافيلي وكتابه الأمير

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران ـ دار الراوي

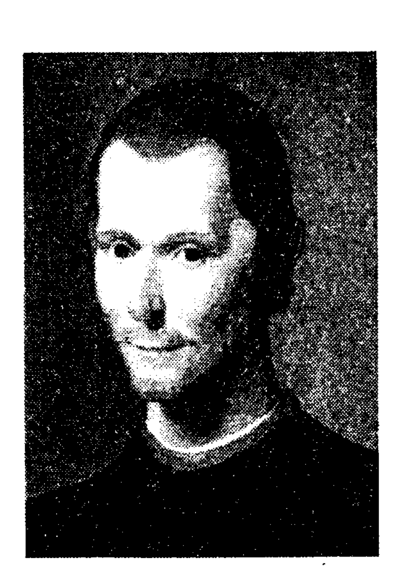
رقم الايداع : 15492 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-098-0

سلسلة فلاسفة غيروا مجرى التاريخ

نيكولو ميكافيللي

مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي الواقعي



المؤلف

د. يوسف أبوالحجاج الأقصرى

تقديم

بين يديك عزيزى القارئ إصدار يتحدث عن شخصية سياسية وفليسوف ومفكر من طراز خاص جدا إنه نيكولو دى برناردو دى ماكيافيلى الذى ولد فى فلورنسة ٣ مايو ١٤٦٩م وتوفى ٢١ يونيو ١٥٢٧م والذى أصبح الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسى التبريري والذى أصبح عصب دراسات العلم السياسى وأبرز مؤلفاته كتاب الأمير الذى كان يهدف منه إلى عمل نظام سياسى واقعى من خلال الصورة المبكرة للنفعية والواقعية السياسية التبريري.

كان والده من النبلاء وكان ميكافيللى فى بداية شبابه مصلحا يدعو الشباب الإيطالى للتمسك بالفضيلة، لكنه سرعان ما تغيرت اتجاهاته إلى السياسة الى نفى بسببها إلى سان كاسانيو عام ١٥١٢م ويذهب الكثير من المفكرين السياسيين بأن لميكافيللى دور هام فى تطور الفكر السياسى حيث إنه أسس منهجا جديدا فى السياسة فأفكاره تتجاوز الكفر الدينى وتجاوز السلطة الدينية التى كانت سائدة فى الفكر السياسى الأوروبى فى القرون الوسطى وأصبح ميكافيللى نقطة تحول هامة فى تاريخ الفكر السياسي، نقدم هذا الفليسوف رغم اختلافنا معه تمامًا في افكاره حيث ان الغاية لا تبرر الوسيله اطلاقًا.... وأترككم فى رحلة قراءة ممتعة عن ذلك الفليسوف السياسى الذى نردد أحياناً عدة مقولات له أشهرها (الغاية تبرر الوسيلة) ولعلها تصلح أحيانا ولكنها لا تصلح فى كل الأحوال واذكر على ان الغاية لابد ان تكون سامية ومشروعة ووسيلتها ايضًا يجب ان تكون مشروعة واخلاقية..

والله الموفق والمستعان



الجزء الأول

حياة ميكافيللي
أفكاره وآراؤه ومطارحاته

بطاقة تعارف

الاسم: نيكولو دى برناردو دى ميكافيللي

الميلاد: ٣ مايو ١٤٦٩م - ٨٧٠ هـ

مكان الميلاد: إيطاليا

الوفاة: ٢١ يونيو ١٥٢٧م - ٩٣٤ هـ

الموطن: جمهورية فلورنسة

المهنة: كاتب - فليسوف - منظر سياسي

أبرز أعماله: الأمير - الأطروحات

العصر الذى عايشه: عصر النهضة فى أوروبا

أشهر مقولاته:

١- الغاية تبرر الوسيلة

٢- إنها متعة مضاعفة عندما تخدع المخادع

٣- الطريقة الأولى لتقييم الحاكم هى النظر إلى الرجال المحيطين به.

حياة ميكافيللي

حياة ميكافيللي كتب عنها العديد من الكتب والفلاسفة على مر التاريخ وأعتقد أن خير ما كتب عن حياة ميكافيللي، هو الكتاب الذى وضعه الأستاذ بسكال فيلارى بعنوان (حياة نيقولو ميكافيللى وعصره)، والذى ترجمته إلى الإنجليزية ليندا فيلاري. ولا تحمل الطبعة الثالثة من هذا المؤلف رغم انها تضم ١٠٥٨ صفحة، أية تواريخ، ولا تشتمل على أية فهارس. ولكن الطبعة التي صدرت عام ١٨٩٢، قد تلافت هذا الخطأ. ويتحدث فيلارى حديثاً مستفيضاً مسهباً، عن تاريخ عصر ميكافيللي، كما يضم الكتاب الثانى من المجلد الثانى من مؤلفه تحليلاً ونقداً، لكل كتاب من كتبه الرئيسية. وسأتناول هنا حياته من وجهة نظر الآراء السياسية التى اسهمت فى خلقها، وهى تقع إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر المطارحات فى أربع فترات.

أ- الفترة الأولى الواقعة بين عامى ١٤٦٩ و١٤٩٨، والتى نشأ فيها ميكافيللى كغلام فى فلورنسة، ثم تلقى تعليمه، ثم عيّن كاتباً فى دوائرها الحكومية.

ب- الفترة الثانية، وتقع بين عامى ١٤٩٨، ١٥١٢، وقد اشغل فيها منصب السكرتير الأول لحكومة فلورنسة، وأوفد أبانها فى عدد من البعثات المهمة بالنيابة عن حكومته.

ج- الفترة الثالثة، وتقع بين عامى ١٥١٢ و١٥١٧، وقد قضاها فى عزلة، فى دارته خارج فلورنسة، يدون إبانها مطارحاته.

د- الفترة الرابعة، وتقع بين عامى ١٥١٨ و١٥٢٧، وكتب فى غضونها كتابه فى الحرب، وتاريخ فلورنسة، وشغل فى نهايتها مناصب على جانب كبير من الأهمية فى حكومة فلورنسة.

الفترة الأولي
المؤثرات فى شباب ميكافيللي

للحديث عن ميكافيللي لابد من الرجوع الى اصلة وجذور عائلته.

تعود (أسرة ماكفلافيلوروم) فى أصولها إلى السنيور دى مونتيسبر تولى الذى عاش فى أوائل القرن الثانى عشر، وكان يملك ممتلكات واسعة فى (فال دي بيزا) و(فال دى ايلزا)، يقوم بينهما قصره وقلعته. وكان بيونيسينا، ابن دونو دى ميكافيللى رئيسا للأسرة فى هذا الوقت، وقد جاء له ولدان، هما كاستيلانو ودونو. وقد اتخذ صغيرهما اسم ميكافيللى الذى جاء مؤلفنا من ذريته. وكان شعار الفرع الأكبر من العائلة وهو فرع كاستيلاني، يتمثل فى نسر فاتح جناحيه على قاعدة لازوردية. أما شعار فرع ميكافيللي، فيتمثل فى صليب أزرق، على أرض زرقاء، مثبتة بأربعة مسامير فى زوايا الصليب. وتمثل هذا الفرع فى نهاية القرن الرابع عشر بفليبو ميكافيللي، وكان أباً لولدين هما بنيونسينا ولورنزو، الذى أنعم عليه سيانزو دى كاستيلانى بقلعة مونتيسبر تولي، وبرعاية عدد من الكنائس. وكانت للأسرة أيضاً ممتلكات فى سان كاسكيانو، الذي اعتزل فيها مؤلفنا فيما بعد، وفى فلورنسة وبيرنتى فيشيو. واشتغلت أسرة ميكافيللى فى السياسة، ونفى جميع أفرادها من فلورنسة فى عام ١٢٦٠ لمدة قصيرة بعد هزيمة معركة مونتابيرتو. ورزق بينونسينا ولدان هما توتو ونيقولو، الذى انتقلت ممتلكاته بعد موته إلى ولده برناردو. وقد ولد هذا عام ١٤١٨ وتزوج من بارتوليميا نيلى ارملة نيقولو بنيزي، وولدت له أربعة أطفال، بينهم صبيان هما توتو ونيقولو (المؤلف)، وفتاتان هما بريمافيرا، وجينيفرا. وقد ولد توتو عام ١٤٦٣، أما نيقولو الذى قدر له أن يصبح وزير خارجية فلورنسة فقد ولد فى الثالث من ايار عام ١٤٦٩ وهو الفليسوف الذي نتحدث عنه (نيقولا ميكافيللي)

ولا نعرف شيئاً دقيقاً عن تعليم نيقولو، ولكن فى وسعنا أن نقول بالنسبة إلى انتمائه إلى أسرة نبيلة وبارزة، شغل أفرادها فى معظم العهود مراكز بارزة فى فلورنسة كحاملى الشعار أو (كمقدمين)، وإلا أن والده لم يكن من ذوى الأملاك فحسب، بل كان محامياً ذا أهمية وبروز، وأمه كانت تقرض الشعر، وكان صديقه الحميم مارسيلو فيرجيليو، وهو من الكتاب المعروفين، وقد غدا أستاذاً للأدب فى عام ١٤٩٧، وقد أمكننا أن نستنتج من جميع هذه القرائن، أن (نيقولو مكيافيللي) تلقى تعليماً ليبراليا حراً يتفق مع مكانته الاجتماعية فى الحياة، ويتضح أيضاً من الإشارات العديدة التى ترد، انه تلقى شيئاً من الدراسات الفلسفية. وتشير كتاباته، وايفاده فى مهمات تتعلق بعقد الاتفاقات والمعاهدات، إلى أنه درس القانون أيضاً. ولا ريب أيضاً فى أنه عرف اللاتينية، ودرس شيئاً من التاريخ، إذ لا يعقل أن يكون قد أقبل على تعليمهما فى السنوات التالية من حياته العملية. إذ أن مشاغله الرسمية، وأعماله الحكومية كانت تحول حتماً دون تمكنه من القيام بمثل هذه الدراسات.

ولا ندرى إن كان نيقولو قد تعلم الإغريقية فى صباه، إذ أن هذه مشكلة معقدة، وقد عقدها، أن الكتاب الذى أفاد منه كثيراً فى مطارحاته وهو الكتاب السادس لبوليبيوس، لم يكن عندما كان مكيافيللى يكتب مطارحاته، قد صدر فى الاغريقية أو اللاتينية بعد. فقد بدأ العمل فى ترجمة بوليبيوس فى عهد البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧م - ١٤٥٥م) الذى يعتبر مؤسس مكتبة الفاتيكان. وقد أتم نيقولاس بيروتس ترجمة الكتب الخمسة الأولى التى طبعت لأول مرة فى روما عام ١٤٧٣، وفى البدقية عام ١٤٩٨، ولكن لم تظهر الطبعة الأولى من الكتاب السادس إلا فى عام ١٥٢٠. ولما كنا نعرف أن مكيافيللى كان يضع الكتاب الأول من مطارحاته

الذى يستشهد فيه بهذا الكتاب المترجم فى عام ١٥١٣، فمن الواضح أنه استند إلى نسخة مخطوطة من الكتاب السادس المشار إليه. ولا ندرى أن كانت فى اليونانية أو فى اللاتينية. ويزعم تريانتافيليس، أن مكيافيللى كان يعرف الإغريقية، ولكنه لا يقيم أدلة كافية على صحة زعمه، وهو يعتمد على ما أصدره هوفمان من قوائم عن الكتب التى كانت قد ترجمت إلى اللاتينية فى عهد مكيافيللي، ولكن هذه القوائم ليست كاملة على أى حال، وكانت جميع المؤلفات التى أوردها تريانتا فيليس، لدعم رأيه، قد وجدت فى اللاتينية باستثناء الكتاب السادس لبوليبيوس.

ويقيم أدلة أخرى فى أطروحته مصدرها (المصادر الاغريقية التى اعتمدها مكيافيللي)، فهو يورد سبع فقرات عثر على نظائرها عند مؤلفى الإغريق. وتقع فقرتان منها فى كتاب (الأمير)، وهى تشبه ما جاء فى كتاب بلوتارك عن الجمهورية، وفقرة فى الكتاب الأول من المطارحات، تشبه نظيرة لها فى كتاب (آثار الرومان) لديونيسيوس هاليكارناوس، وأخرى من مقدمة الكتاب الثانى للمطارحات تشبه ما ورد فى بلو تارك وغير ذلك من القرائن المماثلة.

ولا نستطيع الحكم على المدى الذى تأثر فيه عقل مكيافيللى بدراسة التاريخ، عندما تقلد المناصب الحكومية لأول مرة، وذلك لافتقارنا إلى الأدلة اللازمة لهذا الحكم، ولكن ثمة أدلة وفيرة، على تأثره بالأحداث التى وقعت فى صباه وفتوته. فلقد كانت الشخصية البارزة والطاغية فى فلورنسة فى عهد شبابه، شخصية لورنزو دى مديشي، ثم خلفه فى ذلك سافو نارولا، الذى لا يقل عنه أهمية، رغم كونه من رهبان الدومنيكان. وقد مات لورنزو فى عام ١٤٩٢، وكان مكيافيللى آنذاك فى الثانية والعشرين من عمره. واعدم سافونارولا بعد ست سنوات أى فى الثلث والعشرين من ايار عام ١٤٩٨، ولم يمض شهر واحد، حتى كان مكيافيللي، يعين

فى أول منصب مهم من مناصب الدولة. وقد وقع حادث ضخم واحد فى حياة لورنزو، وهو مؤامرة أسرة (بازي)، وكان مكيافيللى آنذاك فى التاسعة من عمره، ولا ريب فى انه قد تأثر تأثراً بارزاً بهذه المأساة المرعبة، وقد بان أثرها فى كتاباته.

ولا يتحدث مكيافيللى كثيراً عن أسرة المديشى فى مطارحاته باستثناء ما ورد على لسانه فى وصف المحاولة الفاشلة التى قام بها آل (بازي) لتدمير سلطانه. ويستخدم كوزيمو دى مديشى الذى يصفه بأنه (هو الأول فى إظهار عظمة آل المديشى فى المدينة) كمثال لشرح نظريته فى أن على الإنسان عندما يواجه عاصفة هوجاء أن يحاول تلطيف هذه العاصفة وتهدئة ثائرتها بدلاً من أن يحاول اخمادها والقضاء عليها. ويذكر أن نيقولو دى اوزانو ارتكب غلطتين، أولاهما عندما فشل فى إدراك الخطر الناجم عن تألق نجم كوزيمو دى مديشى الآخذ فى الازدياد، والثانى أنه عندما أدرك هذا التألق، أخرج كوزيمو من فلورنسة مما أحدث موجة عارمة من الحنق. فى المدينة بحيث اضطر إلى استدعائه من جديد، وأسند إليه منصباً لم يكن فى استطاعته الحصول عليه لو لم يطرد من المدينة. ويعود مكيافيللى إلى الحديث عن كوزيمو مرة ثانية، فى مناسبة مماثلة، فيقول أن خصومه لو لجأوا إلى استنفار عطف الجماهير كما فعل هو، لما اضطروا إلى اللجوء إلى الثورة أو العنف. ويقتبس مكيافيللى شيئاً من أقوال لورنزو، ولكنه لا يذكره إلا مرة واحدة، باستثناء ورود ذكره فى مؤامرة أسرة (بازي)، والتحدث عن وفاته. أما عن بييرو فيقول عنه أنه عندما اشرفت الحكومة التى أقامها آل مديشى اعتماداً على تأييد الجماهير، على نهايتها فى عام ١٤٩٤، لم تسىء إلى أحد من الناس. إلا إلى آل مديشى أنفسهم. وعلى الرغم من أن مكيافيللى يشير إلى أن فلورنسة كانت فى يوم من الأيام سيدة توسكانيا، إلا أنه لا يذكر متى وقعت هذه الفتوحات أو من الذى قام بها، وأن كان

ولا شك قد وضع لورنزو دى مديشى نصب عينيه، عندما وضع هذه الاشارة، وكل ما قاله، أنه كان من الأفضل لفلورنسة لو لم تقم بهذه الفتوحات نظراً إلى الطريه السيئة التى اتبعتها فى إدارة الدول التابعة لها. ويبدو آل مديشى فى مكان آخر كزعماء المعارضة لأسرة سوديريني.

وهناك ما لا يقل عن خمس إشارات إلى مؤامرة (بازي) فى الفصل الخاص بالمؤامرات، فهو يروى لنا أن السبب الرئيسى فى مؤامرة (بازي)، كان ضياع إرث بونورومى الذى حرم منه آل (بازي) بأمر من المديشي. وهنا يقيم مكيافيللى الدليل. على أن من الحمق، انتزاع الأملاك من الرعية بدون حق، أو بدون مبرر عام. أما الاشارات الأربع الباقية، فتتعلق بالأخطاء التى ارتكبها المتآمرون، ونقلهم أنباء المؤامرة إلى عدد كبيرمن الناس، وابدالهم لخطتهم، وإساءة اختيارهم الشخص الذى يصلح للعمل، ومحاولتهم الخلاص من شخصين فى آن واحد، مما يؤدى إلى أن يصبح الناجى منهما أكثر مرارة ومناعة. ومن الواضح أن مكيافيللى قد درس المؤامرة التى وقعت فى فلورنسة عام ١٤٧٨ بحذافيرها ودقائقها كلها، أما ما يهمه من ناحية أسرة مديشي، فهو أن أفرادها سلكوا سلوك الطغاة المألوف، مما خلق النقمة عليهم وعلى أعمالهم من جراء حرمان الناس من ممتلكاتهم، وأنهم عندما فشلت المؤامرة ضدهم، ثأروا ثأراً فظيعاً من خصومهم.

وتتضح الفئة التى صنف مكيافيللي، آل المديشى فيها، وضوحاً جلياً فيما قاله عنهم فى مطارحاته، فلقد وضعهم فى فئة الحكام المستبدين الذين وصفهم فى الفصل التاسع من كتابه (الأمير)، ذلك لأن كلاً من كوزيمو، الذى سيطر بنفوذه على فلورنسة منذ وفاة والده جيوفانى فى عام ١٤٢٩ حتى وفاته هو فى عام ١٤٦٤، باستثناء فترة قصيرة، ومن لورنزو الكبير، حفيده، الذى حكم فلورنسة من عام ١٤٦٩ حتى عام ١٤٩٤، كانا من المواطنين العاديين رغم

برزوهما، وقد أصبحا (أميرين لبلادهما لا باللجوء إلى الوسائل القاسية الفظيعة، أو بالعنف الذى لا يطلق، بل بفضل تأييد المواطنين لهما). ويختلف الرجلان عن قيصر بورجيا الذى شرح أساليبه، فى أن قيصر، كان يقيم لنفسه دولة جديدة يريد الحفاظ عليها بالقضاء على جميع معارضيه، بينما كان المديشيان قد أصبحا ميرين فى مدينتهما، وحاولا الحفاظ على سلطانهما بالأساليب الدبلوماسية لا بوسائل العنف. ومع ذلك فقد حلت فترة من الوقت، غدا فيه السلطان الذى تعهده آل مديشى بالتنمية والرعاية، من الأهمية والشأن، حتى أن مكيافيللي، تطلع آونة من الزمن إلى توحيد إيطاليا فى ظلهم، وطرد البرابرة منها تماماً كما تطلع فى آونة أخرى من الزمن إلى توحيدها فى ظل نجل البابا الكساندر بورجيا، ولهذا السبب وحده أهدى مكيافيللى كتابه (الأمير) إلى غويليانو دى مديشي، نجل لورنزو الأكبر، ثم حول الاهداء فى اللحظة الأخيرة إلى لورنزو العظيم نجل بييرو دى مديشى لورنزو الكبير، والذى كان يحظى بعطف قريبه البابا ليو العاشر، وغدا فى عام ١٥١٦، دوقاً لأوربينو. ولكن آمال مكيافيللى منيت بالخيبة فى كلتا الحالتين، أى فى لورنزو وفى قيصر بورجيا. ولهذا لم يهد مطارحاته إلى أحد الأمراء، بل إلى صديقين مغمورين من أصدقائه المقربين، ولم يتحدث فيها من آل مديشى مطرياً اياهم، بل على النقيض من ذلك، أخذ يعدد أخطاءهم، ولا ريب فى أنه قدر لهم مواهبهم وعظمتهم تمام التقدير، وعرف تمام المعرفة، ما عمله أفراد هذه الأسرة لفلورنسة. فقد ظهر تقديره وبانت معرفته فى الفقرات الطويلة من كتابه (تاريخ فلورنسة) الذى أبدى فيه كلاً من لورنزو وكوزيمو تأبيناً حاشداً بالاطراء والثناء. وقد اعترف هو نفسه، فى أنه فى اطرائهما، قد خالف قواعد المؤرخين الصادقين، واتبع (أسلوب اولئك الذين يضعون تواريخ الأمراء وذوى السلطان) وعلى الرغم أيضاً من اخلاصه فى الاعجاب بالحصافة التى أبداها كوزيمو ولورنزو

فى أدارة شئون فلورنسة والتصرف بأمورهما، فقد كسبان واضحاً وصريحاً كل الصراحة، إذا ما قرأنا بين السطور، فى تأكيده بأنهما تمكنا من الحفاظ على سلطانهما بالرشوة والافساد، وأن هذا يعنى ضياع الحريات التى كان يقدسها هو واقرانه من المواطنين.

وليس ثمة من افتقار إلى الثبات فى الموقف الذى اتخذه مكيافيللى بالنسبة إلى آل مديشي. فهناك أوضاع، يرى مكيافيللي، أنه لا يمكن اصلاحها إلا إذا حبى شخص فى فترة من الفترات بالسلطان المطلق، ووضع نصب عينه توحيد ايطاليا وطرد الغزاة منها. ولو حقق المديشيون هذه النتيجة، لوجد لهم مكيافيللى المبرر للتفوق الذى نشدوه وحصلوا عليه ولتسامح معهم بالوسائل التى لجأوا إليها للوصول إلى هذا التفوق، ولكنهم لسوء الحظ، لم يحققوا شيئا من هذا مطلقاً. وقد عبر اجلالهم للتاريخ، شأنهم فى ذلك شأن الحكام الذين اشار إليهم مكيافيللى فى مقدمة مطارحاته، لا عن رغبتهم فى التعلم من التاريخ، بل عن (دفعهم ثمناً باهظاً، فى سبيل الحصول على نتف من التماثيل القديمة، وفى سبيل تزويق بيوتهم بآثار من الماضي، يمكن لاصدقائهم الاعجاب بها، وللفنانين اقتباسها ورسم صور طبق الاصل عنها). وهكذا فان مكيافيللى لا يتطلع فى مطارحاته إلى الامراء لانقاذ ايطاليا، وإنما إلى (جمهورية) ترتكز إلى الشعب، كتلك التى قامت ذات يوم فى روما، وليس ثمة من مكان فى هذه الجمهورية لأهل الثراء الضخم، ذلك لأن ثرواتهم تدفعهم إلى اقتراف الآثام، ولا ريب فى أن كل مَنْ يسعى للوصول إلى العظمة عن طريق تضليل الجماهير، يشكل خطراً على المجتمع، يجب استئصاله فى أسرع وقت ممكن، وقبل استفحال أمره.

ولم يكن سافونارولا أقل إخلاصاً فى أفكاره الجمهورية من مكيافيللى نفسه. وكان الدستور الذى وضع فى عام ١٤٩٤، ينطبق تمام الانطباق على وجهات النظر

التى ضمنها سافونارولا فى سلسلة من مواعظه الدينية، وقد تضمن هذا الدستور اقامة مجلس أعلى على غرار مجلس البندقية، يكون من صلاحياته تعيين جميع القضاة، وسن كافة القوانين، ونص الدستور على وجود مجلس للشيوخ يضم ثمانين عضواً، ويجتمع مرة واحدة فى كل أسبوع، لدرس القضايا المهمة، وتقديم النصح إلى مجلس السيادة الذى يضم تسعة أعضاء ويتمتع بالصلاحيات التفنيذية. وهناك وزارتان أولاهما تضمن ثمانية أعضاء وتتولى تصريف شئون العدالة، وثانيهما تضمن عشرة أعضاء، وتعالج الشئون الداخلية، وإدارة دفة الحروب، وكانت هاتان الهيئتان تتفقان اتفاقا تاماً مع الأساليب التقليدية المتبعة فى المدينة، ومن حق كل من يصدر مجلس الثمانية عليهم أحكامه، استئنافها إلى المجلس الأعلي.

ولا يرى مكيافيللى خطأ فى هذا الدستور، وإنما الخطأ، من وجهة نظره، قائم فى الشخص المسئول عن وضعه، وهو يكشف عن أخطائه فى كل مرة من المرات إلا فى فقرة واحدة، يتحدث فيها عن نبوءته بمجيء شارل الثامن. وقد أشار فى مكان آخر، هازئاً، إلى اقتناع الناس الذين لم يكونوا من الجاهلين أو الأغبياء، بأن الراهب جيرولامو سافونارولا قد هبط عليه الوحى من الله، مع أن أياً من هؤلاء الناس، لم يره ذات يوم يخرج عن مألوف الآخرين. وإذا ما قيست هذه الواقعة بالمبادئ المقررة فى الأقسام الأولى من الفصل، وجب اعتبارها فضيلة، ولكنها بالنسبة إلى سافونارولا، خطيئة كبيرة. ويحدثنا مكيافيللى عن أن سافونارولا كان الواضع للقانون الذى يسمح للمرء باستئناف القرار الذى يصدر عليه من مجلس الثمانية ومن مجلس السيادة فى حالة اتهامه بالخيانة، ولكن عندما رفض حق الاستئناف فى المرة الأولى التى وضع فيها هذا القانون فى موضع الاختبار، لم يصدر عن سافونارولا أى احتجاج مهما كان، وعلى هذا فقد اتضح للجميع بأنه رجل حزبى طموح، وهنا كان التحطيم الأول لسمعته.

ويتحدث إلينا مكيافيللى فى مكان آخر، فيقول، إنه على الرغم من أن سافونارولا كان كالنبى موسي، يعترف بضرورة قتل منافسيه بالجملة، إلا أنه كان يفتقر إلى السلطة اللازمة للتنفيذ، وانه على الرغم من استطاعة أتباعه، ان يحصلوا له على هذه السلطة، إلا أنهم فشلوا فى تفهم حقيقة مراميه، مع أنه كان صريحاً فى مهاجمته لجميع العقلاء فى العالم. ولا ريب فى أن مكيافيللى قد أدرك تمام الادراك أن سافونارولا لم يحاول دفع الرعاع إلى العنف، بل على النقيض من ذلك، حاول ثنى أتباعه عن اللجوء إليه. وكانت شكوى مكيافيللى الوحيدة، أن سافونارولا لم يلجأ إلى العنف للخلاص من منافسيه ودعم سلطانه، وأنه تبعاً لذلك (حطم النظام الجديد الذى وضعه، ذلك لأن الجماهير عندما فقدت إيمانها به، لم يجد لديه الوسائل الكافية للحفاظ على إيمان المؤمنين به، أو لزرعه فى قلوب أولئك الذين لم يكونوا من المؤمنين به). وهكذا فقد تمثل مكيافيللي، سافونارولا، كمثل بارز على النبى الذى (يفتقر إلى السلاح)، وهو لا يهتم بمثل هذا الطراز من الأنبياء، ذلك (لأن الأنبياء المفتقرين إلى السلاح كان مصيرهم دائماً إلى الخراب والدمار، بينما كان مصير الأنبياء المسلحين إلى النجاح). ومن هنا نشأ احتقار مكيافيللى لهذه الشخصية التى تعتبر من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى تاريخ فلورنسة.

وكانت هناك ظاهرة خاصة أخرى، فى أوضاع إيطاليا تركت أثراً كبيراً فى مكيافيللي، فقد جاء شارل الثامن إلى إيطاليا فى عام ١٤٩٤، متظاهراً بالرغبة فى إعادة النظام إلى بلاد مؤقتها المنازعات الداخلية، والحروب. وعندما انسحب منها فى العام التالي، تركها فى وضع أسوأ من الفوضى عما كانت عليه فى السابق، وقد تعاقب على العرش فى نابولى فى فترة عامين بين ١٤٩٤ و١٤٩٦، خمسة ملوك على الأقل، وانقسم نبلاؤها إلى شيعتين متخاصمتين تتحاربان، أحداهما ترفع الولاء لبيت اراغون الذى حكم نابولى منذ عام ١٤٤٢، والثانية مخلصة لأسرة انجو

التى طردها الفونسو الخامس من العرش، والتى يمثلها الآن شارل الثامن. أما فى الدويلات البابوية، فقد أقام النبلاء أنفسهم حكاماً من صغار الطغاة فى معظم المدن الكبيرة، وكانت أسر كولونا واوروسينى وفيتيلي على استعداد، لتقديم خدماتها لمن يدفع الثمن الأكبر. وكان لودفيكو مورو فى مدينة ميلان، قد اغتصبت الملك من ابن أخيه جيان غاليازو سفوروزا، وابدى كل استعداد، للتحالف مع أية دولة يستطيع الاعتماد على سلطانها فى توسيع ممتلكاته. وتقع البندقية إلى الشرق من ميلان، وكان حكامها تواقين أيضا لتوسيع ممتلكاتهم للتعويض عن تلك التى خسروها فى حروبهم مع الأتراك، وكانت هذه الدولة أقوى دول إيطاليا وأوثقها اتحاداً وأحسنها حكما، ولذا فقد باتت مصدر خطر على كل من ميلان وفلورنسة والدولة البابوية. أما فلورنسة التى تمكنت من فرض سيادتها على فولتيرا، واريزو، وكورتونا، وبيستويا، وبيزا، فقد كانت تشتبك فى صراع دائم مع جاراتها، كجمهورية سيينا الصغيرة فى الجنوب، ولوكا فى الشمال الغربي، وميلان وجنوه والبندقية والدويلات البابوية، وكانت تعانى فى هذا الوقت مشاكل خطيرة. فقد ثارت عليها بيزا، وهى ميناؤها الواقع على مصب نهر ارنو فى عام ١٤٩٤. وعندما جلا الفرنسيون عنها فى الأول من كانون الثانى عام ١٤٩٦، لم ينفذ القائد الفرنسى (اينتراغ) وعد ملكه (شارل الثامن) بتسليمها إلى فلورنسة. وهكذا نشبت الحرب، وسارعت كل من لوكا وسيينا والبندقية إلى نصرة أهل بيزا. وكانت إيطاليا تختلف عن فرنسا وألمانيا وإسبانيا وانكلترا فى تلك الأيام فى أنها مقسمة إلى مدن ودويلات متنافسة، يتوقف بعضها إلى احتلال البعض الآخر والسيطرة عليه، ولكنها اعجز من أن تفعل ذلك. وهنا تضخمت قوة المقاطعات السويسرية، التى كانت على استعداد لتأجير قوات مشاتها المدربة خير تدريب إلى أى أمير أو أية جمهورية، يدفع أو تدفع لها أجوراً طيبة ومنتظمة، مما أدى إلى وجود السويسريين أحياناً فى

الجانبين المتحاربين، يقاتلون بعضهم البعض، أو يرفضون فجأة أحياناً القتال، ضد مواطنيهم في جيش العدو.

وعندما نشبت الحرب في عام ١٤٩٦م بين البابا الاسكندر السادس وبين أسرة الاورسيني. واغتيل جيوفاني بورجيا، دوق غانديا في روما عام ١٤٩٧. وكان الفرنسيون قد طردوا من نابولي في عام ١٤٩٥. ومات الملك شارل الثامن في السابع من نيسان عام ١٤٩٨، دون أن يتمكن من تحقيق خططه الرامية إلى القيام بغزو جديد لإيطاليا. وفشلت مؤامرة في فلورنسة في نيسان عام ١٤٩٧، لإعادة أسرة مديشي إلى الحكم، ونفذ حكم الإعدام في خمسة من كبار مواطنيها، دون أن يسمح لهم بحق الاستئناف. وانتهى عهد سافونارولا في آيار عام ١٤٩٨ نهاية شنيعة. فقد نفذ فيه وفي اثنين من الرهبان من اتباعه حكم الاعدام شنقاً في ساحة المدينة العامة في الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين من ايار، ثم أحرقت جثثهم وقذف برمادها في نهر الارنو. وتلقى مكيافيللي في غضون شهر واحد بعد ذلك، أول تعيين له، في منصب مهم من مناصب الدولة. ومن المحتمل أن يكون قد عمل قبل هذا التاريخ في وظيفة مغمورة في إحدى دوائر الحكومة، إذ عثر على بعض الرسائل في وسائل الدولة مكتوبة بخط يده، وترجع في تاريخها إلى عام ١٤٩٢. ومن غير المعقول أيضاً، أن يسند إليه مثل هذا المنصب الهام الذى اسند إليه الآن. لو لم تكن له خبرة من نوع ما العمل كمساعد في إحدى الدوائر الحكومية. وهكذا كانت بداية مكيافيللي في المناصب الهامة

الفترة الثانية فى حياته
١٤٩٨ – ١٥١٢
مكيافيللى فى الوظيفة

وللحديث عن الفترة الثانية في حياة مكيافيللي والتي يطلق عليها اسم الفترة الفطيقية يمكن القول انه كان مارسيلو فرجينيو ادريانى واليساندرو براكاسى يشغلان فى عام ١٤٩٨، منصبى الامينين الرئيسيين (السكرتيرين)، لمجلس السيادة فى فلورنسة، وقد طرد براكاسى فى هذا العام من منصبه، وكان نيقولو مكيافيللي، بين اربعة مرشحين، قدموا طلباتهم، للحصول على المنصب الشاغر. وقد اختاره مجلس الثمانين فى الخامس عشر من حزيران وأيد مجلس السيادة بعد أربعة أيام هذا الاختيار، فغدا مستشاراً، وأميناً عاماً للدولة فى الرابع عشر من تموز، وهو منصب ظل يشغله إلى أن سقط العهد الجمهورى فى المدينة فى عام ١٥١٢. ويتطلب هذا المنصب كتابة عدد ضخم من الرسائل، واعداد سيل غزير من التقارير، وكان مكيافيللى يتولى أعدادها، بمنتهى الاخلاص والشعور بالواجب. وكان يوفد فى أحيان كثيرة فى بعثات إلى الدول الأجنبية والإمارات المجاورة، كالعضو الثانى فى البعثة بعد السفير أو المبعوث، وهكذا توافرت له ناحيتان جمع منهما تجاربه الواسعة الأولى فى إدارة شئون الدولة الداخلية وتصريفها، والثانية فى الاطلاع على شئون البلاد الأجنبية التى زارها، وعلى الوسائل التى يلجأ إليها الأمراء والحكام فى الأنحاء الأخرى من إيطاليا.

وكانت المشكلة البالغة الأهمية، التى تحتم على فلورنسة أن تحلها فى هذه

الفترة، هي استعادة السيطرة على بيزا، وقد دامت الحرب معها ثلاثة عشر عاماً، ارتكبت فيها أخطاء عدة، وكانت مسئولية مكيافيللى فى هذه الآونة، أى بين عام ١٤٩٨ وعام ١٥٠٩، محصور فى تموين قوات فلورنسة، والتعامل مع القادة العسكريين الذين تعاقدت معهم المدينة لخدمتها، تحت اشراف مجلس العشرة. وأخذ مكيافيللى يدرك بصورة تدريجية، خطأ استخدام القوات المرتزقة أو الأجنبية التى لا هم لها إلا التشاحن مع بعضها البعض، والحصول على أجور أعلي. وآمن أن أية دولة، لا يمكن أن تكون أمينة على نفسها وحدودها إلا إذا كانت لها قواتها الخاصة بها. وقد دافع عن هذه النظرية باستمرار فى مطارحاته، كما أشار إلى الأخطاء الناجمة عن الاستعانة بالجنود الأجانب من المرتزقة. وقد آمن بفكرته هذه إيماناً قوياً، حتى أنه تمكن فى عام ١٥٠٦ من اقناع مجلس العشرة بتجنيد كافة المواطنين فى فلورنسة القادرين على حمل السلاح. ولا ريب أن الفضل فى تشكيل هذه القوة الجديدة من المتطوعة، راجع إلى مكيافيللى وحده. وأدى ظهور هذه القوة إلى قيام دائرة جديدة فى مستهل عام ١٥٠٧، اسمها (دائرة المتطوعين الجدد)، وعين مكيافيللى مستشاراً لها، كما قرر مجلس السيادة، مكافأة له على خدماته، منحه لقباً من القاب النبل والشرف فى آيار من العام نفسه. وشجعه ما لقيه من نجاح فى تشكيل فرق المتطوعة من المشاة، فشرع فى عام ١٥١٠ فى اعداد كتائب من الفرسان أيضاً.

وقد أفاض مكيافيللى فى الحديث عن المتطوعة، أو جيش المواطنين الذى يجب أن يكون قائماً فى كل دولة. وكان يرى أن هذا الجيش، يجب أن لا يعتمد كلية على التطوع، ولكنه كان لا يؤمن بالتجنيد الاجباري، فرأى الأخذ بنظام يجمع بين الإغراء والضغط، لحشد المتطوعين فى جيشه الذى يجب أن يكون

كبيراً، ذلك لأن الجيش القوى وحده، هو السبيل لتحقيق الأمن والطمأنينة. أما فى أيام السلم، فيجب تجديد دعوة الجيش فى أيام العطل والأعياد، إذ رأى مكيافيللي، إن لا ضرورة هناك للتدخل فى أعمال المواطنين العادية، كما رأى أن لا يحمل الخزينة نفقات لا ضرورة لها، بحيث قصر المرتبات على من يخدمون فعلاً فى أيام الحروب. وكان جميع المواطنين الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والاربعين يدعون للخدمة العسكرية، ولم يكن الرجل يتولى قيادة جنود من منطقته، مخافة اتساع نفوذه وسلطانه، كما لم تكن مدة قيادته لأية فصيلة أو جماعة تمتد إلى أجل طويل، ويقول مكيافيللى أن الدولة التى تسلح مواطنيها إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة، لا تشعر بأى خطر، فقد تمكنت روما التى سارت على هذا المنوال من الحفاظ على استقلالها اربعمائة عام كما حافظت اسبارطة على حريتها ثمانمائة عام. وكان الحفاظ على الجيوش العاملة فى أوقات السلام، هو الذى أدى إلى الحروب الأهلية فى روما، وإلى قيام المؤامرات حتى على الأباطرة الصالحين من أمثال هادريان وماركوس اوريليوس وكومودوس.

وحملته حرب بيزا التى أشار إليها أكثر من اثنتى عشرة مرة فى مطارحاته، على التفكير فى قضايا أخري، منها الخطأ فى الاعتماد على القلاع فى حماية المدن، ووجوب توقع خطط العدو وحركاته، والحذر من خطط التضليل المصطنعة التى يضعها العدو، والخطأ فى تعيين أكثر من قائد أعلى، وفى الميل إلى تجاهل خبرة القود عندما تكون الأمور هينة رخية، ومنها أيضاً، الخطأ فى إهمال النظام والتقاليد العسكرية، والتردد الذى تبديه بعض الجمهوريات الضعيفة، وسهولة خداعها بالاغراق فى الوعود.

ويتحدث مكيافيللى فى مطارحاته أيضاً عن ثورة (اريزو)، ويظهر الأخطاء التى تتعرض الحكومات الضعيفة للوقوع فيها. وأكد أن من الخطأ أن تقدم

الحكومة على عمل غير ناضج، وأن تكتفى باعتقال واحد من عدة متآمرين، كما فعل كوغليلمو دى بازي، إذ أن اعتقال هذا الشخص، يحفز المتامرين الآخرين على العمل. وأكد أن الخطأ، هو رفض عرض طيب، أملاً فى الحصول على عرض أحسن، كما فعلت فلورنسة فى رفضها استسلام اريزو وفقاً لشروط رآها معقولة ومناسبة. ومن الخطأ، عند وقوع الثورات، اللجوء إلى الأساليب المعتدلة أو الحلول الوسطي. وليس من الحكمة، الاشفاق على المدن الثائرة، ومعاقبة لفيف ضئيل من الثائرين بانتزاع أملاكهم والقابهم منهم، إذ إن هذه الطريقة لم تكن ما اتبعته روما فى اخضاع الثورات التى كانت تنشب ضدها. وقد أوضح مكيافيللى آراءه فى هذا الصدد ايضاحا كافياً فى التقرير الذى أعده فى ذلك الوقت عن طريقة معاملة أهالى (شيانا) التى ثارت آنذاك، مما يشير إلى أنه فى هذا الوقت المبكر، كان مقبلاً على دراسة التاريخ الروماني، رغبة منه فى استخدامه كموجه فى إدارة دفة الأمور.

وقد استخدم مكيافيللى الاضطرابات التى نشبت فى (بستويا) عام ١٥٠١، بسبب الصراع الحزبى بين فريقين فيها، كدليل على صحة نظريته القائلة بأن من الحمق كل الحمق، محاولة الاحتفاظ بأية مدينة من المدن عن طريق خلق المنازعات الحزبية فيها وتجزئتها، ومع ذلك فهو يرى أنه إذا كان لابد من وجود هذا الانقسام، فعلى الحاكم، أن يعتمد حيناً على أحد الفريقين، ثم لا يلبث أن ينقل اعتماده بعد وقت قصير إلى الفريق الآخر.

ولا يستخدم مكيافيللى كلمة الحزب أو الفريق، فى معرض التعبير عن حزب سياسى معين، يؤيد وجهات نظر خاصة، ويتوق إلى قلب الحزب الحاكم بالوسائل الدستورية، وهو يعنى بها، الحزب السياسي، المستعد لاستخدام كل

وسيلة للوصول إلى السلطان، حتى ولو كانت الرشوة والاغراء بالمال وإفساد الضمائر، أو كانت اللجوء إلى السلاح، معتمداً لا على قوة أتباعه داخل الدولة فحسب، بل على سلاح الدول الأخرى من إمارات أو جمهوريات أو ممالك. وكانت هذه الحالة سائدة فى إيطاليا منذ القرن الرابع عشر. ولم تنج أية دولة فيها، صغيرة كانت أو كبيرة من ويلاتها، باستثناء البندقية وكثيراً ما نشبت المنازعات فى الدولة الواحدة، بين فرعين من فروع أسرة واحدة، كما كانت الحالة فى ميلان بالنسبة إلى عائلة سفوررزا، وبين العم وابن أخيه فى فيرمو، وبين الأخوين فى فيرارا ولونيجيانا، وبين عائلة باجليونى فى بيروجيا التى انتهت بسيطرة جيوفانى باولو على المدينة بعد أن قتل جميع أفراد أسرته، وفى بولونا ثار الشعب على أميره فى عام ١٥٠٦، واستبدله بآخر، ولكنه ما عتم أن أعاده فرحاً بعد أن رأى مظالم الأمير الجديد الذى جاء به إلى الحكم. واشتدت المشاحنات فى المقاطعات البابوية بين الأورسينى وأراد أسرة كولونا، مما أدى إلى قيام تهديد دائم للمملكة وللبابوات أنفسهم، لم تنجح معه وسائل العنف التى لجأ إليها البابوات من أمثال الإسكندر السادس ويوليوس الثانى ضد نبلاء روما وأشرافها. وكانت نابولى أيضا منقسمة على نفسها بين النبلاء الموالين لأسرة اراغون الإسبانية، وبين النبالء المخلصين لأسرة أنجو الفرنسية. وكانت الجمهوريات كلها، باستثناء البندقية، فى وضع سيء أيضاً. فضعف جنوا ناجم عن الصراع بين أسرتى فريغوسى وأدورني، الذى كان موضع استغلال الدول المجاورة، وكان أنصار النظام السابق فى فلورنسة يعملون ليل نهار لإعادة أسرة المديشى إلى الحكم، وقد اكتشفت مؤامرات عدة كان آخرها، تلك الثورة التى تدخلت فيها إسبانيا فى عام ١٥١٢ والتى أعادت آل مديشى إلى الحكم. ومن المهم أن ندرك كل هذه

الوقائع إذا أردنا أن نفهم، كيف أن مكيافيللى الذى عامل أهل بيزا بالحسنى بعد إخماد ثورتهم، قد أخذ يوصي بالقسوة والشدة فى معاملة الأحزاب والفئات التى قد تمتشق الحسام ضد أى نظام قائم.

ويعجب مكيافيللى إعجاباً منقطع النظير ببيرو سوديرينى صديقه الشخصي، الذى يتولى الحكم فى فلورنسة، والذى خدمه باخلاص ومثابرة مدة عشر سنوات ملأى بالمتاعب والمشاكل. ولا ريب فى أنه كان يرى فى أسلوب صديقه فى الحكم، أسلوباً مثالياً فى أوقات السلم والهدوء. ولكن سوديرينى كان من النبل، بحيث تعذر عليه اللجوء إلى الوسائل غير الدستورية، عندما فشلت الأساليب الدستورية فى معالجة الوضع. وهكذا استسلم فى النهاية إلى دسائس الأحزاب والشيع المتنافسة، وكان مصيره كغيره من الرجال الأشراف فى أكثر من دولة واحدة، الطرد من البلاد.

ولعل من المظاهر الأخرى فى هذه الفترة التى شغل فيها مكيافيللى منصباً حكومياً، والتى يجب علينا إدراكها، إذا أردنا تفهم رغبته المحرقة فى توحيد إيطاليا، وحملته على جميع من يقفون فى طريق تحقيق هذه الوحدة، هى تلك الحروب التى لم تنقطع، والتى تعرضت لها إيطاليا فأصابها الدمار من جرائها. فالفرنسيون الذين اخرجوا إيطاليا فى عام ١٤٩٦، عادوا إليها فى عام ١٤٩٩، وسارع كل أمير من أمراء شمال إيطاليا إلى ميلان، لتقديم فروض الخضوع والطاعة للفاتحين، وغدت نابولى من جديد مسرحاً للحرب بين الفرنسيين وأسرة الأرغون لتسلم مقاليد الحكم فيها. وقام قيصر بورجيا، فى نفس العام، يؤيده الفرنسيون فى ذلك، بحملاته لاحتلال رومانيا وتوكسانيا، واتبعها بحملات أخرى فى أعوام ١٥٠٠ و١٥٠١ و١٥٠٢، وسرعان ما نشبت الحرب بين قيصر

بورجيا، وحلفائه الساخطين عليه، وانتهت إلى مذابح سينغاغليا، وبعد أن استعاد غونسالفو نابولى لعرش سيده الإسباني، سارع إلى الشمال لمساعدة بيزا فى ثورتها ضد فلورنسة وجاءت الحرب بعد ذلك فى شاطئ الريفيرا بين الجنوبيين والفرنسيين، والحروب التى شنها البابا يوليوس الثانى لاستعادة سيطرته على بيروجيا وبولونا وفيرارا وغيرها من المدن التى استقل امراؤها بعد ثورتهم عليه. وغزا الامبراطور مكسمليان ايطاليا مرتين، احداهما فى عام ١٤٩٦، والثانية فى عام ١٥٠٨. وكانت البندقية فى غضون ذلك قد وسعت ممتلكاتها على حساب جاراتها، وازدادت غطرستها، حتى بدت بمظهر الراغبة فى السيطرة على إيطاليا كلها. ولكن البابا تدخل، فأخرج البنادقة بمساعدة فرنسا، ثم ما عتم أن أخرج الفرنسيين بمساعدة السويسريين، وفى غضون ذلك، جاء الإسبانيون من الجنوب بقيادة ريمون دى كاردونا، وخضعت فلورنسة لهم.

ونعود إلى مكيافيللي وافكاره فكان وضع إيطاليا المحزن إلى عاملين، أولهما تجزئتها إلى عدد من الدول، وثانيهما، انحطاط الانضباط العسكري، وهو يلقى باللوم فى كلتا الحالتين على الكنيسة المسيحية. فهو يلوم البابوية على حالة التجزئة التى تسود إيطاليا، وذلك لأنها ضعيفة من الناحية الأولى بحيث لا تستطيع توحيد إيطاليا بأسرها تحت سيطرتها، ولكنها فى الوقت نفسه، ليست على ذلك النحو من الضعف الذى تعجز فيه عن مقاومة أى أمير إيطالي آخر، قد يقوم بالمحاولة، وذلك لأنها كانت تستثير دائماً الدول الأجنبية عليه إذا حاول القيام بهذا التوحيد. وهو ينحو بالتثريب أيضاً على المسيحية، لأخفاء تلك الروح من القوة والحماس، وهى فى رأيه ضرورية لكل من يريد التفوق فى الشئون الحربية.

ويعود مكيافيللى إلى هذا الموضوع فى كتابة (فن الحرب)، وذلك فى معرض

الرد على السؤال الذى تلقاه من كوزيمو روسلتي، عن الأسباب التى أدت إلى انتشار الجبن إلى هذا الحد، وفقد النظام، وانتشار الاهمال فى التدريب العسكري، ورده هنا مزدوج أيضاً. فيقول فعندما تكثر الدول، سواء أكانت جمهوريات أو إمارات أو ملكيات، يبزغ نجم عدد كبير من العسكريين من رجال الطبقة الأولي، بينما يقل هذا العدد، عندما يكون عدد الدول صغيراً، وهكذا لم تنجب إفريقيا إلا قلة من القادة العسكريين إذا ما قورنوا بأولئك الذين أنجبتهم كل من آسيا وأوروبا. والسبب فى ذلك هو أن وفرة عدد الدول التي، حتمت على كل دولة، نظراً لخشيتها من الدول الأخري، أن تحتفظ بقوات عسكرية قائمة، وأن تمجد كل من يبرز عن أقرانه فى هذه الشئون، ولكن عندما تمكنت الامبراطورية الرومانية من تحطيم جميع الجمهوريات والمقاطعات فى أوروبا وافريقيا، وفى معظم أنحاء آسيا، لم تعد هناك فرصة متاحة لممارسة هذه الفضيلة إلا فى ظل روما. وهكذا ندر عدد الرجال الأفاضل فى أوروبا وآسيا أيضاً، وتدهورت الفضيلة إلى أكثر الأعمال سحقاً، وذلك لأن تركيز الفضائل فى روما، أدى إلى فساد العالم بأسره، فسدت روما نفسها.

ويمضى مكيافيللى قائلاً: (ولم تعد هذه الفضيلة إلى الانتعاش حتى بعد تجزئة الامبراطورية إلى عدة أقسام بفضل غزوات البرابرة، وذلك لأن من الصعب أولاً على الجزء أن يجدد حياة المؤسسات التى تعفنت وانتشر فيها الفساد، وثانيًا لأن طريقة الحياة الراهنة، بفضل النصرانية، لا تفرض الحاجة إلى الدفاع عن النفس، كما كانت الحالة من قبل، وذلك لأن الرجال الذين كانوا يهزمون فى الحرب، فى العهد السالف، كانوا أما إن يلقوا الموت فى المعركة، أو يقضوا ما تبقى من الحياة فى العبودية والشقاء، وكانت المدينة إذا سقطت فى يد عدو لها،

تتعرض للدمار والتخريب، ويجمع رجالها، وينتزع منهم كل ما يملكونه، ثم يشردون فى شتى أنحاء المعمورة. وهكذا كان المهزمون فى الحرب، يجرعون كؤوس الشقاء حتى ثمالتها. وهكذا حتم الفزع من مثل هذه النتيجة على الناس الحفاظ على تدريبهم العسكرى. أما اليوم، فقد اختفى هذا الخوف إلى حد كبير، إذ أن المغلوبين على أمرهم لا يقتلون إلا باستثناء قلة منهم، ولا يقضون حياتهم فى غياهب السجون، نظراً لسهولة حصولهم على الحرية. ولا يكون مصير المدينة إذا ثارت ألف مرة إلى الخراب والدمار، ويترك أهلها وشأنهم ينعمون بأملاكهم، وكل ما يخشونه هو الضريبة التى يدفعونها. وقد حمل هذا الوضع الناس على عدم الاهتمام بالتدريب العسكري، وعلى عدم تحمل متاعبه، لعدم وجود أخطار يخشون منها كل الخشية).

وكانت تجزئة الامبراطورية الرومانية، إلى دويلات صغيرة متنافسة، كفيلة بأن تستفز النشاط العسكرى والانضباط، وكان فى امكانها أن تفعل ذلك، لولا تدخل الكنيسة، واتباعها سياسة تماثل تلك التى تتبعها الأمم المتحدة اليوم، وسعيها وراء احلال السلام فى أوروبا التى كانت تمزقها آنذاك كما تمزقها اليوم المطامع وروح العدوان والمطالبة بالأمن الذى تفتقر إليه بسبب أوضاعها المجزأة. ويطوى معظم الناس على الجهود التى تم بذلها فى القرون الوسطى لاحلال السلام فى أوروبا. ولكن مكيافيللى وحده لا يطريها. وكان يؤثر أن يرى بدلاً من تلك الروح الإنسانية، التى سيطرت تدريجياً وببطء، والتى أزلت إلى حد كبير أهوال الحروب ومخاوفها. حالة أخري، عنى فيها المهزومون (أما بالموت أو بقضاء ما تبقى من الحياة فى شقاء العبودية الدائمة). ولكننا نراه مع ذلك فى الحالات التى لا يتغلب عليه فيها الحقد تجاه آراء رجال الكنيسة،

يوصي باتباع سبيل واحد ليس ثمة غيره في معاملة أفراد الشعوب المقهورة على أمرها، لحملهم على الولاء والاخلاص، وهو سبيل المعاملة الإنسانية التي كانت الكنيسة توصي باتباعها دائماً. وعندما سقطت بيزا في يديه، اختار هذا السبيل في معاملة أهلها.

الحقيقة التي لا ريب فيها أن مكيافيللي كان مخطئاً في تقديره للأسباب التي أدت إلى انحطاط قوة إيطاليا العسكرية. فهو يتساءل مثلاً، في الكتاب السابع عن فن الحرب، عن الأسباب التي تحمل العالم على النظر بعين الزراية والاستخفاف إلى القوات الإيطالية وهو يتساءل عن السبب في تأخرها في الفن العسكري عن القوات الإسبانية أو السويسرية. ومن الحق أن يقال، أن الواجب يحتم على القوات الغازية، الحفاظ على نظامها وانضباطها العسكريين، إذ أنها إذا منيت بالهزيمة، فلا أمل لها في النجاة. ولكن هذه الحقيقة لم تكن عاملاً فيما أصاب القوات الإيطالية من انحطاط وما لحق بها من افتقار إلى النظام. ولا يمكن توجيه اللوم أيضاً إلى الشعب الايطالي، وإنما يوجه اللوم إلى أمراء هذا الشعب الذين قبل أن تصيبهم الضربات القاصمة في الحروب الأخيرة، قنعوا من الحياة، كأمراء، بتدبيج الرسائل الرائعة، بخط أنيق ومنمنم، وبالتفنن الماكر في سرد الحجج والرد عليها، وأبدعوا في خلق المشاحنات، وإغراق أنفسهم بالجواهر والذهب، والتمتع بملذات النوم والمآكل أحسن من جيرانهم من الأمراء الآخرين، وأوغلوا في حياة من الشهوات التي لا حدود لها، فسلكوا مع رعاياهم سلوكاً يقوم على الشره والحمق، وتعفنوا بحياة الكسل والبلادة، ومنحوا المناصب العسكرية الرفيعة كهبات للطفيليين والقوادين، واحتقروا كل من يسلك مسلك النبل والشهامة، وتوقعوا من بطانتهم اعتبار أقوالهم وكأنها وحي منزل. ولم يدرك هؤلاء التعساء الاشقياء، أنهم بأعمالهم هذه يعدون

أنفسهم ليكونوا أول فرائس لكل من يهاجمهم. وإذا أردنا الاختصار قلنا أن الكنيسة لم تكن السببِ فى تدهور حالة إيطاليا، بل كانت (النهضة) التى سرت بعدواها إلى جميع حكام إيطاليا من أمراء، ورجال كنيسة، وجمهوريين، ولكنها لم تسر إلى شعوبهم التى مضت فى طريقها تزاول أعمالها من تجارة وزراعة، وتمارس الفضائل المسيحية فى المدن والقري، دون أن تكترث بما يفعله امراؤها، إلا عندما تداهمهم الحرب. وكان الشعب الإيطاليا بارعاً فى الثورة على الغزاة الأجانب، وقد ظهر هذا جلياً فى سرعة طرد كونسالفو دى قرطبة (كوردوفا)، للفرنسيين من مملكة نابولي، وكان هذا الشعب أيضاً على استعداد للوثوب تأييداً لدولة قوية تعده بالحكم الصالح كما فعلت البندقية مثلاً. وهكذا فإن الخطأ لا يقوم فى طبيعة الشعب الإيطالي، ولا فى ديانته، بل فى امرائه الذين أضعفت قواهم الرذائل الكثيرة التى أدخلتها الثقافة الجديدة، والذين لم يكن حماسهم لحرية إيطاليا يعنى شيئاً إذا تعارضت هذه الحرية مع مصالحهم.

ولعل من أبرز ظواهر العهد الذى كان فيه مكيافيللى يشغل منصب أمين سر جمهورية فلورنسة، هو التجاهل المطلق الذى كانت تبديه جميع الحكومات لقداسة المعاهدات باستثناء فلورنسة التى ظلت على ولائها للفرنسيين وأدى ولاؤها هذا إلى خرابها. وكان لودفيكو مورو، قد حث فى عام ١٤٩٤ لويس الثانى عشر على المجيء إلى إيطاليا، ولكنه ما لبث أن تخلى عنه فى عام ١٤٩٥ لينضم إلى عصبة البندقية، وعاد قبل انتهاء العام نفسه فحالفه، ليتخلى عنه لويس فى عام ١٤٩٩، وليودعه السجن الذى استحقه تمام الاستحقاق، حيث قضى ما بقى من حياته. وكانت البندقية قد انضمت إلى الحلف المناوىء للويس فى عام ١٤٩٥. ولكنها ما لبثت أن غدت حليفته فى عام ١٤٩٩، لتجده فى عام ١٥٠٥ فى بلوا وفى عام ١٥٠٧ فى ساونا وفى عام ١٥٠٨ فى كامبري، أنه على استعداد للتحالف مع اعدائها لتحطيم

قوتها، وقد تمكن إلى حد ما من تحقيق غرضه هذا فى معركة اغناديلو فى عام ١٥٠٩.
ولعل أبرز الأحداث التى وقعت بعد هذه المعركة، انسحاب لويس الثانى عشر ملك فرنسا والبابا يوليوس الثانى من الحلف الذى تألف لمحاربة البندقية، ثم قيام البابا نفسه بالتحالف مع البندقية فى عام ١٥١٠ لاخراج الفرنسيين من إيطاليا. ولم يكن فرديناند ملك الارغون بالشخص الذى يوثق به أكثر من معاصريه. فبعد نصرته لاقربائه فى نابولى ضد لويس ملك فرنسا عام ١٤٩٤، نراه يتفق مع لويس فى عام ١٤٩٧ على اقتسام مملكة نابولى بينهما، ووقع فى عام ١٥٠٠ معاهدة غرناطة التى تقضى بهذا الاقتسام. ولم يمض عامان حتى كانت قواته تقاتل الفرنسيين فى الأراضى التى تم احتلالها بالاشتراك وتطردهم منها. واضطر لويس، فى صلح ليون عام ١٥٠٤، إلى التخلى عن مطالبه. واشتركت فرنسا وإسبانيا معاً فى حلف كمبريه فى عام ١٥٠٨، ولكنهما ما لبثتا أن اختلفتا واشتبكتا فى قتال ضار فى معركة رافينا. وعانت فلورنسة أمر التجارب من افتقار ملوك فرنسا إلى الوفاء بعهودهم. فعندما احتل ملك فرنسا مدينة بيزا، لم يقم باعادتها إلى فلورنسة كما وعد بذلك فى عام ١٤٩٤، بل ترك المدينة فى عهدة قائدة من قواده سرعان ما أعلن تحريرها لاحد الاعتبارات الخاصة به. ولم يقم القائد الفرنسى هو غو دى بومونت بتسليم بييتر يسانتا فى عام ١٥٠٠ إلى فلورنسة، كما لم يقم القائد ايمبولت بتسليم اريزو فى عام ١٥٠٢، بعد أن أخذ ثورتها. على الرغم من ضخامة الأموال التى دفعها الفلورنسيون للفرنسيين مقابل خدماتهم. وأرسلت فرنسا قوات أخرى فى عام ١٥٠٠ إلى بيزا، أكثر من المتفق عليه، ولم تستطيع فلورنسة تأدية مطالبهم المتزايدة من الرواتب، وأعلن الجنود الغاسقونيون العصيان. وعندما كادت فلورنسة فى عام ١٥٠٨ تنهى الحرب بفضل قوتها الخاصة بها من المتطوعة، هدد لويس بمساعدة بيزا، مما حمل فلورنسة على

وقف اجراءاتها إلى أن تصل إلى تفاهم مع حليفها. وقد تجلت هذه الظاهرة من عدم الوفاء بالالتزامات فى الدول الصغيرة وصغار الأمراء أيضاً، فقد كتب مكيافيللى فى عام ١٤٩٩ عن الكونتيسة فورلي، يقول أنها لا تعرف نفسها وهل هى ضالعة مع فلورنسة أو مع ميلان. وكتب عن باندولفو بيتروشى يقول فى عام ١٥٠٥ أنه أمير لا يستطيع المرء أن يدرك نواياه من مجرد التطلع إليه. واعدمت فلورنسة باولو فيتيلى فى عام ١٤٩٩ بتهمة الخيانة، وقد اقتنع مكيافيللى بجريمته، ومهما كان الحكم الذى نصدره على هذه الوقائع، وعلى ما كتبه مكيافيللى نفسه من أن أى أمير قد يكون عاجزاً أحياناً عن الوفاء بالتزاماته، فإن علينا أن نذكر أنه فى تلك الأيام، لم تكن هناك أية دولة، صغيرة كانت أو كبيرة، تفكر لحظة واحدة فى عدم التخلى عن التزاماتها ونقض معاهداتها، إذا كان فى هذا النقض ما يخدم مصالحها الخاصة بها. وهو ما يؤكد على أن مبدأ مكيافيللي (الغاية تبرر الوسيلة) مبدأ لا أخلاقي ومبدأ غير صحيح على الأطلاق........

الفترة الثانية أيضاً..
١٤٩٨ – ١٥١٢
بعثات مكيافيللي

في هذه الفترة الزمنية أوفد مكيافيللى فى عدد ضخم من البعثات الدبلوماسية، ودبج عدداً كبيراً من الرسائل والتقارير المتعلقة بها، وكل ما يهمنا منها الآن، هو البحث فى التجارب التى حصل عليها مكيافيللى من هذه البعثات، والطريقة التى استخدمها فى الحديث عنها فى مطارحاته.

ولقد كان القسم الأكبر من هذه البعثات إلى إمارات تقع فى ضواحى فلورنسة، وكانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحرب بيزا. وكان بين الإمارات التى أوفد إليها بيومبينو، حيث اجتمع إلى أميرها جاكوبو دابيانو أكثر من مرة، والكونتيسة دى فورلي، وبيروجيا حيث زار أميرها باغليوني، ومركيز امنتوا، وعلى الرغم من فشله فى معظم هذه البعثات، إلا أنه تعلم الكثير فى غضونها عن أساليب الأمراء وطرقهم وأخلاقهم. وأوفد بعد إخفاق ثورة اريزو فى عام ١٥٠٢، إلى المدينة ثلاث مرات، لتسوية المشاكل، وتنظيم شئون استسلامها.

وكان أول اتصال لمكيافيللى بقيصر بورجيا، فى ثورة اريزو، التى كان القيصر هو المحرض عليها. وقد طلب بورجيا من فلورنسة ايفاد سفارة إليه، فمضى مكيافيللى فى عام ١٥٠٢، مع سوديرينى إلى أوربينو، حيث عرف أن ما يريده بورجيا حقاً، ليس السفارة أو البعثة الدبلوماسية، وإنما تغيير الحكم فى فلورنسة

كلها. وعادت فلورنسة فأوفدت مكيافيللى مرة ثانية وحده إلى قيصر بورجيا فى شهر تشرين الأول وقد قضى ثلاثة أشهر فى صحبة بورجيا وتعرف إلى مساعده الافاق دون ميشيلينو، الذى دعاه فيما بعد لتنظيم قوات المتطوعة التى انشأها فى فلورنسة عام ١٥٠٨، وشهد معه، نهب بيرغولا، واقتحام فوسومبروزي، والمعركة التى خاضعها بورجيا مع الاورسيني، ومفاوضاته الناجحة مع زعماء الثوار، ثم القضاء عليهم فى سينيغاغليا. وكانت الخديعة التى استخدمها بورجيا مصحوبة بالحيوية فى القضاء على زعماء الثورة، هى السبب الذى دفع مكيافيللى إلى أن يجعل منه، أى من قيصر، النموذج المثالى للجمع بين القوة والحيلة، وذلك فى كتابه (الأمير). أما فى (المطارحات) فليست هناك مكانة بارزة لقيصر، الذى لا يذكره مكيافيللى إلا عرضاً فى مواقع متفرقة.

وقد أوفد مكيافيللى أيضاً فى بعثات خمس إلى سيينا، وإلى المعسكرات الواقعة خارج بيزا، حيث جمع معلوماته العسكرية، كما أوفد فى نهاية عهد سوديريني، فى بعثات عدة، داخل ممتلكات فلورنسة، لاعدادها للحرب المقبلة مع نائب الملك فى إسبانيا، ولكن عندما وقعت الحرب فعلاً، انهارت قوات المتطوعة التى نظمها مكيافيللى دون أن تشترك فى قتال فعال.

ثم بعد ذلك أوفد مكيافيللى فى بعثتين إلى روما، جعلته يتصل اتصالاً مباشراً بالبلاط البابوى الذى انتقده انتقاداً مراً. وقد شهد فى روما انتخاب يوليوس الثانى لكرسى البابوية، وبعث فى رسائله إلى مجلس السيادة فى فلورنسة يتحدث عن الرشوة والأموال التى وزعت للحصول على أصوات الكرادلة الاسبان. وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن البابا الجديد لن يقف إلى صف بورجيا على الرغم من وعوده قبل الانتخاب، كما لن يقف إلى صف فلورنسة. واعطى لبورجيا

رسالة، موجهة منه إلى مجلس السيادة، للسماح له بعبور الأرض الفلورنسية للوصول إلى رومانا، بينما بعث فى الوقت نفسه برسالة أخرى إلى مجلس السيادة تقول أن توصيته التى يحملها بورجيا لا تعنى أكثر من مجرد قصاصة ورق. وكان لا يزال فى روما، عندما أعيد بورجيا من اوستيا، رهن الاعتقال، وآمن بأن لا أمل لهذا الانسان فى المستقبل. أما الانحياز الظاهر، الذى كان البابا يوليوس يبديه للبندقية، والذى أسفر عن اغتصابها لبعض ممتلكات بورجيا، فقد دفع مكيافيللى إلى اظهار بعض القلق، مخافة، أن يتحول البابا إلى نصير للبندقية، ليس إلا، مما لا يتفق مع مصالح فلورنسة.

ثم أوفد مكيافيللى فى عام ١٥٠٦ من جديد إلى بلاط يوليوس الثاني، الذى كان قد شرع فى حملة لطرد الطاغيين اللذين يحكمان بيروجيا وبولونا، والذى كان قد طلب العون والمساعدة من فلورنسة. وكانت مهمة الرسول أن يعرف للبابا عن استعداد فلورنسة للاشتراك فى هذا (العمل المقدس). وظل مكيافيللى على اتصال وثيق بالبابا والكرادلة أثناء الحملة، على الرغم من عدم حبه لهم وميله إليهم.

ثم ذهب مكيافيللى فى أربع بعثات إلى بلاط ملك فرنسا، وكان لهذه البعثات كلها علاقة مباشرة بالسياسة البابوية. وقد تعلم فى جميع هذه البعثات التى استغرقت أشهراً عدة الكثير عن طرق الفرنسيين وعاداتهم ودسائس البلاط عندهم. وكان المعروف فى فلورنسة، أن جميع الرسائل الواردة من البعثة، على الرغم من أنها تحمل اسمى الموفدين وهما ديلاكاسا ومكيافيللي، إلا أنها من نتاج مكيافيللى وحده، وكانت تلقى كل تقدير فى بلده. فلقد بدأت آراؤه عن فرنسا تتطور، ولكنه لم يكتب هذه الانطباعات إلا بعد رحلته الرابعة.

ولم يكد مكيافيللى يعود إلى فلورنسة من روما بعد انتخاب البابا يوليوس

الثاني، حتى أوفد من جديد إلى فرنسا فى كانون الثانى عام ١٥٠٤، ليقدم تقريراً عن نوايا ملكها، الذى كان يعد العدة للقيام بغزو جديد للفلورنسة. وكان من المتوقع أن يقوم غونزالفو الذى استعاد مملكة نابولي، بمهاجمة فلورنسة. ولكن هذا الخطر قد زال، عندما وقعت فى الحادى عشر من شهر شباط هدنة لمدة ثلاث سنوات بين إسبانيا وفرنسا شملت حلفاءها أيضاً. وفى الحال سارع مكيافيللى بالعودة إلى الوطن.

ثم وجدت فلورنسة نفسها فى عام ١٥١٠ فى موقف صعب للغاية، فقد قرر البابا يوليوس الثانى طرد الفرنسيين من إيطاليا، وكان قد تحالف لتحقيق هذه الغاية مع البندقية، واستأجر قوات من السويسريين. وتحتم على فلورنسة أن تختار بين البقاء على ولائها لفرنسا، أو الإساءة للبابا. وقرر سوديرينى تبعاً لذلك، ايفاد مكيافيللى إلى لويس الثانى عشر ملك فرنسا، لاقناعه باتخاذ إجراء حازم ضد البندقية، مع تجنب الاصطدام علناً مع البابا أو الامبراطور. وكان من المهم أيضاً تبين موقف روبرتيت، الذى غدا بعد موت الكردينال دامبواز، المستشار الأول للويس. وبعث مكيافيللى إلى فلورنسة يحذرها من أن الحرب بين فرنسا والبابا واقعة لا محالة، وأن عليها أن تقرر الجانب الذى ستقف إلى صفه. وعلى الرغم من معارضة رجال الكنيسة فى فرنسا لنشوب حرب ضد البابا، فقد دعا الملك لويس المجلس إلى الاجتماع فى أورليان لبيان رأيه فى شرعية هذه الحرب، وبعث مكيافيللى يقول، إنه لو كانت فلورنسة بعيدة عن الموضوع، لكان من اللذيذ حقاً، أن يرقب المرء ما سيفعله الكرادلة. وقد قضى مكيافيللى فى بعثته هذه أربعة أشهر.

وقرر المجلس الفرنسى الذى اجتمع فى تور بدلاً من أورليان، أن الحرب مع البابا مشروعة وصحيحة. واقنع لويس خمسة من الكرادلة بالدعوة إلى مجلس

كنسي عام، وارغم فلورنسة، وهي متذمرة، على الموافقة على عقد الاجتماع في بيزا، التي تعرضت تبعا لذلك لخطر الحرمان البابوي. وتقرر ايفاد مكيافيللي إلى بلاط فرنسا للمرة الرابعة. وأرسل مكيافيللي في أيلول عام ١٥١١، أولاً إلى بورغو سان دونينو، ليقطع على الكرادلة طريقهم، وهم متجهون إلى بيزا، أملاً في اقناعهم إما بتأجيل عقد المجلس، أو بنقل مكان انعقاده من بيزا إلى أي مكان آخر. ومضى مستهدفاً نفس الغاية إلى ميلان لمقابلة نائب الملك الفرنسي، غاستون دي فوا، ومن ميلان إلى فرنسا، حيث قدم بصحبة السفير الفلورنسي اكويولي، مذكرة إلى ملكها، وأعلن الملك أن المجلس لن ينعقد قبل عيد جميع القديسين، وأنه سيأمر بنقله إلى مكان آخر. وعاد مكيافيللي مسرعاً إلى فلورنسة، وتقرر إيفاده في شهر تشرين الثاني على رأس حرس مسلح إلى بيزا لحماية المجلس. ووجد المدينة هائجة مائجة، وقد رفض رجال الاكليروس فيها السماح لأعضاء المجلس باستخدام الكاتدرائية أو ملابسهم الكهنوتية الرسمية. وبعد جلسات ثلاث، نشبت اضطرابات عنيفة في المدينة، وتقرر نقل المجلس إلى ميلان.

وقد تحدث مكيافيللي في مطارحاته، حديثاً طويلاً عن انطباعاته عن فرنسا، فأطرى دستورها، متأثراً أشد التأثر بالإجراءات الدستورية التي يتبعها ملكها، وباحترامه للقوانين، والاكتراث الذي يبديه للبرلمانات التي تنحصر مهمتها في رؤية القوانين وهي مطبقة تمام التطبيق. وهو يقول في هذا الصدد، أن الملك هو الذي يصون وحدة البلاد، وأن تطبيق القوانين هو الذي يؤدي إلى ما تتمتع به البلاد من استقرار. ويتحدث عن ثروة البلاد وإنتاجها، وعما في توزيع هذا الإنتاج من اجحاف ضخم، إذ أن معظمه في أيدي النبلاء والأساقفة. أما الشعب ففقير، يرتدي أحقر اللباس. وعلى الرغم من الثراء الذي يحيط به، فلا

نصيب له فيه، وهو مع ذلك طيع مستكين. ويخلص من هذا إلى القول بأن شعب فرنسا فاسد. ولكن هذا الفساد يعود إلى سادتها الإقطاعيين، وما لم يكبح الملك جماحهم، ويوقفهم عند حدودهم، فإن اضطرابات عنيفة ستنشب فى البلاد حتماً. ويرى من الناحية الأخرى أن الملك يخطئ خطئاً كبيراً، فى السماح بنهب ثروات شعبه وبقائه أعزل من السلاح، إذ أن هذه الحالة، حملت الملك على الاستعانة بالمرتزقة، وانفاق أموال ضخمة على شكل رواتب لأفرادها.

وكانت النظرة التى حملها مكيافيللي، عن ألمانيا أثناء الزيارة التى قام بها للامبراطور، مختلفة عن نظرته لفرنسا تمام الاختلاف، وأقل منها دقة. وقد حصل مكسيميليان فى عام ١٥٠٧ من مجلس كونستانس على منحة بتجنيد ثمانية آلاف جندى من الفرسان وعشرين ألفاً من الفرسان، لإعادة سيادته على مدن إيطاليا الشمالية، والذهاب إلى روما، ليتوج امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة. وطلب آنذاك من فلورنسة أن تقدم له معونة قدرها نصف مليون من (الدوكات) وكان من المحال، أن تستطيع فلورنسة تقديم مثل هذا المبلغ، يضاف إلى ذلك، أن تقديم أى مبلغ كان إلى الامبراطور سيغضب فرنسا. وقد حاول سوديرينى تعيين مكيافيللى سفيراً لفلورنسة لدى الامبراطور، ولكن هذا التعيين لقى معارضة شديدة، فأوفد فيتورى بدلاً منه، وقد تمكن هذا من اقناع الامبراطور بتخفيض المبلغ إلى خمسين ألفاً. وأوفد مكيافيللى فى شهر كانون الأول ليبذل محاولة جديدة، لتخفيض المبلغ ثانية، فإن فشل فيها، فليحاول اقناع الامبراطور، بتأجيل الدفع إلى حين وصوله. وكانت السياسة التى اتبعتها فلورنسة، تقضى بالإغراق فى البحث فى التفاصيل وفى قيمة تحويل العملة، لتأجيل يوم الدفع الشرير أطول مدة ممكنة. وقد نجحت فلورنسة

فى تحقيق غرضها هذا، ذلك لأنه بعد قتال واه، تخلى الفوج السويسرى عن الامبراطور وانتهت فترة الأشهر الستة التى كانت ألمانيا قد وافقت فيها على تزويد الامبراطور بالجنود مما ارغم مكسمليان على التخلى عن حملته المقترحة إلى روما، والتراجع إلى مدينة كولون.

وقد سافر مكيافيللى فى رحلته هذه عن طريق جنيف وكونستانس إلى بوتزن ومنها إلى اينتر بروك، ثم عاد إلى ترينت متجهاً إلى فلورنسة التى وصلها بعد غياب دام ستة أشهر. وقد احتشدت الرسائل التى بعث بها بالمعلومات عن طبيعة البلاد التى مر بها، وعن شكل المقاطعات السويسرية وطريقة تنظيمها وتسممها بالذهب الفرنسي، كما تحدث عن أحوال الجنود الألمان الذين تحدث إليهم، وعن طبيعة الامبراطور، وسير الحرب فى أراضى البندقية، ولقد كان مكيافيللى صادقاً فى تأكيده حب المقاطعات الألمانية لاستقلالها، وكراهيتها لمن حولها من الأمراء، وفى إشارته إلى ضعف السيطرة الامبراطورية عليها وإلى منافع قيام الامبراطور بدور الحكم فى المنازعات التى تنشب بينها، ولكنه من الناحية الأخري، لا يتحدث لا فى قليل ولا فى كثير، عن دستور ألمانيا، كما لا يتناول أساليب الحكم الامبراطوري، بالحديث أو الحالة الضعيفة التى تعيش فيها مدن المانيا. ولم يكن هناك أى اتحاد تعاونى (كونفيداريشين)، يمكن أن يقارن بالاتحاد السويسري، الذى يستطيع القيام بعمل مشترك ضد أية قوة معتدية.

وقد تمت بعثته إلى بلاط الامبراطور فى عام ١٥٠٨، وهزمت البندقية فى معركة اغناديلو فى عام ١٥٠٩، ولكن بعد انسحاب البابا والفرنسيين من القتال، أخذت البندقية تستعد ما فقدته من أراضيها، واضطر الامبراطور الذى واصل الحرب، إلى التراجع إلى فيرونا. وسرعان ما وجد نفسه كالعادة

فى حاجة إلى المال، وناشد فلورنسة إعطائه أربعين ألفاً من الدوكات. وأوفد مكيافيللى فى شهر تشرين الثانى إلى مانتوا، لدفع القسط الثاني، وظل هناك مدة شهرين لم ير الامبراطور فى غضونهما. وقد تحدث فى وصفة لهذه البعثة عن ولاء الفلاحين للبندقية. وكانوا يرون أن الملك لويس الثانى عشر الفرنسى قادر على شن الحرب، ولكنه لا يريد خوضها، وان الامبراطور مكسمليان، يريد أن يشن الحرب، ولكنه عاجز عن خوضها، وهذا ما دفعهم إلى اليأس. ولا ريب فى أن شيئاً ما سيحدث أن عاجلاً وإن آجلاً. يؤدى إلى ندم هؤلاء الملوك على حماقاتهم.

وقد أدى سقوط بيزا فى عام ١٥٠٩، إلى تحسن أوضاع فلورنسة، ولكن أدى خطر اشتباكها فى حرب مع البابا فى عام ١٥١٠ من جراء تحالفها مع الفرنسيين، إلى اشتداد المعارضة لحكومة سوديرينى و(صنيعته) مكيافيللي. وأقامت مؤامرة برنسيفال ديلا ستوفا لقتل سوديرينى الدليل على أن أنصار المديشي، لن يتورعوا عن القيام بأى عمل لاعادتهم إلى الحكم. وأوفد مكيافيللى بسرعة إلى باندولفو بتروشى ومن ثم إلى أمير موناكو، ليضمن صداقتهما لفلورنسة، ولكن عقد المجلس فى بيزا، أى على الأرض الفلورنسية، وهو أمر لم يكن ليرغب فيه إلا الملك لويس والامبراطور، ومجموعة من الكرادلة الحانقين، وأخذ مكيافيللى ينتقل وقد سيطرت عليه حدة الطبع، من مكان إلى آخر. محاولاً تنظيم قوات المتطوعة للمعركة المرتقبة، واعداد حصون المدن الفلورنسية للقتال. واتاح انتصار الفرنسيين على الاسبان فى رافينا فى شهر نيسان فرصة مؤقتة من الراحة لفلورنسة. وتم الجلاء عن رومانا. واحتل السويسريون ميلان فى ايار، واستسلمت بافيا، وتركت فلورنسة حيدة لتواجه زحف الجيش الاسبانى بقيادة نائب الملك ريمون دى قرطبة، دون أن يقف إلى جانبها أحد لمساعدتها. ووافق سوديرينى على إعادة

آل المديشى كمواطنين عاديين، ولكنه رفض الاستقالة من الحكم، إلا إذا طلب منه الشعب الذى انتخبه هذه الاستقالة. وأوفد مكيافيللى إلى فيتوري، ليؤمن له الملجأ، فى حالة اضطراره إلى مغادرة فلورنسة، وكان القضاة لا يزالون يرفضون تخلى سوديرينى عن الحكم، ولكن فيتورى أقنعهم بقبول ذلك. وغادر سوديرينى فلورنسة فى الحادى والثلاثين من آب إلى سيينا، بحراسة أربعين جندياً من الفرسان، وانتقل منها بعد ذلك إلى الممتلكات التركية لاجئاً إليها.

وعاد جوليانو دى مديشى مع الجيش الإسبانى إلى الحكم، فهلل له أهل فلورنسة، وسرعان ما دخل إلى المدينة ريمون الظافر، وأقيمت حكومة مؤقتة، وجاء الكردينال جيوفانى دى مديشى الذى غدا فيما بعد البابا ليو العاشر إلى المدينة وسط قوات ضخمة من الجنود فدخلها بين هتاف الشعب وتهليله. ودعى البرلمان إلى الاجتماع، فقرر أن يكل جميع سلطاته وصلاحياته إلى مجلس مؤلف من ستة وستين عضواً يختارهم الكردينال. وهكذا انتهى عهد الحرية فى فلورنسة، وأقيم فيها نظام استبدادى قام بحل المتطوعة ومجلس التسعة الذى يسيطر عليها ووافقت فلورنسة بسرعة على دفع أربعين الفاً من الدوكات للامبراطور وثمانين ألفاً للجيش الظافر، وتسعة وعشرين ألفاً لنائب الملك الإسباني. وغادر هذا المدينة بعد أن تسلم الدفعة الأولي.

وقضى على سوديرينى بالنفى مدة خمس سنوات، أما مكيافيللى فقد ظل فى منصبه، وكتب فى هذه الفترة ثلاث رسائل، وجه أولاها، بطلب من إحدى السيدات، وكانت صديقة لآل المديشي، إلى الكردينال، شرح فيها الأحداث التى وقعت منذ سقوط سوديرينى ورفضه اللجوء إلى العنف أو الخديعة وإصراره على عدم الاستقالة من منصبه الذى اختاره الشعب له، إلا إذا أراد الشعب

ذلك، ووجه الثانية إلى الكردينال دى مديشي، ينصحه فيها بعدم الاصرار على استعادة ممتلكات المديشى من أولئك الذين ابتاعوها، إذ أن هذا الاصرار قد يخلق الكراهية، ومقترحاً قبول التعويض. ووجه الثالثة إلى المديشى أيضاً، محذراً إياهم من أولئك الناس الذين يحاولون الجمع بين رضاء الشعب ورضاء المديشي، لأنهم قد ينقلبون عليهم. ويعتقد أنه قصد من هذه الرسائل التى وجهها، اقناع المديشى باستبقائه فى خدمتهم. وإذا كان مثل هذا الأمل قد ساوره حقاً، فلأنه اعتقد بأن المديشى يؤثرون الرجل الشريف على الدجال المتزلف. ولكن مثل هذه الرسائل لا تجدى ولا سيما فى أوقات الثورات. وصدرت فى السابع من تشرين الثانى خمسة مراسيم قضت بإخراجه من جميع المناصب التى كان يشغلها، وبعدم السماح له بدخول القصر إلا لتسليم مهام منصبه إلى نيقولو ميكولوزى الذى خلفه فيها.

وتوفى البابا يوليوس الثانى فى الثالث عشر من شباط عام ١٥١٣. وأصبح الكردينال جيوفانى آل مديشي، فى الشهر التالي، البابا الجديد باسم ليو العاشر. واكتشفت مؤامرة فى فلورنسة فى غضون ذلك، وظهر اسم مكيافيللى فى رأس قائمة الأشخاص الذين عزم المتآمرون على الاتصال بهم. واعتقل مكيافيللى مع المتآمرين. ولكن سرعان ما اطلق سراحه. لعدم ثبوت اشتراكه فى المؤامرة. وكتب مكيافيللى فى الثالث عشر من آذار رسالة إلى فيتوري، يقول فيها أنه راض عن نفسه على والرغم من ان الاصفاد ما زالت تكبل يديه وتشلهما، وانه يأمل فى أن آل المديشي، سيعودون إلى الإفادة من خدماته عندما تستقر الأمور، لكن ما توقعه لم يحدث، وقضى مكيافيللى الاثنتى عشرة سنة التالية، فى دارته الريفية، على مقربة من سان كاسكيانو.

الفترة الثالثة فى حياته
١٥١٣ – ١٥١٧
مكيافيللى فى حياة التقاعد

يمكن القول ان هذه الفترة هي الفترة الأخيرة في حياة مكيافيللي كسياسي يعتزم التقاعد وكان البيت الذى أوى إليه مكيافيللى الآن ملكاً لعائلته منذ عهد طويل. ويقع هذا البيت فى قرية سان اندريا، ويقتضى الوصول إليه من فلورنسة استخدام الطريق الرئيسى المؤدية إلى سيينا، وعبور نهر غريف، ثم المضى فى طريق فرعية إلى اليمين تجتاز بعض التلال والوديان حتى تصل إلى قرية سان اندريا التى تبعد نحواً من عشرة أميال عن فلورنسة وميلين عن سان كاسكليانو.

وما زال بيت مكيافيلى قائماً حتى اليوم كمتحف وطني، مع أن القرية نفسها، والمنزل الذى كثيراً ما كان يقصده لقضاء بضع ساعات فيه، قد أصابها الخراب. ويقع البيت إلى يمين الطريق، وله شرفة واسعة ونوافذ تحجزها القضبان الحديدة وباب ضخم يطل على الطريق مباشرة، وتقع إلى جانبه باحة صغيرة، لها بوابات من الحديد، ويبدو وراءها منظر الوادى بما فيه من كروم العنب واشجار الفاكهة أخري، وداخل المنزل فى غاية البساطة. فجدرانه بيضاء، وسقوفه ذات قباب، وفى الغرفة التى كان يكتب فيها مكيافيللى مدفأة هائلة، وما زال المكتب الذى كان يجلس إليه، قائماً عند النافذة، وفى الغرفة المجاورة السرير الذى كان يرقد عليه. أما الحديقة فصغيرة وإن كانت تطل على بعض المناظر الرائعة.

وكان من المقدر أن تؤمن هذه (الضيعة) الصغيرة التى يملكها مكيافيللي، له

ولأسرته المؤلفة من زوجة وأربعة أطفال - بنت واحدة وثلاثة أولاد - ما لبث أن لحق. بهم رابع فى أيلول عام ١٥١٤، مورد الرزق اللازم، فلقد مضى عهد الراتب، واستنفد الوفر الذى تجمع لديه فى وفاء بعض الديون. وأخذ يسائل نفسه، ترى ما الذى سيفعله لاشغال نفسه فى الوقت المتوافر لديه؟ ولقد كتب إلى فيتورى فى التاسع من نيسان عام ١٥١٣ يقول: (لقد شاء طالعى لى أن لا أستطيع الحديث عن فن صناعة الحرير، ولا عن فن نسج الصوف، ولا عن الربح أو الخسارة، بل عن موضوع واحد، هو قضايا الدولة، ولذا فاما أن أتكلم عن هذا الموضوع أو اضطر إلى الصمت المطبق تماماً). وكان الصمت مستحيلاً بالنسبة إلى عقل كثير الحيوية والنشاط كعقله. ولم يكن عام ١٥١٣ قد بلغ نهايته بعد، عندما كان مكيافيللى قد دبج عدداً من الرسائل إلى صديقه فرانسيسكو فيتوري، السفير الفلورنسى فى رومة، وتلقى منه ردوداً عليها وكان قد أكمل أيضاً وضع المؤلف الذى قدر له أن يشهر اسمه، وهو (المبدأ).

وبدأ مكيافيللى فى كتابة (المطارحات) فى عام ١٥١٣ أيضاً، فى نفس الوقت الذى شرع فى إعداد كتابه (الأمير) فيه، ومن المحتمل أن يكون قد انتهى قبل نهاية عام ١٥١٣، من إعداد الجزء الأكبر من الكتاب الأول من المطارحات، إذ أنه ذكر فى مستهل الفصل الثانى من كتاب الأمير (إنه لن يبحث فى موضوع الجمهوريات إذ أنه بحث فى هذا الموضوع باسهاب وافاضة فى مكان آخر). ولا ريب فى أن الوقت الذى قضاه فى إعداد (المطارحات) أطول من الوقت الذى قضاه فى إعداد (الأمير)، إذ أنه لم ينته منها إلا فى نهاية عام ١٥١٧، على أقرب تقدير، وقد أشار فيها إلى أن أحداثاً وقعت فى هذه الفترة المتداخلة من حساب الزمن. وتتعلق جميع هذه الأحداث بالحروب، ومعظمها يتناول المعارك التى وقعت. ولا يتقدم مكيافيللى بأى تعليق على قضايا فلورنسة وسياسات أوروبا

فى هذه الآونة، وربما أراد من تجنبه التعليق على هذه القضايا الابتعاد عن الإساءة لآل المديشي، أو، لأنه لم يكن مطلعاً فى الغالب على هذه الشئون إطلاعاً وثيقاً، بينما كان فى مكنته الحصول على أية معلومات تتعلق بالحروب والمعارك. على أى حال، لقد اقتصر حديثه على المعارك.

وقد وقعت عدة معارك ذات شأن فى الفترة بين عامى ١٥١٣ و١٥١٧. فلقد عقد لويس الثانى عشر صلحاً مع فلورنسة ومع فرديناند ملك إسبانيا. ولكنه ما عتم بالاتفاق مع البندقية، أن شرع فى مهاجمة دولة ميلان. ولكن السويسريين هزموه فى معركة نوفارا فى السادس من حزيران. وعبر هنري الثامن ملك انكلترا المانش فى نفس السنة إلى فرنسا، وهزم الفرنسيين فى معركة كونيجاتي، وفى السابع من تشرين الأول منى البنادقة بهزيمة شنيعة فى فيسينزا التى لا تبعد إلا مسيرة يوم واحد عن البندقية نفسها. وتوفى لويس الثانى عشر فى مطلع عام ١٥١٥، وخلفه فرنسيس الأول، الذى شرع فوراً، فى إعداد العدة لغزو إيطاليا من جديد، وقد هزم السويسريين فى معركة مرجنانو فى الثالث عشر من ايلول. وسقطت فى يده قلعة ميلان فى تشرين الأول واضطر مكسمليان سفورزا إلى التنازل. وكان السلطان سليم الأول قد تولى الحكم فى تركيا آنذاك. وعاد من حملة ظافرة انتصر فيها على إسماعيل ملك العجم. ووجه اهتمامه فى عام ١٥١٦ إلى سوريا ومصر، فانتصر على سلطان المماليك فى معركة مرج دابق، ثم فى معركة غزة.

ويشير مكيافيللى إلى جميع هذه المعارك فى (مطارحاته)، ويستشهد بها على أن المشاة أكثر أهمية فى الحروب من الفرسان أو المدفعية.

ولا ريب فى أنه لم يكن قادراً على استشفاف الغيب ورؤية ما سيصبح للمدفعية من أهمية فى الحروب المقبلة. ولذا فقد كانت نظريته تقول بأن قطعات المشاة تؤلف العمود الفقرى للجيش، وإنه إذا ما اكتسح العدو مشاة أى جيش بهجوم صاعق،

فإن مدفعية هذا الجيش تصبح معرضة للوقوع غنيمة فى أيدى العدو.

وفى وسعنا الاستنتاج من الوقائع التى يتحدث عنها مكيافيللى فى (مطارحاته)، على أنه انتهى من إعداد هذا الكتاب فى عام ١٥١٧ أو فى عام ١٥١٨ على أكثر تقدير، لولا أنه ذكر حادثة عزاها كل من (بيرد) و(فيلاري) إلى عام ١٥٢١، فقد تحدث مكيافيللى عن تدمير قلعة جنوة على يدى فريغو سو، فى عام ١٥١٤ فقال: (وهكذا بدلاً من الركون إلى إحدى القلاع، أركن إلى الفضيلة والمنطق. وهكذا احتفظ بمركزه، وما زال يحتفظ به، وبينما كان الهجوم على جنوة، لا يتطلب أكثر من ألف جندى من المشاة، للاطاحة بحكومتها، فإن خصومها، هاجموها بعشرات الألوف ولم يستطيعوا أن يفعلوا بها شيئاً).

ويعتقد فيلارى فى كتابه (حياة مكيافيللى وعصره)، أن هذه الإشارة الغامضة، تتناول الهجوم الذى وقع على جنوة فى عام ١٥٢١، ويؤيده بيرد فى كتابه (المبدأ) فى هذا الرأي. ولكن اعتراضات شتى تقوم فى وجه هذه النظرية. فمن غير المحتمل، أولاً أن يكون مكيافيللى بعد أن أكمل كتابه قد تجاهل جميع الأحداث التى وقعت بين عامى ١٥١٧ و١٥٢١، وبينها أحداث مهمة كانتخاب شارلكان امبراطوراً فى عام ١٥١٩، والحرب بين البابا ليو العاشر وفرنسا فى عام ١٥٢١، ووفاة البابا فى نفس العام، وهجوم الأتراك على المجر واحتلالهم بلغراد، وظهور مارتن لوثر، وإن يحصر اهتمامه فى حادثة بسيطة كالهجوم على جنوة.

والاعتراض الثانى هو أن الهجوم على جنوه فى عام ١٥٢١، لم يقم به عشرات الألوف من الجنود بل بضع سفن تحمل نحواً من ألفى جندي، يقودهم الدوج السابق ادورنو، الذى كان يأمل عند وصوله، أن يقوم أنصاره فى الريفيرا وجنوه بالثورة تأييداً له. ولكن أمله طاش ولم تقع الثورة، فأقلعت السفن عائدة من حيث أتت.

ويقوم الاعتراض الثالث فى أن مكيافيللى أوضح بصراحة تامة، أنه فى الوقت الذى كان يعد فيه كتابه. كان اوتافيانو فيريغوسو، الذى اغتصب الحكم فى جنوه فى عام ١٥١٢، لا يزال قائماً عليه. ولو كان مكيافيللى يكتب هذا فى عام ١٥٢١، لما كان صادقاً، إذ أن فريغوسو غدا دوجاً (دوقاً) لميلان فى عام ١٥١٢، ولكن عندما شرع الفرنسيون فى مهاجمة ايطاليا فى عام ١٥١٥، تنازل عن الدوقية، وأعلن خضوعه لفرنسيس الأول، الذى عينه حاكماً للمدينة باسم الفرنسيين، ولا ريب فى أن مكيافيللى كان واعياً لهذه الحقيقة، فقد أشار إليها فى كتابه.

ولهذا فأنا أعتقد أن إشارته لجنوه لم تكن بالنسبة إلى عام ١٥٢١ بل إلى عام سابق. فلقد كانت أسرة أدورنى معادية لفريغوسو، وفى عام ١٥١٤، هاجمت المدينة ودخلتها، وسرعان ما عقب ذلك، تهديد الفرنسيين بغزو إيطاليا مما اضطر فريغوسو إلى اختيار أهون الشرين وهو الخضوع للفرنسيين بدلاً من خسارته لصداقة ميلان. وهكذا قرر الوقوف إلى جانب الفرنسيين دون ابلاغ البابا على الرغم من صداقته له. ووصلت أنباء القرار الذى وصل إليه فريغوسو إلى مسامع دوق ميلان. فشرع يعد العدة لغزو جنوه بقواته يساعده نحو من أربعة آلاف سويسري، ووصل بالفعل إلى نوفارا وفى ركابه آل أدورنى وآل فييشى أعداء الدوج، ولكنه اضطر إلى التوقف بطلب من البابا الذى لم تكن قد وصلته بعد أنباء ما اعتزمه فريغوسو. وهكذا يتبين أن القوات التى وصلت إلى نوفارا، كانت تضمن جيوش ميلان وأربعة آلاف سويسري، والقوات التى حشدها آل ادورنى وآل فييشي.

ومن هذا يتبين لنا، بالنسبة إلى موضوعنا، أن جميع الأحداث التى حاول مكيافيللى أن يعكسها وأن يعلق عليها، قد وقعت قبل نهاية عام ١٥١٧. ولو كان قد عاد إلى كتابه

هذا بعد هذا التاريخ، لأضاف إليه حوادث مهمة، ولأصلح فيه بعض الأخطاء. وليس ثمة من دليل أيضاً على صحة رأى (بيرد) فى أن مكيافيللي، كان يقصد المضى فى كتابة (مطارحاته) حتى اليوم الأخير من حياته، أو إنه كان يعتزم إضافة كتاب آخر إليها بعد كتابه عن تيتوس ليفي. فالمطارحات كما وصلت إلينا كاملة تماماً. وقد حققت ما أراده مكيافيللى منها، وهو أن يبحث الأهمية السياسية لما كتبه ليفى فى كتبه العشرة الأولي، وتطبيقها على المشاكل المعاصرة. وهذا ما فعله فى ثلاثة كتب استعرضت تاريخ رومة منذ بدايته حتى نهايته. يضاف إلى هذا أن (المطارحات) و(الأمير) معاً، يتناولان حقل السياسة كاملاً. ولا ريب فى أن مكيافيللى لم يكن راضيا عن مطارحاته وفكر فى إعادة النظر فيها والتقليل من فصولها، ولكن ليس لدينا من دليل واحد يقوم على أنه قد أعاد النظر فيها حقاً وأتمها، ولا شك فى أن الحالة التى وصلت إلينا فيها المطارحات خير دليل على ما أقول.

الفتـــرة الرابعــــة
١٥١٨ - ١٥٢٧
السنــــوات الأخيـــرة

انها السنوات التي كان مكيافيللي قد انتهى سياسيًا ويستعد للرحيل عن العالم بأسره على الرغم من أن الأحداث التى وقفت فى هذه الفترة بين عامى ١٥١٨ و١٥٢٧، وهو العام الذى توفى فيه مكيافيللي، لم يرد ذكرها فى (المطارحات) إلا أنه لعب فيها دوراً إلى حد ما، ولا سيما فى الأيام الأخيرة من حياته، كما أنها تحمل الكثير من طابع الآراء التى أوردها فى مطارحاته. وقد انطبق ما قاله عن الحكام الذين يتعرضون للكثير من المتاعب، بسبب ترددهم فى اتخاذ القرارات المناسبة عند الحاجة اليها، على سلوك البابا كليمنت العاشر، الذى تركزت حوله جميع أحداث إيطاليا وفلورنسة بصورة خاصة فى هذه الفترة. وأرى لزاماً علي، أن أوردها هنا مجملاً لهذه الأحداث.

فعندما أكمل مكيافيللى مطارحاته، بدأ يحاول الخروج من العزلة التى فرضها على نفسه. ومنذ عام ١٥١٨، أخذت الاجتماعات تعقد فى حدائق أوريسيلارى فى فلورنسة، وشرع كوزيمو وسيلتى الذى أهـداه مكيافيللى مطارحاته بالاشتراك مع زنوبى بونديلمونتي، يعرض هذه المطارحات على أصدقائه، كما أخذ مكيافيللى يشرح فى هذه الاجتماعات المواضيع التى سيناقشها فى كتابه (فن الحرب) الذى اعتزم وضعه وبدأ فيه فعلاً. وشرع مكيافيللى يقوم بمهمات صغيرة تحمله إلى خارج فلورنسة. فقد ذهب فى عام ١٥١٨ إلى جنوه، موفداً من أحد تجار فلورنسة، وأوفده مجلس السيادة فى عام ١٥٢٠ إلى لوكا لحل إحدى

المشاكل المعقدة. وقد أعد تقريره عن هذه المهمة، كما كتب في لوكا مؤلفه عن تاريخ حياة (كاستروكيو كاستراكاني). وأوفد في مهمات أخرى في عام ١٥٢١، كما عرض عليه في نفسى العام أن يصبح سكرتيراً لبروسبيرو كولونا، فرفض العرض. لأن الكردينال مديشي، كان قد طلب إليه في نفس العام أن يضع كتاباً عن تاريخ فلورنسة مقابل راتب لا بأس به. وكان قد أتم في هذا الوقت كتابه عن (فن الحرب) ونشره.

ووقعت في غضون ذلك تبدلات مهمة في فلورنسة. فقد توفي غويليانو دي مديشى في عام ١٥١٦، ثم تلت ذلك وفاة لورنزو مديشى وزوجته في عام ١٥١٩، دون أن يخلفا إلا طفلة صغيرة اسمها كاترين. وتولى الكردينال مديشى شئون فلورنسة الآن، وعرض في نفس العام على مكيافيللى بين عدد من البارزين من أبناء المدينة، أن يحدد آراءه في أحسن السبل لحكم فلورنسة. وقد كتب مكيافيللى استجابة منه لهذا العرض الذى جاء على أثر اقتراح من البابا (رسالته عن إصلاح الحكم في فلورنسة تلبية لامر البابا ليو العاشر). وقد عزا في رسالته هذه عدم الاستقرار في الحكم في فلورنسة إلى أعمال المواطنين الذين تهمهم مصالحهم الشخصية أكثر من المصلحة العامة، وإلى أن فلورنسة في عهد آل المديشي، لم تكن لا بالجمهورية ولا بالامارة. ومثل هذه الحالة في رأيه غير عملية، لا سيما وأن الأمراء من آل المديشى لم يكونوا قد نشأوا في المدينة كأسلافهم. ونصح مكيافيللى البابا، بأن يعيد إلى فلورنسة حكمها الجمهوري، محتفظاً لنفسه وللكردينال طيلة حياتيهما بحق تعيين القضاة، مما يمكن المدينة من التدرب على إدارة شئونها بنفسها، وكان الدستور الذى اقترحه، يماثل إلى حد كبير ذلك الدستور الذى وضعه سافونا رولا، ويتضمن انشاء مجلس للسيادة ينتخب أعضاؤه لسنتين أو ثلاث سنوات، هذا إذا لم يكن طيلة الحياة،

ومجلساً للشيوخ ومجلساً أعلي. ولما كانت المساواة بين الناس قائمة فى فلورنسة، وكان أهلها ينشدون الاسهام فى حكومتها، فقد كان من المتعذر أن يقوم فيها الحكم على نظام الامارة. ولكن يقتضي وجود طبقات ثلاث فى المدينة، أيضاً يجب إرضاءها كلها عند وضع الدستور. وقد اقترح مكيافيللى لارضاء الطبقة العليا، إقامة مجلس يضم خمسة وستين عضواً، ينتخبون أعضاء مجلس السيادة الثمانية، على أن يكون الانتخاب بالتناوب. ويضم المجلس الثانى مئتى عضو منهم ١٦٠ من الطبقة الوسطى والباقون من الطبقة الدنيا. ويتولى هذا المجلس الذى يطلق عليه اسم مجلس الشيوخ، بالتعاون مع مجلس السيادة تصريف شئون الدولة، تساعده لجنتان تؤلف الواحدة منهما من ثمانية أعضاء أحداهما لشئون القضاء والأخرى لأمور الحرب. ورأى مكيافيللى وجوب ارضاء الجماهير فى مجموعها، فاقترح إقامة مجلس يضم ستمائة عضو أو ألف عضو، يكون من حقهم التعيين فى المناصب. واقترح مكيافيللى للحيلولة دون الاعتداء على الدستور، تعيين مراقبين فى جميع المجالس، لا يكون لهم الحق فى الاقتراع، ولكن لديهم صلاحية الاستئناف إلى مجلس أعلي، إذا رأوا أن أحد القرارات التى اتخذت يخالف الدستور أو القوانين، كما اقترح إقامة لجنة من ثلاثين عضواء، لمساعدة لجنة القضاء ذات الثمانية أعضاء فى إدارة دفة العدالة، والنظر فى قضايا الجزاء، وإهمال الموظفين لأعمالهم، وعلى الرغم من أن هذا الدستور لم يوضع موضع التنفيذ قط، إلا أن من المهم أن نرى الطريقة التى كان يأمل مكيافيللى بواسطتها تطبيق المبادئ التى شرحها فى مطارحاته. ولا ريب فى أن الاعتبارات التاريخية التى ضمنها مشروعه، هى التى حملت السلطات فى العام التالي، على سؤاله كتابة (تاريخ فلورنسة).

وأدت وفاة الامبراطور مكسميليان فى كانون الثانى عام ١٥١٩، وانتخاب

شارل، ملك إسبانيا، امبراطوراً فى حزيران من العام نفسه، إلى وقوع تبدل فى سياسة البابا ليو العاشر. فقد انتقل الآن من محالفة فرنسا، التى كان قد غدا حليفاً لها بعد معركة مرجنانو، إلى محالفة شارل الخامس (شارلكان)، الذى وعده فى حالة انتصاره، بإعادة بارما وبيسينزا إلى ممتلكاته. وفى عام ١٥٢١، عبر جيش يضم قوات البابا والامبراطور وفلورنسة، نهر الادا، واستولى على ميلان والقسم الأكبر من ممتلكاتها. وقامت نفس القوات فى العام التالى بهجوم على جنوة أطار حكومة فريغوسو، وأقسام بدلها نظاماً جمهورياً برئاسة انتونيتو ادورنو. وكانت هذه الجيوش قد انتصرت على جيوش الفرنسيين فى السابع والعشرين من نيسان فى بيكوسو، ولم يجد فريغوسو الذى كان يحكم باسمهم، من يعتمد عليه. وتوفى البابا ليو العاشر فى غضون ذلك، واختير كردينال غير ايطالى خلفاً له وهو ادريان بويينز، كردينال تورتوزه ورئيس أساقفة اوترخت. وكان البابا الجديد واسع الثقافة والاطلاع. لا غبار عليه فى حياته الخاصة، وكان استاذاً للبابا السابق فى صباه، كما كان ايرازماس من طلابه، لكن معظم الإيطاليين لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. وكان ادريان السادس فى الثالثة والستين من عمره، عندما انتخب لتولى الكرسى البابوي، وقد قضى ستة أشهر فى الوصول من هولندا إلى رومة، ليجد خزانة بابوية خاوية، وليعالج مشكلة الاصلاح الديني، ومشكلة توغل الاتراك فى أوروبا بعد احتلالهم لبلغراد فى عام ١٥٢١، ولم يعمر أكثر من سنة واحدة بعد وصوله إلى رومة، ولكن فرنسوا الأول ملك فرنسا، كان يعد العدة آنذاك لغزو إيطاليا من جديد، وقد اضطر البابا إلى الانضمام إلى الحلف الذى اقيم للدفاع عن لومبارديا، والذى ضم الامبراطور وارشيدوق النمسا فرديناند وفرانسيسكو سفورزا حاكم ميلان والكردينال دى مديشى عن فلورنسة وجنوة وسيينا ولوكا، وعندما حضرت الوفاة البابا ادريان السادس فى الرابع عشر من

ايلول عام ١٥٢٣، كان الجيش الفرنسي بقيادة بونيفيه، قد دخل إيطاليا، وشرع في عبور نهر تيسينو. وارتقى الكردينال دي مديشي في الثامن عشر من تشرين الثاني كرسي البابوية تحت اسم كليمنت السابع.

ولقد كتب مكيافيللي في اطروحته عن (إصلاح حكومة فلورنسة)، يقول: (إذا سارت الأمور على المنوال الذي تسير عليه الآن فانني أجروء فأتكهن، بأنه إذا وقعت نازلة، ولم تكن حكومة المدينة قد نظمت بعد، فإن واحداً من أمرين سيحدث حتماً، أو قد يحدثان معاً وفي أن واحد، وهما أن يقوم أحد الناس، فيعلن نفسه فجأة، وبصورة ثورية، رئيساً للدولة، ويلجأ إلى السلاح والعنف في الدفاع عن حكمه، أو أن يسارع حزب من الحزبين، فيقتحم قاعة المجلس عنوة، ويهزأ بالحزب الثاني. وسواء أوقع هذا أو ذاك، وهو ما ابتهل إلى الله أن لا يقع، فإن قداستك، ستدرك، كم من أعمال القتل، والنفي، والحرمان من الثروة والممتلكات، ستتلو ذلك كله). واستمرت الأحوال على ما كانت عليه، ووقعت فتنة في عام ١٥٢٧ سارع إلى إخمادها دوق اوربينو. وكان البابا كليمنت السابع عند تسنمه كرسي البابوية قد عاد إلى سؤال أهل فلورنسة، عن نوع الحكم الذي يرغبون فيه. ولكنه لم يصغ على أي حال، لأقوال أولئك الذين رغبوا في أن تغدو بلادهم جمهورية أصيلة، واعلن أن ارادة الأغلبية تقف ضد الجمهورية. وهكذا أوفد سيلفيو ساباسيريني، كردينال كوزتونا، إلى فلورنسة ليحكمها نيابة عن ايبوليتو، الابن غير الشرعي لأسرة المديشي، والبالغ من العمر خمسة عشر عاماً. والذي وفد إلى فلورنسة في ركاب الحاكم الجديد في عام ١٥٢٤، مصحوباً بابن آخر غير شرعي لأسرة المديشي اسمه اليساندرو، مما أثار حفائظ الفلورنسيين وغيظهم.

ولو تطلعنا إلى الموضوع من وجهة نظر سياسية خالصة، لوجدنا أن البابا كليمنت قد ارتكب في علاقاته مع الامبراطور ومع ملك فرنسا في عامي ١٥٢٤

و١٥٢٥، نفس الخطيئتين اللتين تحدث عنهما مكيافيللي، عازياً إياهما إلى البابا ليو العاشر. فلقد أدرك البابا ما تعنيه الحرب بين هاتين الدولتين تمام الاراك، وعمل جاهداً للحفاظ على السلام، فلم ينضم إلى إحداهما فى البداية، وهو ما كان يشير به مكيافيللى تماماً. وعندما غدا الفرنسيون فى ميلان وتوقع كل انسان فى رومة أنهم هم الظافرون، أذعن للضغط الذى فرض عليه، وعقد معاهدة مع فرنسوا فى الخامس من كانون الثانى عام ١٥٢٥. ولم يكد يفعل ذلك، حتى هزم الفرنسيون فى بافيا، أعظم معارك العصر، ووقع فرنسوا أسيراً فى يدى الامبراطور. وهنا تكرر وقوع ما حدث بعد مرجنيانو فى عام ١٥١٥، فقد تخلى الظافر (لأسباب إنسانية عن الرغبة فى تحقيق نصر آخر، ووافق على عقد صلح جديد مع الكنيسة).

ولم يقدر لهذا الصلح أن يعمر طويلاً. فلقد تاق الشعب الفرنسى إلى الثأر من هزيمة بافيا، وأظهرت الملكة الوصية لويز سافوي، رغبتها واستعدادها، لنصرة أى أمير ايطاليا يثور على الامبراطور الظافر وكان البابا كليمنت، تواقاً كأسلافه من البابوات من أمثال الاسكندر ويوليوس وليو، إلى تحرير إيطاليا من النفوذ الأجنبي، فأوفد رسله إلى الأمراء الإيطاليين يحرضهم على الاشتراك فى الحركة القومية. وأعلن الجميع تأييدهم للمشروع، واقترح الجنويون تأليف عصبة لتحرير إيطاليا. وسارع جيرو لامو مورونى مستشار دوقية ميلان إلى بيسكارا، أكثر قادة الامبراطور كفاية، وحثه على التخلى عن خدمة الامبراطور، وتولى قيادة القوات الإيطالية، مقابل الحصول على عرش نابولي. ولكن بيسكارا فضح المؤامرة، واعتقل موروني، وقامت القوات الامبراطورية باحتلال أراضى ميلان، وسرعان ما أخطأ الامبراطور فأطلق سراح فرانسوا الأول مقابل شروط، كان من المستحيل عليه تنفيذها، وذلك طبقاً لمعاهدة مدريد التى وقعت فى الحادى

عشر من شباط عام ١٥٢٦. وأعلن البابا كليمنت تحليله لفرانسوا من عهوده ومواثيقه، إذ كانت هذه العهود قد فرضت عليه فرضاً. وتم فى الثانى والعشرين من آيار تأليف حلف كونياك المقدس، الذى ضم البابا كليمنت السابع، وفرانسوا الأول ملك فرنسا، والبندقية، وفرانسيسكو سفورزا، الذى كان لا يزال محتفظاً بقلعة ميلان، وأعلن المتعاهدون عزمهم على محاربة الامبراطور، إلا إذا سحب قواته من أراضى ميلان وأطلق سراح انجال الملك فرانسوا مقابل فدية معقولة.

وفى هذه الفترة بالذات، وكان مكيافيللى قد بلغ السابعة والخمسين من عمره، عاد مؤلفنا إلى الحياة العامة من جديد، وكان قد قصد إلى رومة فى آذار عام ١٥٢٦، ليرفع إلى البابا شخصياً، مؤلفه عن (تاريخ فلورنسة)، وليطلب بعض العون المالى لاستكماله. وعندما سمح له بمقابلة البابا، حثه على تشكيل فرق من المتطوعة الوطنية، فأحاله البابا إلى كويكيارديني، رئيس رومانا، الذى عارض فى المشروع وفى تسليح الأهلين. وعاد مكيافيللى فاقترح، أن يقوم جيوفانى دى مديشي، الذى يمت إلى فرع بعيد من أسرة المديشي، بتسجيل القوات وحشدها لمهاجمة جيش الامبراطور، الذى كان الانحلال قد بدأ يدب فى صفوفه. ولكن اقتراحه هذا رفض أيضاً لأنه يسيء إلى الامبراطور. وقام بعد ذلك بجولة فى حصون فلورنسة وأعد تقريراً عما يجب عمله، لجعلها قادرة على الدفاع. وقد صادق مجلس المائة على مشروعه، وعين فى الثامن عشر من آيار مستشاراً لهيئة جديدة اطلق عليها اسم (القيمون الخمسة على الأسوار)، وكان فى قبوله لهذا المنصب يعمل طبقاً للقاعدة التى أوصى بها، وهى (إن لا يرفض المواطن الذى اشغل مراكز عالية، اشغال منصب أقل منها رتبة).

ودخل الكردينال كولونا فى العشرين من ايلول، مدينة رومة، ونهب الفاتيكان، وكنيسة القديس بطرس، وقصور الكرادلة. واضطر البابا كليمنت

إلى توقيع هدنة لمدة أربعة أشهر. وكان كريمونا قد استسلم لجيش الحلف المقدس الذى يقوده الدوق أوربينو، عندما تلقى كويكيارديني، الذى يقود قوات البابا الأوامر بعبور نهر البو وكان جورج فون فروندزبيرغ، قد باع جميع ممتلكاته ليعبئ جيشاً قوامه عشرون ألفاً معظمهم من اللوثريين (البروتستانت)، واقسم أن يذهب إلى رومة ليشنق البابا بنفسه. وزحف بجيشه هذا متجنباً الاصطدام مع قوات الحلف المقدس التى تحرس مداخل جبال الألب، وعبر نهر البو. وكان مكيافيللى يعمل فى هذا الوقت كضابط ارتباط بين فلورنسة وكويكيارديني. وكان جيش الحلف ما زال أقوى شكيمة وأحسن تنظيماً من قوات الامبراطور، ولكن الدوق اوربينو، رغم الحالف كويكياردينى ومكيافيللي، رفض المغامرة فى معركة مع القوات الامبراطورية. وهدد الامبراطور فى الثانى عشر من كانون الأول، بدعوة مجلس عام للكرادلة، إلا إذا هادنه البابا.

وهنا حلت كارثة رومة. ففى كانون الثانى عام ١٥٢٧، شرع لانوي، نائب الملك فى نابولي، بالزحف على المدينة الخالدة. واضطر البابا فى شهر آذار إلى قبول شروط الامبراطور، التى قضت بالتنازل عن بارما وبياكينزا وسفيتافيشيا، وبالغفران لأسرة كولونا وإعادة ممتلكاتها إليها، وبدفع جزية قدرها مائتا ألف من الدوكات. وتم عقد الهدنة فى السادس عشر. وسرح البابا جيشه. وعندما بلغت أنباء الهدنة إلى القوات الامبراطورية، ثار ثائرها، لأنها أضاعت فرصتها فى نهب رومة وفلورنسة. فأعلنت العصيان، واضطر بوربون، قائدها إلى الاختفاء فى اسطبل، كما ثارت ثائرة فروندزبرغ، فمات بالسكتة القلبية، غيظاً وكمداً. وقام متنبئ فى رومة يدعى براندانو، فشهر بالبابا، وأعلن أن الله سينزل نقمته بروما، كما أنزلها بسدوم وعامورة. وبعث مكيافيللى فى الثانى من نيسان، وكان لا يزال يهرع من مدينة إلى أخري، ليعد للدفاع عن فلورنسة، إلى ولده جيدو، يطلب

إليه أن يرفه عن والدته، وأن ينقل إليها أنباء عودته القريبة. واذعن بوربون فى السابع والعشرين من نيسان لمطالب قواته. وشرع فى الزحف على رومة، وقدم أهل فلورنسة كل ما يملكونه من ذهب وفضة لايقاف بوربون، ولكن كلما زاد عرضهم ارتفعت مطالبه. واقتحمت القوات مدينة رومة فى السادس من آبار، وعلى الرغم من أن قائدها بوربون لقى حتفه فى بداية الهجوم، إلا أن القوات الامبراطورية احتلت المدينة الخالدة قبل حلول الظلام. وسالت الدماء انهاراً على الهياكل والمذابح، ونهبت التحف والكنوز والآثار الفنية. وداس الجنود بأقدامهم الآثار المقدسة. وذبح أهل رومة ذبح النعاج، ونهبت مساكنهم، وانتهكت أعراض نسائهم، دون تقيد بالعمر أو المركز أو الجنسية، وقتل الرهبان ورجال الدين، أو ألبسوا ملابس النساء وبيعوا كأسرى حرب. ونبشت القبور ونهبت. وحملت الراهبات إلى بيوت الدعارة، أو باعهن الجنود مقابل بضع دوكات. وامتلأ نهر التيبر بالجثث. وأحرقت أحياء بكاملها فى المدينة. ودمرت وثائق تاريخية ذات قيمة لا تقدر. وهذا ما عمله الألمان برومة فى عام ١٥٢٧.

وكان الدوق اربينو يزحف بجيش قوامه خمسة عشر ألفاً فى أعقاب القوات الامبراطورية، وكان هذا الجيش قد وصل كاستيلو ديلا بيفى فى الإمارات البابوية، عندما وصلته أنباء سقوط رومة. ولما عجز كويكياردينى عن اقناع الدوق بالإسراع إلى رومنة لمساعدة البابا، بعث إلى فلورنسة يطلب منها قوات جديدة. واوفد باسيرينى كلاً من مكيافيللي، وباندينى إلى كويكياردينى، ليستعلما منه عن تطور الأوضاع، فأوفدهما هذا فى الثانى والعشرين من آيار، إلى اندريا دوريا، الذى كان يرسو باسطوله فى ساحل فيشيا، ينتظر نقل البابا إلى مكان آمين، وشرح مكيافيللى فى رسالة تاريخها الثانى والعشرون من ايار، المقابلة التى جرت لهما مع دوريا. لقد كان هذا راغباً فى القيام بمحاولة لانقاذ البابا، ولكنه

أعرب عن قلقه من أن الوضع قد غدا يائساً، كما أثبتت الحقيقة، إذ أنه بعد تقدمه ووصوله إلى بعد تسعة أميال من رومة، أخذت قوات الحلف المقدس تتخلى عن البابا، ولم يحل الثانى من حزيران حتى كان الدوق أوربينو، قد تراجع إلى فيتيربو، تاركاً رومة تواجه مصيرها.

وعندما عاد مكيافيللى إلى فلورنسة، وجد أن أمله، فى عودة مدينته إلى النظام الجمهورى قد تحقق. ففى السابع عشر من آيار فر باسيرينى والصبيان المديشيان من المدينة، وأعلن قيام الجمهورية. ودعى مجلس الثمانين إلى الانعقاد، وأعدت قاعة المجلس الكبير لاجتماعه. وأصبح نيقولو كابونى رئيسا لمجلس السيادة، كما انتخب مجلس الثمانية، ومجلس جديد من عشرة أشخاص لإدارة دفة الحرب. ولكن على الرغم من كل ما عمله مكيافيللى لتحصين المدينة وإعدادها، لم يصبح مستشاراً أو وزيراً. ولم يعرض عليه أى منصب جديد، ذلك لأنه كان قد عمل مبعوثاً لباسيرينى الكريه إلى قلوب الناس، وعين فرنسيسكو تيروجى بدلاً من ه فى العاشر من حزيران. وبعد عشرة أيام، سقط مكيافيللى مريضاً، واعترف بذنوبه للراهب ماتيو الذى ظل ملازماً له حتى لحظته الأخيرة، ثم لفظ نفسه الأخير بسلام واطمئنان فى الثانى والعشرين من حزيران عام ١٥٢٧، فى فراشه، وإلى جانبه زوجته وأطفاله ونفر من أصدقائه.

مؤلفات مكيافيللي الأربعة

انها المؤلفات اعطته شهرة لم تعطى لغير الفلاسفة الجهابذة رغم اته لم يكنْ تهم لقد أتم مكيافيللى مؤلفاته الأربعة الرئيسية فى الفترة الواقعة بين عامى ١٥١٣ و١٥٢٥.

أولاً - (الأمير): شرع فيه فى عام ١٥١٣، وانتهى منه تقريباً فى نفس العام باستثناء بعض التعديلات والتبديلات التى أدخلها عليه، عندما توفى غويليانو دى مديشى فى عام ١٥١٦، فوضع اسم لورنزو بدلاً من غويليانو فى الاهداء. وقد اعدت نسخ مخطوطة من الكتاب وتم توزيعها، لكن الكتاب لم يطبع إلا فى عام ١٥٣٢ بعد وفاة مؤلفه. وقد طبعه انطونيو بلادو، الذى خوله البابا كليمنت السابع، طباعة كل كتب مكيافيللي. وقد تم فى القرن التاسع عشر طبعه فى جميع اللغات طبعاً، بيونها الانكليزية.

ثانياً - (المطارحات): وقد بدأها فى عام ١٥١٣ وانتهى منها عام ١٥١٨.

وقد طبعها انطونيو بلادو أول مرة فى عام ١٥٣٢ مع (الأمير) ومع (تاريخ فلورنسة). وقد ترجمت أيضاً إلى معظم اللغات وصدرت فيها.

ثالثاً - (فن الحرب): وقد بدأ فى عام ١٥١٨ وأشار فيه إلى محادثات جرت له فى عام ١٥١٦ وأكمله فى عام ١٥٢٠، وقد طبع فى فلورنسة فى عام ١٥٢١ وأهداه إلى لورنزو دى فيليبى ستروزى الذى قدمه إلى آل المديشي. وقد طبعت أول ترجمة انكليزية له فى عام ١٥٨٨، وأهداها مترجمها بيتر وايتهورن إلى الملكة اليصابات.

رابعاً - (تاريخ فلورنسة): وقد بدأه فى عام ١٥٢٠ بطلب من أكاديمية فلورنسة التى كانت تحت رعاية الكردينال مديشي، ويعرض تاريخ فلورنسة منذ أقدم العصور حتى وفاة لورنزو دى مديشى عام ١٤٩٢، ويقع فى ثمانية مجلدات. وعندما أكمل مكيافيللى كتابه، كان الكردينال قد غدا البابا كليمنت السابع، فذهب المؤلف بنفسه إلى رومة ليقدمه إلى راعيه. وقد طبعه انطونيو بلادو فى عام ١٥٣٢، وقد ترجمه إلى الإنجليزية تيتيان هيل طومسون فى عام ١٩٠٦.

الأمير والمطارحات

يستهل مكيافيللى الفصل الثانى من كتابه (الأمير) بالعبارة التالية: (سأتغاضى هنا عن الحديث عن الجمهوريات، ذلك لأننى عالجت هذا الموضوع مطولاً فى مكان آخر). ويشير مكيافيللى فى (المطارحات) عدة إشارات إلى (الأمير) وعلى الرغم من قلة الاشارات الواردة فى كل من المؤلفين إلى المؤلف الآخر، إلا أننا إذا أخذناهما معاً، بالنسبة إلى المواضيع التى عالجاها، تبين لنا، أن مكيافيللي، لم يكتف بالنظر إليهما ككتابين مترابطين فحسب، بل اعتبرهما يؤلفان أطروحة واحدة عن الحكم، تعالج مشاكله من مختلف النواحي. ويهتم كتاب (الأمير) بصورة خاصة (بالإمارات)، وهى الدول التى يحكمها شخص واحد، تتجمع فى يديه كافة السلطات. ولهذا فقد عالج مكيافيللى فى الفصول التسعة الأولى منه، طرق الوصول إلى الحكم، والوسائل التى يعتمدها الأمير فى تثبيت دعائم حكمه. وينتقل فى الفصلين التاليين إلى معالجة شئون الإمارات الكنيسة التى لا تنطبق عليها القواعد المقررة، ولكنه مع ذلك، حصر بحثه فيهما وفيما تلاهما، فى مركز الحاكم وأمنه، ومختلف سبل السلوك التى يتبعها. أما (المطارحات) فتعالج شئون الجمهوريات وكيف يستطيع مواطن عادى فيها، عن طريق اللجوء إلى

مختلف السبل، الشريفة وغير الشريفة، كاثارة الجماهير وتاليف الأحزاب القوية واستنفار العون الأجنبي، أن يقيم لنفسه إمارة أو شبه إمارة فى بلاد كانت تتمتع بالحكم الذاتي، وإن يعرضها للأخطار التى يجب أن كون حريصة دائماً فى اتقائها. ويعود مكيافيللى إلى هذه النقطة بالذات بين الفينة والفينة، ولكنه فى أحاديثه، يقيم عدداً من المفاهيم، التى يتحتم على كل حكومة تطمع فى استتباب أمنها ودوام سلامتها، أن تعيها سواء أكانت جمهورية أو ملكية فى شكلها وطابعها. وفى (المطارحات) عدد من القواعد، التى تنطبق على الجمهورية والإمارات على حد سواء. ولم ترد مطلقاً فى كتابه (الأمير). ولا يذكر مكيافيللى فى (أميره) شيئاً عن قادة الجيوش، ولكنه فى (مطارحاته) يتحدث باسهاب عن الطريقة التى يجب أن تعامل بها الدول قادتها العسكريين، وعن الأسلوب الذى يجب أن يتبعه هؤلاء القادة فى معاملة حكوماتهم وجنودهم. وهو يقارن فى (مطارحاته) أيضاً بين الإمارات والجمهوريات، مفضلاً نظام الحكم الجمهوري، باستثناء ما يتعلق منه بمعاملة رعايا المدن الخاضعة والشعوب المحتلة وإدارة دفة الحروب. وهكذا بينما يقتصر كتاب (الأمير) على الحديث عن (الإمارات) يتناول (المطارحات) رغم اهتمامه الرئيسى بالجمهوريات، وبجمهورية رومة بالذات، افاق السياسة كلها، ويعرضها من وجهة نظر الحاكمين والمحكومين على السواء. وهو لهذا يعالج شئون الحكومات كلها، من جمهوريات وإمارات وملكيات مستبدة، ما كان منها مستحدثاً أو متوارثاً. ومن هذا يظهر أن (المطارحات) عالج آفاقاً أكثر شمولاً من آفاق (الأمير)، وإن تناول عين الافاق أحياناً. وكان مكيافيللى يرى أن تكرر ما قاله فى (الأمير)، فى (المطارحات) مضيعة للوقت، ولهذا فإنه فى مطارحاته لم يتناول (الإمارات) بالتفصيل وإنما اكتفى بالإشارة إلى ما كتبه عنها

فى (أميره). وعلى هذا يتضح أن مكيافيللى أراد من قرائه اعتبار كتاب (الأمير)، جزءاً لا يتجزأ من البحوث التى وضعها عن السياسة كلها.

فن الحرب والمطارحات

لما كان كتاب (الأمير) يعالج بالإسهاب موضوعاً، أشار إليه كتاب (المطارحات) فى أكثر من مكان، ولا سيما عند تناول إنشاء الإمارات والحفاظ عليها، فإن كتاب (فن الحرب)، يعالج أيضاً موضوعاً، طالما تطرق إليه مكيافيللى فى (المطارحات). وكما أن المؤلف قد شرع فى وضع كتابه (المطارحات) قبل أن يستكمل كتابة (الأمير). فقد شرع أيضاً فى كتابة (فن الحرب) قبل أن يستكمل وضع (المطارحات) ويصف مكيافيللى فى (فن الحرب) كيف كان لفيف من أصدقائه، يجتمعون فى حدائق أوريسيلازى مع كوزيمو روسلي، ليستمعوا، وهم منبطحون على الحشائش، أو وهم جالسون على المقاعد فى ظلال الأشجار، إلى (فابريزيو كولونا) يحدثهم عن فن الحرب، فيوجهون إليه ما شاءوا من أسئلة يرد عليها بمنتهى التعمق والفهم. وكان فابريزيو قد عاد لتوه من الحرب فى لومبارديا، وقرر قضاء بضعة أيام فى فلورنسة. وقد آب هذا فى عام ١٥١٦، ولكن الإخراج الذى أعده مكيافيللى (الميزانسين) لم يكن صادقاً، فلم يكن فابريزيو هو الذى اجتمع إلى هؤلاء الأصدقاء فى الحدائق وحدثهم عن فن الحرب وغيره من المواضيع المتعلقة بشئون السياسة، وإنما كان المتحدث، هو مكيافيللى نفسه. ويبدو أن هذه الاجتماعات قد بدأت فى آيار عام ١٥١٨، بعد عودة مكيافيللي، من جنوه، حيث كان قد ذهب موفداً من أحد تجار فلورنسة فى مهمة خاصة، وكان مكيافيللى فى هذا الوقت قد أشرف على الانتهاء من (مطارحاته) وشرع فى

إعداد (فن الحرب) ولا ريب فى أنه قرأ على أصدقائه وبينهم كوزيمو روسلى وزانوبى بوندلمونتي، اللذين أهداهما مطارحاته، فصولاً من الكتابين. لكن (فن الحرب) على أى حال، لم يغد كاملاً إلا بعد عام ١٥١٩، وهى السنة التى توفى فيها كوزيمو، الذى ذكر وفاته فى كتابه المذكور.

ويعالج (المطارحات) فى خمسة وأربعين فصلاً، هى ثلث الكتاب تقريباً، قضايا الحرب، وسلوك القادة العسكريين ومعاملتهم، ولكن مكيافيللى فى كتابه (فن الحرب)، يعالج باستفاضة واسهاب، بعض المواضيع التى أوجز الحديث عنها فى مطارحاته، كاختيار الجنود، وتدهور الانضباط العسكري، وفضائل الفرسان والمشاة، وتأليف الجيوش والمدفعية، والخطط العسكرية، وكيفية الاشتباك فى المعارك وتجنبها أحياناً، وما شابه ذلك من المواضع.

تاريخ فلورنسة والمطارحات

الحقيقة التي لا ريب فيها كان تاريخ فلورنسة، وهو آخر الكتب التى وضعها مكيافيللى مؤلفاً تاريخياً، ولكنه فى مستهل كل مجلد من مجلداته، يتحدث بإسهاب عن الظواهر البارزة فى الفترة التى يعالجها هذا المجلد. ويعرض الكتاب فى مجموعه بوضوح المصاعب البالغة التى مرت بها فلورنسة، لإقامة نوع من الحكم الوطيد الراسخ فيها، حتى نصل عهد أسرة المديشي، الذى لم يطل على أى حال. ويعود مكيافيللى فى مطارحاته إلى هذه النقطة بالذات، المرة تلو المرة. وهو يؤكد فى مقدمات (تاريخه). بعض النقاط التى سبق له أن أثارها فى مطارحاته، كقضية المستعمرات مثلاً، والعداء المستحكم بين الطبقتين العليا والثانية، والثورات التى تنشب طلباً للحرية، والصراع الطبقي، وتعرض جميع الدول لتيارات المد والجزر فى أوقات السلم

والحرب. ويقول مكيافيللى أن غرّض الذين يشنون الحروب دائماً، الحصول على الثراء وافقار أعدائهم، وعلى هذا فإن الدولة التى تمنى بالفقر والضعف من جراء الحرب على الرغم من انتصارها، تكون أسوأ حالاً، فى النصر منها فى الهزيمة. كما يتحدث عن الأحزاب والضغائن والخلافات والحزازات التى تقع عادة بين الطامحين من المواطنين.

د - تركيب المطارحات

يمكن القول انه لا يستطيع أى انسان فهم طريقة مكيافيللى التى كثر الحديث عنها، إلا إذا فهم الأسلوب الذى يتبعه فى إعداد مؤلفاته. ويشير عنوان (المطارحات) إلى حقيقة موضوع الكتاب، فهو يتناول فيها الأحداث والوقائع التى سردها تيتوس ليفى فى كتبه العشرة الأولى عن تاريخ رومة. وتعالج هذه الحقبة تاريخ مدينة رومة منذ إنشائها فى عام ٧٥٣ قبل الميلاد حتى عام ٢٩٣ ق.م. وهكذا تتناول بالحديث الفترة التى كانت فيها امبراطورية رومة ودستورها ومنظماتها فى طريق البناء. وقد اختار المؤلف رومة، لأن الرومانيين قد أقاموا أطول امبراطورية عرفها التاريخ عمراً. وكان الفضل فى ذلك، لطبيعة أهلها وفضائلها لا لحسن طالعهم. ولهذا فإن من واجب أولئك الذين يرغبون فى أن يحكموا حكماً طيباً، وأن يحاربوا ببسالة وشجاعة، لإقامة امبراطورية، أن يدرسوا بامعان وعناية ما فعله الرومان، وإن يفهموا الفضائل التى يمكن أن يعزى إليها نجاح رومة.

ولما كانت الخصائص الرئيسية التى تعزى إليها عظمة رومة تتعلق بدستورها أولاً، وبتنظيماتها العسكرية وقوتها وحذقها فنون الحرب ثانياً وفضائل كبار رجالها الذين تالوا على الحكم فيها، فقد قسم مكيافيللى كتابه إلى ثلاثة أقسام. ففى القسم الأول يبدأ مكيافيللى (بالحديث عن الوقائع التى يرى أنها جديرة بالتعليق بالنسبة إلى خصائصها العامة. وبالأحداث التى تتفق مع نتائجها).

وبعد أن تحدث فى القسم الأول عن القرارات التى اتذخها الرومان فى شئونهم الداخلية، انتقل فى القسم الثانى إلى الحديث عن (الإجراءات التى اتبعها الشعب الرومانى لتوسيع امبراطوريته). ورغبة منه فى ايضاح (ما اسهمت به أعمال بعض الرجال فى عظمة رومة، وما حققته من نتائج نافعة، فقد مضى فى القسم الثالث يسرد وقائعهم ويعدد ما قاموا به من أعمال).

أما الأسلوب الذى اتبعه مكيافيللى فى كل من هذه الكتب الثلاثة، فهو المضى فى سرد الحوادث كما جاءت فى تاريخ ليفى ووفق تسلسلها التاريخي، مختاراً منها ما يراه أكثر أهمية من وجهة نظر الموضوع العام لكتابه. وفى امكان القارئ التثبيت من ذلك، بإجراء مقارنة بين تاريخ ليفى ومطارحات مكيافيللي، فيرى أن الفصول والكتب والأحداث التاريخية هى عينها فى الكتابين، وهو لا يخرج عن هذه القاعدة العامة فى التسلسل التاريخي، إلا فى مواضع قليلة، عندما يبدأ فى الحديث عن ملوك رومة.

ويتضمن الجزءان الأول والثانى من المطارحات مقدمة قصيرة، أما الجزء الثالث، فلا مقدمة فيه، وإن كانت الأجزاء الثلاثة تحتوى على فصول تمهيدية فى مستهلها. فالكتاب الثانى مثلاً يبدأ بفصل عن الدور الذى لعبته الفضيلة ولعبه الحظ فى تاريخ الرومان. ثم ينتقل إلى فصل ثان عن الشعوب التى كان على رومة أن تشن الحرب عليها. أما الجزء الثالث فيستهله مكيافيللى بفصل عن ضرورة العودة باستمرار إلى القواعد الرئيسية التى يقوم عليها أى تنظيم. أما مقدمة الجزء الأول فأطول من هذا بكثير، إذ يجب أن يضم إليها الفصول الخمسة عشر الأولى من الكتاب، التى ينتقل بعدها إلى ثلاثة فصول تتحدث عن مرحلة الانتقال من العبودية إلى الحرية. وهكذا لا يشرع مكيافيللى فى التعليق على ما كتبه ليفى إلا فى الفصل التاسع عشر. أما الغاية الرئيسية من الفصول الخمسة عشر الأولى من الكتاب الأول، فهى اجتذاب

اهتمام القارئ إلى الحوافز والنشاط، والإجراءات التى يعتبرها مكيافيللى أساساً فى كل حركات سياسية، والمتمثلة تمام التمثيل فى تاريخ رومة. ويعتمد مكيافيللى فى الحوادث المتعلقة بتاريخ رومة كعادته على فصول ليفي، ولكنه لا يتبع الترتيب الذى يتبعه ليفي، كما أنه لم يستمد منه مقدمته، وإنما استمدها من بوليبيوس الذى اقتبس منه عدة فقرات بصورة حرفية.

ولم يقتصر اعتماده على بوليبيوس على هذه الفقرات وحدها، إذ أننا لو قارنا أى موضوع بحثه مكيافيللى فى مقدمته، بالكتاب الرابع ليوليبيوس، لوجدنا أن هذا الموضوع موجود فى كتاب المؤرخ القديم، فقد استهل هذا المؤرخ كتابه بقطعة أكد فيها أهمية دراسة التاريخ وهى عين النقطة التى أكدها مكيافيللى فى مقدمة الجزء الأول من مطارحاته. ويصف بوليبيوس كتابه بقوله (نبذة تحليلية فى دراسة الدستور الروماني) ويقول: (أن الاختبار الصحيح للرجل الكامل، هو قدرته على الاحتمال، بعزيمة وكرامة، لكل ما يطالعه به الحظ من تبدلات فى طوالعه، ومن الواجب درس الدستور بنفس هذه الطريقة وعين الاتجاه). ويستند مكيافيللى فى إعجابه بدستور رومة الجمهوري، إلى قدرة هذا الدستور على احتمال تبدلات الحظ، ولا سيما بالنسبة إلى الصراعات الطبقية التى كانت دائمة الوقوع، والتى لم يحل وجودها دون عظمة رومة. وقد استمد مكيافيللى تصنيفه للدول، ومرحلة انتقالها الدائرية من شكل إلى آخر، من كتاب بوليبيوس.

ولعل خير ما يوصف به اعتماد مكيافيللى على تيتوس ليفي، هو أنه اختار من تاريخه أحداثاً مرتبة حسب تسلسلها التاريخي، واستخدامها كأوتاد يقيم عليها بعض النظريات التى استوحاها من هذه الأحداث. وكثيراً ما أوحت له نفس الحادثة التاريخية بأكثر من نظرية واحدة. وتشتمل المطارحات على أكثر من خمسين

فقرة مقتبسة من ليفي، بعضها ذو طابع وصفي، ولكن البعض الآخر منها من النوع التعليقي، الذى يؤيده مكيافيللي. وكثيراً ما سرد مكيافيللى أيضاً آراء ليفي، دون اقتباسها حرفياً، وأكد موافقته عليها. ولا ريب فى أن مكيافيللى قد تأثر تأثراً عميقاً بأفكار تيتوس ليفي، حتى إن نظرته إلى الحياة والسياسة والحرب فى القرن السادس عشر، لم تكن لتختلف كثيراً عن نظرة ذلك المؤرخ الرومانى الذى حاول شرح كتابه.

وهدف مكيافيللى من درس التاريخ، هدف عملي، بصورة رئيسية. فهو يحاول أن يكتشف فى التاريخ قوانين ذات طابع عالمى للمسببات والنتائج، وإذا ما تمكن من وضع هذه القوانين بصورة صحيحة، وهو ما يعتقد أنه قد استطاعه فعلاً، فإنه يرى أن اكتشاف المسببات فى الظروف الراهنة التى تعمل عملها منذ أمد بعيد، يمكنه من التكهن بالنتائج الراهنة أيضاً، كما أنه إذا ما توصل إلى نتائج معينة مع الظروف التى وجدت فيها هذه النتائج، أمكنه على ضوء القوانين التى وضعها من اكتشاف مسبباتها، أو محاولة ههذا الاكشتاف على الأقل. ولهذا تحتم على مكيافيللي، أن يقيم الدليل على صحة النظريات التى توصل إليها وتطبيقها عالمياً، ولا سيما بالنسبة إلى ما تسمح به دقة المواضيع التى يعالجها. ولهذا فقد اكتشف فى تاريخ ليفى سرداً مسبباً للأحداث، أمكنه أن يستخدمه على ضوء معلوماته التاريخية العامة، كمثال تطبيقي، على ما يراه فى حاضره. ولقد حرص على أن يستخلص فى قراءته للتاريخ أو فى تفكيره فى الشئون الراهنة، العبر من الأحداث التى أثرت عليه لأهميتها، ثم جمع هذه العبر، ضمن النظريات التى اعتقد أنها تؤكدها، ولكنه على الغالب، وهذا ما اعتقده، حاول بعد ملاحظة العبر التى استخلصها من الأحداث التى يقصها ليفي، أن يبحث فى ذاكرته عن أحداث مماثلة، أو إن يعثر عليها فى كتابات مؤرخ آخر سبق له أن أطلع عليها. وأدى أسلوبه هذا على أى حال، إلى أنه سعياً منه وراء تأييد معظم القوانين

المسببة التى وضعها والتى ادعى لها الشمول فى التطبيق، إلى اقتباس حادثة أساسية أو عدة حوادث من ليفي، يسندها بحادث آخر مستمد من مصدر ثان، ويشفعه بحادث ثالث يستمده من وقته الراهن. ولا ريب فى أن هذا الأسلوب متفق مع مركزه ومع هدفه، إذ أنه هو السبيل الوحيد لدعم الشمول فى التطبيق لافتراضاته، واقناع قرائه بأن دراسة التاريخ، ذات علاقة وثقي، بالمشاكل السياسية الراهنة، ومحاولة حلها وهو ما كرس نفسه له، كما يقول فى مقدمته.

تعميمات وقواعد

تضم (المطارحات) فى أجزائها الثلاثة مائة واثنين وأربعين فصلاً منها ستون فى الجزء الأول وثلاثة وثلاثون فى الجزء الثانى وتسعة وأربعون فى الجزء الثالث. ويمكن تصنيف مواضيع هذه الفصول على النحو التالي:

عناوين تذكر الموضوع الذى يعالجه

ويبلغ عددها نحواً من ثلاثين فصلاً فى المطارحات كلها. وهو يصل فى سير الفصل إلى النظريات أو لاقواعد التى توصل إليها، كقوله فى الفصل السابع من كتابه الأول: (يعمل الناس أما عن حاجة أو عن رغبة منهم فى العمل. ويتسع أفق الفضيلة كلما اتسع المجال لحرية الاختيار) أو كقوله فى الفصل الثامن من كتابه الأول: (يجب وضع القوانين التى تعالج البطالة والكسل، عن طريق فرض الحاجة إلى العمل). أو كقوله فى الفصل الثانى من كتابه الثانى (إن المدن لا يعظم أمرها فى السلطان أو الثراء، إلا إذا كانت مستقلة).

تقرير الحقائق:

يضع مكيافيللى عناوين لبعض فصوله، حقائق معروفة يقررها وهو يجعل منها دعائم يستند إليها فى استخلاص بعض النظريات العامة، كقوله فى الفصل

الحادى والعشرين من كتابه الثاني: يميل الناس فى الغالب إلى إلقاء أنفسهم فى أحضانك، كلما حاولت أن تبدو كارهاً لذلك) أو كقوله فى الفصل العشرين من كتابه الثالث: (إن عملاً عطوفاً ورحيماً، يترك فى العادة انطباعاً أكبر فى النفس، من عمل يقوم على العنف والغلظة). وكثيراً ما اشتملت الحقائق التى يقررها فى مواضيعه، على المسببات والنتائج فى وقت واحد كقوله فى الفصل الرابع من كتابه الأول: (أدى هذا الخلاف بين جماهير رومة ومجلس شيوخها إلى حرية الجمهورية وقوتها).

تعميمات تاريخية:

هناك فى المطارحات نحو من اربعين مثالاً على هذه التعميمات التاريخية ومنها قوله فى الفصل الثامن من كتابه الأول: (إن الوشايات والدسائس مضرة للجمهوريات بقدر ما فى الاتهامات العلنية الصريحة من منافع. أو كقوله فى الفصل السادس عشر من كتابه الأول: (إن الشعب إذا ألف العيش فى ظل أمير، ثم تحرر بعد ذلك، فإنه سيجد من الصعب عليه الحفاظ على حريته).

تعميمات نفسية:

يلجأ مكيافيللى إلى إستعمال التعميمات النفسية بصورة أقل، فى عناوين فصوله، منه فى نصوص هذه الفصول. فهو يقول فى الفصل السابع والعشرين من كتابه الأول مثلاً: (قلما يعرف الناس كيف يكونون أما طيبين كل الطيبة أو سيئين كل السوء). وهو يقول أيضاً فى الفصل الثالث عشر من كتابه الثاني: (يرتقى الناس من مراتبهم الخفية إلى منازل الرفعة عن طريق الحيلة أكثر من طريق القوة والعنف). ويقول كذلك فى الفصل الثانى من كتابه الثالث: (من الخير أحياناً أن يتظاهر المرء بالحمق والجهل).

القواعد:

يطلق مكيافيللى أحياناً على قواعده اسم (المفاهيم)، وهى تكثر فى العناوين بصورة تفوق أى شيء آخر. وقد تختلف القواعد فى أشكالها، ولكنها تتشابه فى أهدافها ومراميها. وتوضح قواعده أنه للوصول إلى هذه الغاية أو تلك من الغايات المفترضة لا المحددة، كضمان الأمن مثلاً فى إمارة أو جمهورية، أو النجاح فى هذا العمل من أعمال السياسة، يجب اتباع هذا السبيل أو عدم اتباعه، كما توضح ما إذا كان هذا السبيل يحقق المصلحة أو لا يحققها، أو إذا كان نافعاً أو ضاراً، أو يستحق التقدير والثناء أو اللوم.. فهو يقول فى الفصل التاسع من كتابه الأول: (من الضرورى أن يكون شخص واحد مسئولاً عن إنشاء أية حكومة جديدة)، وهو يقول فى الفصل الحادى والخمسين من كتابه الأول: (على الجمهورية أو الأمير أن يعملا فى الظاهر بدافع الحرص والنبل، ما تحتم عليهما الضرورة عمله)، وهو يقول فى الفصل الثامن من كتابه الثالث: (على كل من يرغب فى إصلاح الجمهورية، أن يهتم بشئون الرعية).

ولما كانت عناوين نحو من ستين فصلاً من المطارحات من نوع القواعد وعناوين نحو من أربعين منها من التعميمات، ولما كانت الفصول الباقية التى جعل لها عناوين من الحقائق المقررة، أو المواضيع، ولكنه ضمنها قواعده وتعميماته، فمن الواضح أن وضع القواعد والتعميمات، جزء لا يتجزأ من أسلوب مكيافيللى وطريقته، وهذا يظهر بوضوح وجلاء فى (أميره) و(مطارحاته) على حد سواء. ولا ريب فى أن من خصائص أسلوب مكيافيللى أيضاً، أن تعبر القاعدة التى يضعها التصميم الذى يقرره، عن العلاقة بين السبب والنتيجة، أى بين الأعمال الإنسانية ونتائجها من نافعة وضارة. وهكذا فإن تعميمات مكيافيللى

وقواعده، هى دائماً من النوع الغائي، إذ على الرغم أحياناً من عدم ذكر (الغاية) أو (الهدف) بوضوح، فإن من السهل العثور عليها بعد القليل من التفكير فى النص والرجوع إليه. وهكذا يبدو أن مكيافيللى يقصد من قوله: (إن الناس قلما يعرفون كيف يكونون أما طيبين كل الطيبة أو سيئين كل السوء)، أن نجاح الإنسان يتوقف على كونه إما طيباً كل الطيبة أو سيئاً كل السوء، وأن الخلط بين الطيبة والسوء هو الذى يهدم الساسة كما هدمه جيوفامباغولو باغليوتي. وعلى هذا النحو، فهو عندما يقول أن على الأمير أو الجمهورية، أن يفعلا هذا أو ذاك، أو إن لا يفعلاه، فإنه يعنى أن النجاح نصيبهما إذا ما فعلاه، وأن الكارثة إذا لم يفعلاه حالة بهما لا محالة.

وأدى موقف عدم الاكتراث الذى يبديه مكيافيللي، تجاه ما إذا كانت مطارحاته تبدأ بتعميم أو بقاعدة، إلى اعتقاد بعض المعلقين بعدم تمييزه بينهما. وهكذا نجد أن الأستاذ هافكوك يقول فى مقال كتبه تحت عنوان (مكيافيللى فى لباس عصري)، إن مكيافيللى يستعمل صيغة (الأمر) فى المكان الذى يجب أن يستعمل فيه صيغة (الخبر) أو (الوصف).

ولا يسعنى الرضى بهذا القول الذى يتجاهل تمييزاً يقوم فى الحقيقة وله أهميته واعتباره. ولا يقيم استعمال مكيافيللى للتعليمات والقواعد بدون تمييز كعناوين لفصوله الدليل على أى شيء، ذلك لأنه يستعمل أيضاً العناوين العادية، والمواضيع، والحقائق المقررة. ومن الحق أن يقال على أى حال، أنه يستخدم كلمة (القوانين)، ليعرف بها قواعده وتعميماته على حد سواء، ولكنه يفرق على كل حال بين الحقائق المقررة والقواعد، ويستخدم كلمة (المفاهيم) للتعبير عن قواعده. وليس من المدهش أو المستغرب على أى حال، أن لا يلفت نظر القارئ إلى التمييز بين تعميم وقاعدة، ذلك لأنه لا يفكر طويلاً بالأسلوب الذى

يستخدمه، وكل ما يتوخاه هو أن لا يظل ما يقوله معلقاً فى الهواء، بل مستنداً إلى حقائق. وهذا هو الأسلوب الجديد. ومن واجبنا نحن، أن نكتشف الأمر المهم بالنسبة إلى الأسلوب عن طريق درس كيفية استخدام مكيافيللى له، وإذا ما اكتشفنا ذلك، اتضح لنا فوراً الفرق بين التعميم والقاعدة. ومن أسهل الأمور على الانسان أن يحيل التعميم إلى قاعدة، إذا ما وضع هدفاً له فى النهاية، ولكن هذا التحويل متعذر إلا إذا وجد الهدف، ولما كان هدف المتآمرين مثلاً يختلف عن هدف الحكام، أصبح فى مكنة المرء استخلاص قواعد متباينة من تعميم واحد. فمثلاً، توصل مكيافيللي، إن خطأ أو صواباً، إلى النتيجة التى حددها بقوله (إن وجود الأحزاب يؤدى إلى إضعاف الحكومة لا إلى تقويتها). وهذه النتيجة تعميم، يقوم على دراسة مستفيضة للتاريخ. ولما كان من أول أهداف الحكومة ضمان سلامتها وأمنها، أمكن فوراً تحويل هذا التعميم إلى قاعدة تقول (بوجوب عدم تأليف الأحزاب). ولكن لما كان هدف المتآمرين إسقاط الحكومة القائمة، فإن القاعدة التى يستخلصونها من هذا التعميم لتطابق هدفهم، هى العكس أى (وجوب تأليف الأحزاب). ولما كان مكيافيللى قد وصل فى فصل (المؤامرات) من مطارحاته، إلى تعميم، فهو يدرس هذا التعميم من وجهتى نظر الحاكم والمتآمر، ويصل تبعاً لذلك إلى قاعدتين مختلفتين.

وعندما يقول الاستاذ هانكوك، إن (مكيافيللى يستعمل صيغة الأمر، وكلمتى (يجب) و(من اللازم)، فى المكان الذى تستخدم فيه صيغة الخبر أو (الوصف)، يستند فى قوله هذا إلى عبارة وردت فى كتاب كروسى تقول أن (القواعد والمفاهيم التى تظهر فى الكتابات الإيطالية فى هذا العصر، لا تعنى أكثر من مجرد ملاحظات نفسية (سيكولوجية)). ولا ريب فى أنه كان يفكر، عندما قال ما قاله، فى الأهمية

الخلقية التى ترتبط عادة بكلمتى (يجب) و(من اللآزم). ولكن عندما يستعمل مكيافيللى هاتين الكلمتين، فهو لا يستخدمهما مطلقاً فى معناهما الأخلاقي، وإنما كما يستخدمها المحامى عندما يشير على موكله بأن (عليه أن يفعل هذا) أو (إن عليه أن لا يفعل ذاك)، فكلاهما، أى مكيافيللى والمحامي، بعيد عن القضايا الأخلاقية. وفى قوله بأن (هذا يجب أن يفعل) أو (إن من اللازم عدم فعل ذاك)، إنما يعنى بأن من الواجب فعل ذلك الشيء أو عدم فعله، إذا أراد المخاطب النجاح فى السياسة بالنسبة إلى مكيافيللى أو فى القضية القانونية بالنسبة إلى المحامي. وليس من المهم عند ابداء النصح أن يقول الإنسان لمن يخاطبه (أن عليك أن تفعل هذا) أو ان يقول له (أن من مصلحتك أن تفعل هذا). ولكن فى كلتا الحالتين يجب اعتبار هذه الحقيقة كقاعدة لا كوصف، أو كحقيقة حتمية، إذ على الرغم من حتمية شكلها، إلا أنها فرضية فى واقعها، ذلك لأن القصد منها نفع أناس يستهدفون غايات معينة، ولأنها تفترض أن هؤلاء الناس يرغبون حقاً فى الوصول إلى هذه الغايات.

وهنا يكمن موطن الخطل فى رأى الأستاذ هانكوك، الذى يعمى فى خطئه عن ابصار تمييز على جانب كبير من الأهمية. فهو يتغاضى عن الحقيقة الواقعة وهى أن النصيحة تقوم على تجربة، ويمكن وصفها بحقائق حتمية وتلخيصها بتعميمات، وهو قادر على التمييز بين المعرفة الناتجة عن هذه الطريقة وبين استخدامنا لها، فى معرض النصيحة، مع وجود غاية متوخاة. وقبل اسداء النصيحة بصورة مجدية ونافعة، من الضرورى أن يعرف المرء النتائج التى قد تنجم عن اتباع سبيل معين من العمل. وهنا تقوم مرحلة التعميم، إذ عن طريق هذه التعميمات تشكل معرفتنا أن صواباً وإن خطأً، وفق مقتضيات الظروف. ويفترض اسداؤنا النصح، أننا نعرف شيئاً أكثر من هذا، واعنى به النتائج التى يرغب الشخص الذى ننصحه فى

تحقيقها عن طريق أعماله، أو التى يرغب فى الحيلولة دون وقوعها. وهنا تقوم مرحلة القواعد، إذ عن طريقها يمكن اسداء النصح، بعد أن نكون قد وضعنا التعميم، وعرفنا الغاية من العمل. وعندما يحث مكيافيللى الساسة على دراسة الماضي، كما يفعل دائماً، فانه يضع نصب عينه، إمكان الوصول إلى التعميمات. وعندما يقارن بين الماضى والحاضر، فإنه يفعل ذلك لا لمجرد تأكيد تعميماته، وإنما بقصد أسداء النصح إلى الساسة فى هذا الشأن أو ذاك من شئون الحياة، مع وجود هذه الغاية أو تلك، وفيما يجب أن يفعلوه لتحقيقها، مهما كانت، وقد استعملت كلمتى (مهما كانت)، لأن مكيافيللي، فى الحقيقة، لا يقصر نصائحه على الجمهوريات بل يسديها أيضاً إلى الأمراء، ولا يقدمها إلى من هم فى الحكم فحسب، بل إلى من يرغبون فى الوصول إليه أيضاً، ولا يسديها إلى أولئك الراغبين فى الحفاظ على عهد قائم فحسب، بل إلى أولئك التواقين إلى قلب ذلك العهد أيضاً. وهو يقوم بهذا من ناحية مبدئية، إذ لما كانت هذه الغايات قد وجدت كثيراً فى الماضي، فإن فى الإمكان أن يكتشف المرء عن طريق دراسة الماضي، ما يساعد على تحقيق هذه الغايات وما يحول دون تحقيقها أو يؤخره أيضاً. وهو لا يتقدم بالنصيحة إلى الطغاة لأنه يحب الطغيان. فقد أوضح أكثر من مرة، أنه يكره ويزدريه، وهو لا يسدى مشورته إلى المتآمرين لأنه يؤيد المؤامرات، فلقد أوضح فى أكثر من مكان صعوبة تخطيط المؤامرات واستحالة النجاح فيها، ولكنه يتقدم بنصائحه إلى الجميع، على اختلاف فئاتهم لأنه يرغب فى اقناع قرائه بشمول ما فى أسلوبه من تطبيق.

وهناك نطقتان اخريان فى أسلوب مكيافيللي، يجدر بى أن الفت انتباه القراء إليهما. فهو يدرك تمام الادراك، أن فى الامكان أن يخطئ الإنسان فى وضع التعميمات وصياغتها، وهو يعترف فى الفقرة الاستهلالية من مقدمة الجزء الأول من (مطارحاته)،

أن الطريقة الجديدة آلتى يتبعها، (مليئة بالمتاعب والمشاق)، ثم يستطرد قائلاً: (وإذا قدر لامكانياتى المتواضعة، وتجاربى المحدودة فى الشئون الدائرة، ومعرفتى الضئيلة بالماضي، أن تجعل من جهودي، غير كاملة، ولا قيمة كبيرة لها، فإن هذه الجهود على أى حال، ستمهد السبيل أمام انسان آخر، يمتاز بامكانيات أضخم، وبالبلاغة وسلامة التقدير، لتحقيق ما عجزت أنا عن الوصول إليه)، وليس ثمة ما يدعونا إلى الافتراض بأن مكيافيللى لم يكن صادقاً فى ملاحظته هذه. وعندما كان فى منصبه الرسمي، اقترف أخطاء كثيرة، اعترف بها فى الكلمة التى أهدى فيها (مطارحاته) إلى صديقيه الصدوقين. ولم يكن فى تقاريره أكثر صواباً فى التكهن بالأحداث من تقارير رجال البندقية، ولهذا فقد أقدم على عمل (ملئ بالمتاعب والمشاق)، كان يعنى تماماً ما يقول. والمشكلةم الحقيقية، أن أحداً لم يقدم على إعادة النظر فى مؤلفه.

وتتعلق النقطة الأخرى بنفس الصعوبة، ففى بناء التعميمات المستندة إلى أحداث التاريخ كلها، كثيراً ما يحدث، أن تغيب عن الذهن حادثة لا تتفق مع هذا التعميم، بل قد تتناقض معه تناقضاً صارخاً. ولم يكن مكيافيللى كثير العناية بهذه الناحية، كما يجب أن يكون، ولكنه يعترف على كل حال، بأهمية (الأمثلة السلبية) وعندما يمر بمثل هذه الأمثلة أو يصدمه بها الآخرون، يعنى كثيراً بالاستقصاء، عما إذا كانت هذه الأمثلة متفقة أو غير متفقة مع التعميمات التى توصل إليها. ولكن من واجبنا أن نعترف على أى حال، بأن هذه (الأمثلة السلبية) التى يعالجها، قد جاءت مترابطة مع آراء الآخرين الذين خالفوه فى آرائه.

الحاجة والحظ فى حياة مكيافيللي

هل مكيافيللي انسانًا محظوظًا رغم كل ما لاقاه من متاعب؟ بالتأكيد نعم كان محظوظًا بوفرة وعندما يقال كل ما يمكن أن يقال، عما يجب أن يفعله الإنسان لاستحداث الوقائع أو لمنع وقوعها، فى ملكوت السياسة، تبقى هناك مجموعة ضخمة من الأحداث، التى لا يكون فى وسع الإنسان التحكم فيها، أو حتى التكهن بوقوعها. وتثور قضيتان بالنسبة إلى هذه الأحداث، يكون لدى مكيافيللى الكثير مما يقوله بصددها. وهاتان القضيتان هما (أولاً) إلى أى مدى تتحكم هذه الأحداث بأعمال الإنسان السياسية وتقررها و(ثانياً)، إلى أى سبب يمكن أن تعزى هذه الأحداث؟

ويستعمل مكيافيللى فى كتابيه (المطارحات) و(الأمير)، بالنسبة إلى القضية الأولى عبارة (يجب) أو (من الضروري)، وإذا ما تعمقنا بعناية فى درس محتوى هاتين العبارتين، وجدنا انهما تعنيان لديه الضرورة المطلقة، بل الضرورة الفرضية، أى الضرورة التى تنشأ، عند البحث فى قاعدة، من افتراض وجود هدف معين لدى الإنسان، وهو لا يتحدث عن الضرورة المادية البدنية، أى الأسباب التى لا يمكن لها إلا أن تؤدى إلى نتيجة معينة، ولا الحوافز التى يستحيل عليها أن تسيطر عليها. وهو يفكر فى قضايا لا يكون المجال فسيحاً فيها إلا إلى سبيل واحد، بالنسبة إلى الفرد أو الدولة، إلا إذا كانت الدولة أو الفرد على استعداد لاقتراف ما يمكن أن يدعى بالسبيل الانتحاري، وذلك فى معرض القياس مع الحالات التى يتوافر فيها سبيلان، يستطيع المرء أن يختار بينهما ويفضل أحدهما.

ففى كتاب (المطارحات) كثيراً ما يلجأ مكيافيللى إلى استعمال تعبير (من الضروري). فهو يقول فى الفصل السابع عشر من الجزء ما يلي: (ويعمل الناس إما

عن حاجة أو بمحض اختيارهم. وهم يحسنون العمل، كلما تضاءلت حريتهم فى الاختيار، كأن يعملوا مثلاً فى أرض قاحلة، حيث يجب عليهم أن يعملوا ليحصلوا على الأود). وكثيراً ما يمضى مكيافيللى بعيداً فى هذا المعنى فيقول فى الفصل الثالث من كتابه الأول أن (الناس لا يتقنون ما يعملونه، إلا إذا ساقتهم الحاجة إلى ذلك، وهو يعنى بذلك (الجوع والعوز)، فالبديل عن الاتقان فى العمل هو الموت جوعاً أو التعرض للعقاب، وهو ما يود كل انسان تجنبه. و(تجبر الدول بصورة مماثلة بدافع الضرورة) على تبنى سياسة حكيمة أو حمقاء، وعلى إقامة تنظيم طيب أو سيء. ولم يكن هناك بد لرومة، مثلاً فى الغلظة فى معاملة بعض مواطنيها بعد طرد الترقونيين، طالما كان ثمة خطر من احتمال عودتهم، ولا ريب فى أن ما أظهرته أثينا من نكران الجميل لمواطنيها، كان يعود إلى أسباب مماثلة. وهكذا كانت (الضرورة هى التى ارغمت الرومان على اهمال المنبت فى تعيين القناصل، وغيرهم من ذوى المناصب الهامة، إذ لا يتوقع المرء من الفتيان أو من أى رجال، أن يخدموا الدولة فى ظروف شاقة، إلا إذا تلقوا مكافآت على خدماتهم. ويمضى فيقول فى الفصل الثانى والعشرين من كتابه الثانى أن (الرومانيين بدافع الضرورة وعندما ساءت الأوضاع عندهم، ارغموا على العودة إلى أولئك الذين تجاهلوهم فى أيام السلم والرخاء). كما يقول فى الفصل التاسع عشر من كتابه الثانى أيضاً، أن (المقاطعات السويسرية اضطرت إلى عقد حلف بينها عندما هاجمها دوقا النمسا وبورغنديا).

وهناك بعض الفقرات التى تشير إلى أن الضرورة التى تقرر العمل تنشأ فى بعض الحوافز والمعتقدات، فالحاجة التى دفعت مثلاً هانيبال إلى القتال حتى النهاية، قد نجمت من اعتقاده، بأن من الأمجد له أن يقهر بقوة السلاح، على أن يستسلم طواعية واختياراً (المطارحات، الكتاب الثالث، الفصل العاشر)، وهكذا فإن الحاجة التى ترغم الرجال على العمل فى اتجاه معين، تعود إلى

الأحداث التى لا تدع مجالاً أمامهم للاختيار، إلا إذا آثروا الخراب والكوارث والعاز والزوال كلية.

ويعزو مكيافيللى فى (مطارحاته) وفى (أميره) على حد سواء، الأحداث التى لا سيطرة للإنسان عليها، أما إلى الحظ أو إلى عمل السماء، وهو كثيراً ما يستعمل هذين التعبيرين. والتعبير الفنى للحادث الذى لا سيطرة لنا عليه هو (الحادث العارض). وكثيراً ما يعنى هذا التعبير مصيبة أو نازلة، ويرى مكيافيللى أن الدور الذى تلعبه مثل هذه الأحداث فى تطور الدول ونموها، كبير الأهمية. وهناك فصل خاص فى كل من (المطارحات) و(الأمير)، يعالج الطريقة التى يعمل فيها الحظ، كما أن هناك فصلاً فى (المطارحات) يبحث فيما (إذا كانت الفضيلة أو الحظ، السبب الرئيسى فى حصول رومة على امبراطوريتها). وهناك فصل آخر فى المطارحات عنوانه (قبل أن تحل الكوارث الضخمة بمدينة من المدن أو مقاطعة من المقاطعات، تقع انذارات سابقة أو تكهنات يتقدم بها الناس). ومن المحتمل أن يكون هذا القول، هو الذى دفع بيرد، إلى الاعتقاد بأن مكيافيللى كان متأثراً فى آرائه عن الحظ، بالاعتقادات الفلكية السائدة. ولكننى لم أجد أى دليل آخر، يسند هذا الرأى سوى هذه العبارة. وكل ما يقوله مكيافيللى فى أماكن أخري، هو أن خمسين فى المائة من أعمال الناس تنبثق من ارادتهم الحرة، أما الخمسون الباقية، فتقررها ظروف تتعدى سيطرتهم. ويمضى بعد ذلك فيقارن الحظ، بالنهر الهائج، الذى لا يستطيع المرء مقاومته أثناء فيضانه، ولكن بعد انحسار الفيضان، وحلول الطقس الحسن، يستطيع الناس مقاومته عن طريق إقامة السدود والتحصينات الدفاعية. ويلقى الذين يعتمدون على الحظ وحده الدمار عادة، إذ أنه معرض للتبدل والتقلب، أما أولئك الذين يكيفون أنفسهم للوقت، فقد ينجحون، إذ كثيراً ما تكون هناك سبل عدة تؤدى إلى نفس الغاية أو النتيجة.

ولا ريب فى أن مكيافيللى عندما يضع عنواناً للفصل التاسع والعشرين من كتابه الثاني، العبارة التالية: (أن الحظ يطمس على عقول الناس، عندما لا يريد منهم الوقوف فى طريق مشاريعه)، كان يستند فى قوله إلى الحقائق التى لاحظها، (فكثير من الأحداث تقع، وكثير من النوازل يحل، دون أن يكون المرء قد أخذ أهبته لمواجهتها). وكثيراً ما تؤدى بعض الأحداث التى لا مسئولية لنا فيها، إما إلى النجاح أو إلى الفشل. يضاف إلى هذا أن مكيافيللي، قد اقتبس العنوان السابق من تاريخ ليفى الذى يستند فى حديثه إلى ما وقع فى رومة عندما احتلها الغاليون عام ٣١٠ قبل الميلاد.

وإذا قبلنا الحقائق كما وضعها ليفى فى كتابه الخامس، تبين لنا أن الأحداث قد وقعت بحيث جاءت لرومة بالكارثة أولاً ثم عادت فالتقطتها من سقطتها، ولم يكن للرومانيين فى كلتا الحالتين أى دخل فى تخطيط الأحداث أو ترتيب وقوعها. ويعزو ليفى ما وقع برومة من عقاب، ثم استفاقتها إلى (الآلهة)، بينما يؤثر مكيافيللى أن يعزوه إلى الحظ، الذى قرر أولاً (ضرورة معاقبة رومة، ثم رأى أن لا حاجة إلى دمارها الكلي، فأعد الأمور بحيث تمهد لها سبيل إقالتها من عثرتها). ولكن مهما كان الاسم الذي يطلق على مسببات هذه الأحداث التى تتعدى حدود سيطرتنا، فمن الواضح أن مكيافيللى كان يدرك أن هذه المسببات كانت تعمل عن قصد وغاية.

ولم يكن هذا هو المكان الوحيد الذى اعترف فيه مكيافيللى بفرضية الأحداث. فهو يتحدث فى أماكن كثيرة، عن طراز من الإمارات يسميه (بالإمارات الكنسية). والتعميمات والقواعد التى وضعها للإمارات الأخري، لا تنطبق على هذا الطراز الذى لا يستطيع المرء قياس مدى قوته بالطرق العادية، ذلك لأنه يعتمد على منظمات دينية عريقة، انقضى عليها عهد طويل وهى فى أوج سلطانها، وهى من النوع الذى

يحتفظ بالقائمين على الأمر فيه، مهما كان أسلوبهم فى الحكم، أو كانت طريقتهم فى الحياة. فلهؤلاء الحكام دول، لا يتحتم عليهم الدفاع عنها، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمونهم. ومع ذلك فإن هذه الدول لا تخرج على طاعتهم، لأنها تركت مفتقرة إلى الحماية، كما أن رعاياهم لا يكترثون بما يرونه فى حكمهم من استرخاء، وليس لديهم القدرة أو حتى الرغبة فى استبدال هذا الحكم بآخر، ولذا فهذه الامارات وحدها هى الآمنة، وهى السعيدة. ولكنه لا يود الإفاضة فى الحديث عنها، لأن بقاءها متوقف على أمور تسمو على العقل الإنسانى وهى من عمل الآلة.

وإذا ما درسنا الأدلة التى يستنبطها مكيافيللى دعماً لاعتقاداته فى العمل المقصود للحظ، وفى إشارته التى أوردناها الآن لله، أمكننا أن نحكم إذا كان مكيافيللى حقاً يؤمن بوجود الله. ولقد اتهم مراراً وتكراراً، بأنه من المنكرين لوجود الله، ولكننى لم أرد دليلاً فى جميع كتبه يقوم على إلحاده. وقد وجدت أدلة عديدة فى كتبه على وثنيته، ولكن الوثنى قد لا يكون بحكم الضرورة ملحداً. ولم تكن الأكاديمية، الافلاطونية فى فلورنسة كافرة وملحدة، وإنما كان هدفها خلق نوع من التنسيق والانسجام بين روحانية الماضى وبين النصرانية، وهكذا شكلت كما قال بيركهارد (واحة بارزة فى إنسانية العصر. ولقد كانت هذه الإنسانية فى الحقيقة وثنية، واتضحت ميولها هذه أكبر وأكثر، عندما اتسعت آفاقها فى القرن الخامس عشر. وكان ممثولها الذين وصفناهم بأنه مالحرس الأمامى للفردية الجموح، التى لم يتم تطبيعها بعد، يظهرون كقاعدة، طرازاً من الخلق، تغدو فيه ديانتهم التى تحدثنا عنها قضية غير ذات بال بالنسبة إليهم. وقد حصلوا بسهولة على لقب الملحدين، لأنهم كانوا يبدون غير آبهين بالذين، ويتحرون فى أحاديثهم عن الكنيسة، ولكن أياً منهم لم يعلن، ولم يجرؤ أن يعلن أية إلحادية فلسفية رسمية). ولا ريب فى أن معالجة مكيافيللى للحظ، تتفق تماماً مع هذه الروحية،

فهى وثنية وفردية فى آن واحد. وهو يستند فى أقواله إلى ليفي، ولكنه فى تطويره لآراء ليفي، يضع لنفسه خطة يسير عليها، ويصل عن طريق هذا الأسلوب إلى النتيجة القائلة، بأن العناية الآلهية تسهر على حياة الأراد وتقدم الشعوب، وسير الكنيسة، فتؤيد أعمال الناس أحياناً، وتعكسها أحياناً أخري، وتسهل لهم مصالحهم مرات بشكل لم يكونوا يتوقعونه، أو قد خططوا له، وتضع العراقيل فى طريقهم كرات أخري، بحيث يتطلب التغلب عليهم، توافر الفضيلة لديهم. وتبدو لى جميع هذه النقاط فى غاية الأهمية، ذلك لأن عبارة (الله) فى الحديث عن (الإمارات الكنسية) لا يعنى إلا تعبير والوثنى الآخر (الحظ) أو (السماء) الذى ورد فى معظم أنحاء كتبه.

الابتكار عند مكيافيللي

هل كان مكيافللي مبتكرًا لفلسفة معينة لم تكن موجودة من قبل؟

يقارن مكيافيللى فى كتابه (الأمير) بين طريقته وطرائق الآخرين من الناس، فيقول أنها (أولاً) تهتم ببساطة، باكتشاف الحقيقة ليس إلا، لا بإقامة جمهوريات وأمارات مثالية، من النوع الذى لا يصادفه الإنسان فى حياته العامة، وإنها (ثانياً) لا تهتم بما يقوله علماء الأخلاق عما يجب فعله، بل بما يعمل حقاً، وبما يفعله الأمراء بصورة خاصة للحفاظ على وجودهم وكيانهم. ويضيف إلى هاتين الملاحظتين قوله على سبيل التحذير، إنه إذا كان الحفاظ على الوجود هو الهدف من علم السياسة، فإن المفاهيم التى يضمنها طريقته تختلف فيها تؤدى إليه، عن مفاهيم دعاة الأخلاق، وتتعارض معها أحياناً).

ولا ريب فى أن مكيافيللي، كان يضع (أفلاطون) فى قائمة الذين قد يختلف معهم فى الرأى فى هذا الموضوع. بالإضافة إلى عدد آخر من رجال الفكر من أمثال دانتي وارسطو والقديس توما الاكويني. وفى كتابه المطارحات، نجد إدعاءً مذهلاً، فهو يقول فى مقدمة الجزء الأول منه ما يلي: (لقد قررت الدخول

فى طريقة جديدة، لم يسبق لأى إنسان السير فيها من قبل). وهى ولا ريب طريقة محفوفة بالأخطار (بحثاً عن أعماق جديدة، ومجاهل غير معروفة، وذلك لأن عامة الجنس البشرى ميالة إلى التقليل من أعمال الآخرين لا إلى تمجيدها والثناء عليها). وفى هذه الحالة، يمكننا أن نضيف إلى قائمة (الآخرين)، جميع الذين كتبوا فى السياسة، قبل التاريخ الذى عكف فيه مكيافيللى على وضع كتبه أى بين عامى ١٥١٣ و١٥١٨ ميلادية.

ويبدأ جميع الذين بحثوا عادة فى إدعاء مكيافيللي، بأن طريقته فى البحث جديدة باستعراض الطرق التى اتبعها الآخرون من اسلافه البارزين، ثم يستطردون إلى القول، بأن طريقته كانت بالفعل مغايرة لطرائقهم. وهكذا نجد أن بيرنهام، فى كتابه: (المكيافيليون) يشرح بشيء من الإسهاب والإفاضة الطريقة التى استعملها دانتي، ثم يظهر أن طريقة مكيافيللى تختلف اختلافاً كلياً وجذرياً عنها. وبالنظر إلى إدعاء مكيافيللى بأن طريقته تشبه فى جدتها اكتشاف كولمبس لأمريكا، وإلى قوله بأن أياً من أسلافه لم يسبق له السير فيها من قبل، فإن الأسلوب المألوف فى التحقيق من صحة إدعاء مكيافيللي، هو فى رأيي، متعب للغاية. ولهذا فسألجأ إلى أسلوب مغاير تماماً. ولذا فسأبدأ بتلخيص المظاهر الأساسية للطريقة الجديدة كما يستعملها هو، فى سلسلة من ستة افتراضات، يؤلف كل منها افتراضاً مغايراً.

وتتألف الطريقة التى اتبعها مكيافيللى بصورة رئيسية من النقاط التالية:

١- العودة إلى التاريخ بحثاً عن حادثة قد يتكرر وقوعها، كسلوك أى حاكم أو حكومة أو منظمة أو فرد، واستقصاء نتائجها من حسنة وسيئة، وذلك بالنسبة إلى علاقتها بالشخص أو الأشخاص أو لادولة، أو بإبراز نتيجة معينة ووضعها أمام الحاكم أو الحكومة أو المؤسسة أو الفرد، سواء أكانت نافعة أو

ضارة، ثم استقصاء سير السلوك الذى أدى إلى وقوع هذه النتيجة.

٢- الاستقصاء عما إذا كان قد وقع حادث مماثل فى التاريخ للحادث المشار إليه، والاهتمام به بصورة خاصة إذا كان قد وقع فى العصور الحديثة.

٣- وضع تعميم فى حالة تكرر ذلك الحادث يقول أن حادث (س) يؤدى دائماً أو على الغالب، أو فى معظم الأحايين إلى النتيجة (ص).

٤- الاستقصاء عما إذا كانت هناك أمثلة سلبية تناقض هذا التعميم، كايجاد المسببات، دون أن تكون لها عين النتائج، وفى حالة العثور على مثال من هذا النوع، القيام بدرسه، لاكتشاف ما إذا كان حادثاً سلبياً أصيلاً، أو أنه سلبى فى الظاهر ليس إلا.

٥- البحث عما إذا كانت النتيجة من النوع المرغوب فيه أو الكريه بالنسبة إلى الحاكم أو الحكومة أو المنظمة أو الفرد أو مجموعة الأفراد من ذوى الميول والأذواق المشتابهة، ووضع قاعدة، لتحديد نوع السلوك الذى يجب أن يتبع فى حالة كون النتيجة من النوع المرغوب فيه، أو السلوك الذى يجب أن يتجنبه الإنسان، إذا كانت النتيجة كريهة.

٦- عندما ينظر إلى مفاهيم الأخلاقيين من وجهة نظر حكمية غير متحيزة، يمكن الحكم عليها، على ضوء نتائجها، تماماً كما يحكم على أية منظمة أو عادة أو مألوف. وإذا ما ثبت أن النتائج ضارة من الناحية السياسية، يجب إبراز ذلك، مخافة أن يتبع الحكام، احتراماً منهم لآراء الأخلاقيين سيراً من السلوك ينتهى إلى كارثة سياسية.

وأعتقد أن هذه الافتراضات الستة تلخص تمام التلخيص وبدقة متناهية، الخصائص البارزة للطريقة التى يتبعها مكيافيللي، ولا يعترض على الخمسة الأولى منها إلا أولئك الذين ينكرون افتراض مكيافيللى الأساسى وهو أن التاريخ يعيد نفسه، والذين يرون أن الأوضاع هى من التعقيد، بحيث لا يستطيع المرء الوصول إلى أية قواعد عامة، ذات قيمة عملية، عن طريق مقارنة إحدى

النتائج المسببة بنتيجة أخري. لكن القاعدة الأساسية لا تتجزأ عن الموقف الذى اتخذه مكيافيللى فهناك أمثلة عدة على درس مكيافيللى لبعض المفاهيم الأخلاقية وإعلانه. ضررها من الناحية السياسية. وقد ثبت فيما بعد خطأ مكيافيللى فى ذلك، ولكننى أقصر حديثى الآن على الطريقة التى استخدمها، لا على النتائج التى وصل إليها. فهو يعالج المفاهيم الأخلاقية على اعتبار أنها مدلولات، يمكن درسها على ضوء نتائجها. وقد أوصله درسه هذا إلى الاستخلاص القائل، بأنه فى ظل بعض الظروف يؤدى اتباع هذه المفاهيم، إلى أضرار سياسية بالغة. وإذا ما درسنا على الفور النتائج الآنية والبعيدة، لاتباع هذه المفاهيم أو عدم اتباعها، لا من وجهة نظر الفرد وحده، بل من وجهة نظر العالم فى مجموعة، تبين لنا، كما أنا واثق، أن ليس ثمة تعارض فى الحقيقة بين المصلحة وبين المفاهيم الأخلاقية. وهنا يخطئ مكيافيللي، كما يرى كافة الأخلاقيين والعقاء من الناس. ولكن خطأه لا يكون فى إثارته للسؤال، وهو فى منتهى الأهمية والفائدة، بل فى الرد الذى يجيب به على هذا السؤال.

وعلينا الآن، أن نبحث فيما إذا كان أى من أسلاف مكيافيللي، قد استعمل هذه الطريقة فى مجموعها، وفى نقاطها الست التى لا يمكن تجزئتها. فالتعميمات والقواعد، موجودة فى كتب جميع من ألفوا فى السياسة فى العصور الوسطي. وكان القديس توما الاكويني، أكثر اهتماماً بالأمثلة السلبية من مكيافيللي، الذى يمكن اعتباره مبتدئاً فى هذا الميدان. وتعتمد الطريقة التى يتبعها الاكوينى فى كتابه (ملخص الدين) وهو الكتاب الذى يعالج فيه شئون الدين والفلسفة والسياسة، فى جوهرها، على وضع النظريات، وايراد الاعتراضات عليها، ثم اثبات النظريات، والرد على الاعتراضات، ولكن الاكوينى وغيره من مفكرى القرون الوسطي، لم يلجأوا إلى الحكم على قيمة النهج السياسى والمنظمات

السياسية على ضوء نتائجها، كما أنهم لم يقيموا الدليل على صحة نظرياتهم، بإيراد أمثلة مشابهة مستقاة من التاريخ معاصره وقديمه. وهم فى الوقت نفسه لا يتنكبون طريق الاستشهاد بالحجج الدينية، أو كتب الأناجيل، أو المفاهيم الأخلاقية المقررة.

وللتمثيل على الطريقة المتبعة، أرى أن نأخذ موضوعاً طالما بحثه كتاب السياسة فى القرون الوسطي، وهو ما إذا كان من الخير للمدينة والمقاطعة أن يحكمها فرد، أو مجموعة من الناس. يقول الأكوينى فى أحد كتبه: (أن خير المجتمع وسلامته، يقومان فى الحفاظ على وحدته، أى فى الحفاظ على السلم، تختفى بدونه قيمة الحياة الاجتماعية. ومن الواضح أن فى مكنة الفرد الحاكم، أن يفرض الوحدة، أكثر من الكثرة الحاكمة، تماماً كأن يكون مسبب الحرارة حاراً فى حد ذاته. ولذا فحكم الفرد أكثر صلاحاً من حكم المجموع.. وهذا ما تؤيده التجربة، ذلك لأن المقاطعات والمدن، التى لا يحكمها فرد تكون فريسة للمنازعات، ولا يسودها السلام، بل يسيطر عليها القلق كالأمواج المتعاقبة، وهذا يؤيد ما قاله أرميا فى أصحاحه الثانى عشر).

ويقول دانتى فى كتابه الملكية: (عندما يعين أكثر من شخص واحد لهدف واحد، يجب أن يكون أحدهم حاكماً أو موجهاً، وأن يكون الآخرون محكومين أو موجهين. وهذا ما يؤيده المعلم الأكبر (أرسطو)، وتنصره الحجج القوية. فعندما يوكل إلى جميع حواس الإنسان بالعمل لشيء واحد، فإن حاسته العقلية يجب أن تتحكم وتوجه الحواس الأخري. وفى العائلة يجب أن يكون هناك واحد يحكم ويوجه، وهو ربها. وإذا ما طبقنا الأمر على مقاطعة، تبين لنا، أن واحداً يجب أن يحكمها وأن يوجه الآخرين، إذ عندما يحاول الكثيرون البروز، يلحق الدمار بالمقاطعة كلها. وهكذا فإن مصير كل مملكة تتجزأ على نفسها إلى الخراب.

وعلى هذا، إذا صح ما قلناه بالنسبة إلى هذه الحالات كلها. وفى كل حالة مماثلة، يكون الهدف فيها واحداً، فإن الافتراض الذى أوردناه يكون صحيحاً دائماً).

ويدافع مارسيليوس البادوي، عن نظرية الحاكم الفرد فيقول: وحتى ولو كان أفراد جماعة الحكم، كلهم عادلين، وكان أحدهم يشاور الآخر فإن ادارتهم ستكون ناقصة ومشلولة، فالأوامر المتعارضة قد تصدر عنهم، والخلافات والتحريات قد تنشأ، وستكون الجماعية نافلة وغير لازمة، وستفتقر الدولة إلى الوحدة، ولهذا يتحتم وجود حاكم أعلى لأسباب عقلية وعملية). ولا ريب فى أن هناك أوجهاً للشبه بين مكيافيللى ومارسيليوس. ولكن هذا على الرغم من وضعه لقواعد عامة، لا يقيم الدليل على صحتها بالأمثلة التى يوردها، بل يستشهد عليها بفقرات من أرسطو.

وليس ثمة إلا كاتب واحد، كما أعرف، يستشهد بالأمثلة التاريخية ويوردها متوالية، لشرح عين الموضوع، وهو فاليريوس مكسيموس، الذى اتبع عين هذه الطريقة فى كتبه التسعة التى أهداها إلى الامبراطور تايبريوس. وتشرح أمثلة السلوك الإنساني فى مختلف فضائله ورذائله وخصائصه الأخري، التى أظهر مكيافيللى اهتماماً واسعاً بها كشئون الدين والقضاء والتنظيم العسكرى والانضباط والاعتراف بالجميل ونكرانه، والقسوة، والميل إلى المجد والوحشية، والغضب والكراهية والغدر والتهور. وقد يكون صحيحاً ما يقال، من أن مكيافيللى قد اقتبس عن فاليريوس، فكرة الاستشهاد بالأمثلة التاريخية بصورة منظمة، ولكن بينما يستعمل فاليريوس أمثلته وهى أكثر من أمثلة مكيافيللى عدداً، فى شرح الطبائع البشرية، نرى هذا يستخدمها فى شرح الافتراضات المتعلقة بالمسببات السياسية ونتائجها، وهو أمر مختلف كل الاختلاف. وقيل أيضاً أن كتاب (الحياة المتوازية) لبلوتارك، هو مصدر محتمل آخر، للطريقة التى

اتبعها مكيافيللي، ولكنى أشك فى صحة هذا القول تماماً. وكل ما يفعله بلوتارك، هو أن يقص علينا حياتين، وأن يشير بعد ذلك إلى الخصائص المشتركة فيهما.

وإذا ما انتقلنا الآن إلى أعظم كاتبين من كتاب السياسة عند الإغريق، نرى أن طريقة أفلاطون، تختلف اختلافاً واضحاً، عن طريقة مكيافيللي، ذلك لأنه يقيم جمهورية مثالية (يرسمها على لوحة بيضاء)، ويقيم فكرة الأخلاقية والسياسية لا على أساس التجارب الحسية، وإنما على أساس تجارب تمت إلى نظام أرفع، يزعم هو، أن فى وسع أى انسان الوصول إليه، إذا شاء الاذعان إلى الانضباط المشترط فى هذا النظام. أما بالنسبة إلى أرسطو، من الناحية الأخري، فليست ثمة أفكار مشتركة فقط بين الرجلين، بل هناك تشابه أيضاً فى الطريقة، وقد يكون هذا التشابه أحياناً بارزاً كل البروز. وتعتمد نظرياتهما السياسية معاً على قاعدة حكيمة، ولا ريب فى أن أرسطو يتفق مع مكيافيللى فى رأيه بأن على الدستور المبتكر الجديد، أن لا يقوم على مجرد شكليات نظرية، بل على أساس (دساتير توجد حقاً فى الدول ذات الحكم الصالح) (كتاب السياسة لأرسطو، الجزء الثاني، الفصل الأول). وقد احتمل أرسطو أكبر العناء فى دراسة الدساتير القائمة ومقارنة الواحد منها مع الآخر. وهناك بالإضافة إلى هذا نقطة مهمة أخري، تتفق فيها طريقتاهما. فارسطو فى بحثه عن الثورات فى الجزء الخامس من كتابه (السياسة)، يدرس هذه الثورات كما درسها مكيافيللى من مختلف وجهات النظر المتعلقة بالملوك والمستبدين وحكام القلة (الأوليغاركي)، والديموقراطيات، وهى وجهات نظر تريد الأمن لنفسها، ومن ناحية أولئك الذين يعملون على قلب أنظمة الحكم هذه. ولا ريب فى أن مكيافيللى مدين لأرسطو بالكثير فى هذا الموضوع.

ولم يقتصر فضل أرسطو على مكيافيللي، على هذه النقطة بالذات، بل تعداها إلى نقاط أخري، فهو، أى أرسطو، فى الفصل الثانى من جزئه الخامس من (السياسة)،

بعد أن يتحدث عن مختلف الوسائل التى قد يلجأ إليها (الطاغية)، لضمان مركزه، يمضي فيقول: (وهناك طريقة أخرى ترتكز على مبدأ للعمل، يختلف كل الاختلاف، ويمكن تصوير طبيعته من المقارنة بين الأسباب التى تؤدى إلى تحطيم الملكيات. إذ لما كانت إحدى الطرق لتحطيم سلطان أى ملك من الملوك، هو تحول هذا السلطان إلى النوع الاستبدادي، فإن (خلاص) الاستبداد، يكون فى تحوله إلى صورة تشبه إلى حد ما صورة حكم الملوك، وعلى المستبد الطاغية، أن يعنى بشيء واحد، وهو الاحتفاظ بقدر كاف من السلطان لحكم رعاياه، سواء أحبوا ذلك أو كرهوه، إذ إنه إذا تخلى عن هذا السلطان، تخلى عن طغيانه واستبداده. ولكن على الرغم من أن السلطان، يجب أن يكون أساساً فى حكمه، فإن عليه أن يعمل، أو يتظاهر بالعمل، بطبيعة الملوك. فعليه مثلاً أن يدعى الاهتمام بموارد الدخل العام، وأن لا يبدو قاسياً فظاً، بل ذا شخصية مهيبة، حتى إذا قابله الناس، تطلعوا إليه بعين الاجلال، لا بعين الخوف، ولكن من الصعب عليه أن يفرض احترامه، إذا لم يكن ملهماً بهذا الاحترام، ولذا فإن عليه، مهما كانت الفضائل التى يهملها، أن يحافظ على الأقل على صورة الرجل السياسى وأن يوحى بالانطباع بأنه من الساسة. ولذا فعليه أن لا يعرض نفسه للاتهام بالمباذل الجنسية أمام رعاياه، وأن يكون على نقيض الطغاة الحديثين معتدلاً، فى إقباله على ملذاته، أو على الأقل، أن لا يعرض هذه المباذل على العالم، وعليه أيضاً أن يضفى الجمال والرونق على مدينته وأن يحسنها، وكأنه ليس بالإنسان الطاغية بل الحارس المولج برعاية دولته. وعليه أيضاً أن يبدى اهتماماً خاصاً بخدمة الآلهة).

وهكذا فإن أرسطو يقدم لنا قائمة طويلة بالفضائل التى يجب على الطاغية التظاهر بها. وكما أن مكيافيللى يميز بين القضايا الأخلاقية، نرى أن أرسطو يميز بينها كذلك، ويعكف كلاهما على دراسة السبل والوسائل فقط التى تؤدى

إلى النجاح. وهكذا فإن الميزة السادسة لطريقة مكيافيللي، قد تكون مستوحاة من أرسطو، على الرغم من أن هذا لا يميز عامة بين القضايا الأخلاقية وإنما يؤكدها. وعلى الرغم من أنه أيضاً لا يوصى بأن يلجأ الملك إلى مثل هذا الخداع فى التظاهر، وإنما يقصر ملاحظاته على الطغاة، ومن المفروض أن يتصف الملوك بهذه الفضائل موضع البحث، لا أن يكتفوا بالتظاهر بها.

ولكن، إذا كانت طريقة مكيافيللى تشبه إلى حد ما طريقة أرسطو، فى بعض نواحيها، فإنها تختلف عنها أيضاً فى بعض النواحى البارزة. فعندما يشرع أرسطو فى بحث المؤسسات والعادات التى يجب أن تتوافر فى الدول الحسنة التنظيم، لا يقبل كقاعدة عامة على إعطاء الأمثلة المحدودة التى تظهر نتيجة وجودها أو تبنيها، وإنما يلجأ إلى استخدام الحجج العقلية الطراز، كتلك التى استخدمها القديس توما ودانتى ومرسيليوس البادوي، وهى حجج، مرسومة فى العادة على غرار حجج أرسطو، أو مستوحاة منها. فهو مثلاً فى الفصل السادس من الكتاب الأول من (السياسة)، يؤيد نظام الرقيق على اعتبار أن الفرق الواضح بين فئتى السادة والعبيد، يجعل من المصلحة ومن الحق أيضاً، أن تكون هناك هاتان الفئتان. وهو يستعيذ من النظام الملكى فى الفصل الخامس عشر من كتابه الثالث على أساس أن مجموعة من النبلاء الأصليين لا يمكن أن يخضعوا بعواطفهم لحكم الملوك، لا سيما وأن الملكية تميل بطبعها إلى اتخاذ الشكل الوراثي، ولكنه لا يستشهد بالأمثلة، كما يفعل مكيافيللي، لشرح الطريقة التى يسلك فيها الملوك. وهو يري، كما يرى مكيافيللي، إن إقامة الحكم الديموقراطى أكثر سهولة من الاحتفاظ به، ويشير إلى عيوب هذا الحكم مقترحاً العلاجات المختلفة، ولكنه لا يستشهد لا على هذه العيوب، ولا على طرق العلاج منها، بالأمثلة المحدودة. ومن المحتمل أن يكون كتاب (السياسة) لارسطو منطوياً على عدد مماثل أن لم يكن متفوقاً على عدد المفاهيم والقواعد التى

يضمها كتاب (المطارحات) لمكيافيللي، ولكن أرسطو لا يلجأ إلا نادراً، للاستشهاد بمثل تاريخي، ليظهر أن هذه المفاهيم والقواعد يمكن تطبيقها عملياً، بينما يستشهد مكيافيللى بالأمثلة العديدة، ولا يكتفى بأن تكون قواعده مطابقة للعقل فحسب، بل وللتجربة أيضاً، من ماضية وحاضرة ليقنع قراءه بسلامة النصيحة التى يقدمها. وتختفى بيانات أرسطو وراء الألفاظ التى يفترض فينا إدراك أهميتها. أما مكيافيللي، فيضع أمامنا بوضوح على حد سواء أهمية الألفاظ والبيانات، عن طريق رسوم قلمية يصورها ويشرح فيها الأحداث كما وقعت بالفعل. ويصوغ الكاتبان القواعد، وقد وضعا نصب أعينهما تحقيق غاية أو هدف. ويتفق الرجلان على أن ما يجب على الحكام توخيه هو إقامة أمن دائم لدولة حسنة التنظيم، لا دولة استبدادية. ولكن بينما يكتفى أرسطو بتعريف ما يعنيه بالدولة المنظمة وما يعنيه بالدولة الاستبدادية، يؤثر مكيافيللى عن طريق الرسوم القلمية، افهام الحكام ما تعنيه كلتا الدولتين فى الحقيقة، ثم يوجه إليهم السؤال، كأناس عاقلين، عن الطريقة التى يؤثرون العيش فيها والحكم بموجبها. ويهتم أرسطو بالإضافة إلى هذا بصورة رئيسية فى تحليل الدساتير بينما يركز مكيافيللى اهتمامه على الحركات، ولذا تجيء طريقته تاريخية على الغالب.

ولا ريب فى أن اهتمام مكيافيللى بالتاريخ وإدراكه لاهميته بالنسبة إلى السياسي، نجما بصورة لا تقبل الشك عن قراءته لقدماء المؤرخين من أمثال ليفي، وتاسيتوس وبوليبيوس وثوسيديدس واكزينفون وبلوتارك وكوينتوس كورتيوس روفوس. ولقد استقى كثيراً من آرائه عن التاريخ من اقوالهم. ولا ريب فى أن مكيافيللى قد قرأ كتب بوليبيوس الستة الأولي. ويقول هذا فى مستهل تاريخه أن جميع من سبقوه من المؤرخين، بدأوا كتبهم وانهوها بتقريظ دراسة التاريخ وبالتأكيد (على أنه فى معناه الصحيح تثقيف وتدريب على الحياة السياسية، وأن الطريقة الأكثر تثقيفاً، بل ولعلها الطريقة الوحيدة، لتعلم شرور الحظ بكرامة، أن نستعيد ما حل بالآخرين

من كوارث.. وهل فى مكنة أى انسان أن يتجاهل أو يهمل معرفة الوسائل، والطرق السياسية، التى تمكنت بها مدينة وحيدة كرومة، من احتلال العالم المأهول كله تقريباً فى أقل من ثلاث وخمسين سنة، والسيطرة عليه؟ ولا ريب أيضاً فى أن المعرفة المستمدة من دراسة التاريخ الصحيح، هى أحسن وسائل التثقيف على الحياة العملية، إذ أن التاريخ، والتاريخ وحده، هو السبيل الوحيد الذى يحول دون تعريضنا لأية أخطار فعلية، لانضاج حكمنا، وتهيئتنا لتبنى وجهات النظر الصحيحة، مهما كانت الأزمات التى نواجهها، أو أوضاع القضايا التى تقابلنا. وليس من هدف المؤرخ أن يذهل قراءه بسلسلة من القصص والنوادر المثيرة، ولا أن يتوخى إدراج الخطب التى سبق لها أن ألقيت.. وذلك لأن أهداف التمثيل والتاريخ مختلفة. فهدف التمثيل، التأثير على النفس وإشاعة المتعة عن طريق الألفاظ التى توافق الطبائع والأمزجة بقدر الإمكان، بينما هدف التاريخ التهذيب والاقناع باستخدام الأقوال والأفعال الأصلية. والمقصود من تأثير التمثيل أن يكون مؤقتاً أما تأثير التاريخ فيجب أن يكون دائماً. والتفوق فى التمثيل يكون فى السيطرة على النظارة، إذ أن الغاية خلق الرؤى والتصورات، أما فى التاريخ، فالحقيقة هى المهمة كل الأهمية، إذ أن الهدف إفادة المتعلم. ولو افترضنا أن أحد الساسة تعرض لهجوم فى شخصه أو فى بلاده، أو تاق هو للهجوم، أو توقع هجوم العدو، أو حاول الاحتفاظ بالوضع الراهن، فإنه فى جميع هذه الحالات يتعلم من التاريخ وحده كيف يستطيع فى الحالة الأولى العثور على الانصار والحلفاء وفى الثانية إثارة التعاون، وفى الثالثة دعم القوى المحافظة، التى تميل إلى الحفاظ، كما يرغب هو، على الأوضاع القائمة. ولا ريب فى أن عمليات الماضي، تعرض الدوافع والأهداف دون تنكر أو غموض، وتعلمنا ما يجب أن نتوقعه من أنواع الناس من عطف أو لطف عملى أو مساعدة أو نقيضها كلها. وهذه العمليات تتيح

لنا الكثير من الفرص أيضاً لتمييز من يمكن له أن يكون مشفقاً علينا، أو ساخطاً عن أخطائنا، أو مدافعاً عن قضيتنا، وهى قوة تسهم إسهاماً كبيراً فى تأمين السلامة الوطنية والشخصية. ولهذا فعلى كاتب التاريخ وقارئه، على حد سواء، أن يحصرا اهتمامهما، فى سرد الحقائق سرداً مجرداً، وأن يعتبرا بما سبق هذه الحقائق ورافقها ولحق بها من أحداث. وذلك لأننا إذا جردنا التاريخ من كل ايضاح للمسببات والمبادئ والدوافع. ومن تكييف الوسائط للغايات، فإن ما يبقى منه لا يعدو أن يكون مجرد منظر يخلو من التثقيف، وقد تكون فيه متعة موقوتة، ولكنها ليست دائمة).

ولا ريب فى أن معظم القيم التى اكتشفها مكيافيللى فى التاريخ، واردة فى هذه الفقرات السابقة.

أما ديودوروس صيقلوس، فهو مؤرخ آخر، ولم يكتف مكيافيللى بقراءته، وإنما ذكره فى (مطارحاته). ومن المحتلم أن يكون هو الذى أوحى له - أى لمكيافيللى - بطريقة المقارنة بين الأمثلة المستقادة من مختلفة أزمنة التاريخ، ليستخلص منها الدروس العملية، إذ أنه فى مقدمة كتابه تاريخ المكتبات، لا يكتفى بلفت النظر إلى احتمال استخدام التاريخ فى هذا الهدف، بل إلى أوجه الشبه بين القوانين الطبيعية والقوانين التى شاءت العناية أن تتحكم فى السلوك الإنساني. وهو يقول فى كتابه: (وكما أن العناية الإلهية، شاءت تنظيم الكون فى مجموعات من النجوم المرئية، وتنظيم العلاقات بين الناس، ساندة إلى كل فرد، ما يؤهله له قدره، كذلك المؤرخون فى تسجيلهم لقضايا العالم المأهول المشتركة، وكأنها قضايا دولة واحدة، جعلوا رسالتهم، سرد الأحداث الماضية، وايضاح المعرفة المتعلقة بالآخرين. فمن الأمور الممتازة أن يتمكن المرء من استخدام أخطاء الآخرين الحمقاء، كوسيلة للتنبيه من الوقوع فى الخطأ، وعندما نواجه

تقلبات الحياة المختلفة، علينا أن نفيد من نجاح الآخرين فى الماضى بتقليده، بدلاً من أن ندرس ما يقع الآن).

وفى وسعنا الاستشهاد بفقرات أخرى من مؤلفين آخرين. فمثلاً، لفت ثيوسيديدس الاهتمام إلى أهمية الدقة فى كتابة التاريخ، وفى صعوبة الوصول إلى هذه الدقة، ثم قال: (وإذا كان من يرغب فى الحصول أمام ناظريه على صورة صادقة للأحداث التى وقعت، وما شابهها من أحداث قد تقع فى المستقبل فى مجرى القضايا الإنسانية، يرى فى ما أكتبه شيئاً نافعاً، فإن هذا يرضينى غاية الرضي. فالتاريخ الذى كتبته، شيء له صفة الدوام والخلود، لا موضوع آنى يقدم للحصول على جائزة، فيتلى وسرعان ما ينسى).

ويدون بلو تارك، فى الفقرة الاستهلالية لكتابه (حياة سيرتوريوس) ملاحظة لا ريب فى انها استرعت انتباه مكيافيللي، فلقد قال: (ولما كان الحظ مع مرور الزمن يسير أحياناً فى هذا الاتجاه، وأحياناً فى الاتجاه الآخر، فلا بد والحالة هذه أن يتوقف فى سيره عند نفس الحادث فى كثير من الأحيان. وبالنظر إلى أنه ليس هناك من حد لعدد الأحداث، فإن المواد متوافرة، لتكرر وقوع النتائج، أما إذا كانت الأحداث محدودة فى عددها ولكنها مترابطة، فمما لا بد منه، أن يتكرر وقوع الأشياء بالنظر إلى تحديدها).

وهناك مؤرخ آخر، اقتبس منه مكيافيللي، وكان قد وجد نفسه فى وضع لا يختلف عن الوضع الذى وجد مكيافيللى نفسه فيه بعد صرفه من الوظيفة فى عام ١٥١٢. وهذا المؤرخ هو سالوست الذى يقول فى مقدمة كتابه (مؤامرة كاتيلين)... (وأخيراً هدأ عقلى بعد الكثير من المخاطر والشقاء، وعزمت على قضاء ما تبقى من أيام حياتي، فى معزل عن القضايا العامة. ولكن خطتى لم تكن ترمى على أى حال، إلى إضاعة هذا الوقت من الفراغ الثمين، فى الكسل والبطالة،

ولا إلى صرف حياتى فى الاشتغال بأعمال هى من أعمال العبيد كالزراعة أو الصيد. وعدت إلى دراساته التى كنت قد بدأتها ذات يوم. والذى أوقفنى طموحى التعس عن متابعتها، وصممت على سرد تاريخ الشعب الروماني).

وإذا ما بحثنا عن مؤلف يذكر شيئاً عن (النتائج المسببة للأحداث) وسياقها، وهو ما تحيز له مكيافيللى كل التحيز، وجدناه فى شخص شيشرون الذى يقول: (إن الفرق البارز بين الإنسان والحيوان، هو أن الحيوان يسير بحواسه، وليست لديه أية مفاهيم عن الماضى والمستقبل، وإنما يكيف نفسه لواقعه فى حاضره، بينما حبى الإنسان بالعقل الذى يتفهم به تسلسل النتائج، فيرى مسببات الأحداث، ويدرك العلاقات بين السبب والنتيجة، وبين النتيجة والسبب، ويرسم المقارنات، ويربط بين الماضى والمستقبل، ويستعرض بسهولة وبساطة، سير حياته كلها، ويقيم الاستعدادات المطلوبة لكل ما يعمله).

ولكننا إذا تطلعنا إلى هذه (النتائج المسببة)، عند مختلف المؤلفين الذين قرأهم مكيافيللي، نجد أن بعض الكتاب السياسيين والمؤرخين، قد ذكروا بعضها هنا وهنالك، وهى (النتائج) التى تؤلف فى مجموعها طريقة مكيافيللى الجديدة. ولكننا لن نجد أحدهم قد جمعها إلى بعضها كما جمعها مكيافيللي، أو استعملها على النحو الذى استعملها هو فيه. وعلى هذا فهناك الكثير من الصحة فى ادعائه اكتشاف طريقة جديدة لم يطرقها سواه من قبل. فهو لا فرنسيس بيكون، مبتكر الطريقة الاستقرائية. فبيكون يضع فى أسلوبه المبادئ التى تنطوى عليها الطريقة ويطبقها على الطبيعة كمجموع. ولكنه لم يبتكر الطريقة التى يحاول (فلسفتها) وإنما عثر عليها، مستعملة استعمالاً فعلياً فى كتابات نيقولا

مكيافيللي، التى درسها دراسة وافية فيها الكثير من العناية. وعلى الرغم من أن مكيافيللى لم يطبق طريقته على الطبيعة كمجموع، إلا أنه على أى حال، يعترف بأنها يجب أن تطبق على هذا النحو، وهذا ما يبدو جلياً فى مقدمة الكتاب الأول من مطارحاته، ومن ذكره للطبيعة فى أماكن أخري، ومن استخدامه لنظرية المادة والشكل أيضاً.

ولقد أصدر الأستاذ بترفيلد فى عام ١٩٤٠، دراسة حديثة تحت عنوان (سياسة مكيافيللي)، ضمنها ثلاثة فصول للبحث فى طريقة مكيافيللي، ولما كانت بعض ملاحظاته، للوهلة الأولى لا تتفق مع ما سبق لى قوله هنا، فاننى أرى من الحرى بى هنا، أن أعلق بعض التعليقات على ما قاله أستاذ كمبريدج البارز. فأنا أوافقه على أن طريقة مكيافيللى لم تكن استقرائية، على اعتبار أنه يكرس نفسه لمجرد ملاحظة السياسات الراهنة، وشرح الأسلوب الذى يتبعه الناس فى إدارة دفة الأمور، وذلك لأن مجرد الملاحظة والوصف لا يعنيان الاستقراء. والأستاذ بترفيلد محق فى رأيه عندما يقول أن (الاستقراء) يعنى (الإصرار على الحقائق الحكيمة، كما يعنى فكرة طحن العلوم على أساس ثابت من الملاحظات الممحصة، وحمل لواء المعرفة بجلد وثقة عن طريق جمع ما ندعوه بالحقائق ومقابلته وتحليلها). ولكننى أعتقد أن مكيافيللى قد أدرك هذا تمام الإدراك. ومن المحتمل أن يكون (قد نظر إلى التاريخ كمستودع للأمثلة لا كميدان للتجارب العامة)، ولكن الأستاذ بترفيلد نفسه يقول أن مكيافيللى (كان مشغولاً إلى حد كبير فى سياسات عصره، مما لم يتح له المجال للتجول فى أفق أفسح فى الأمثلة المثالية) كما يقول أيضاً، أنه أى مكيافيللى (عرف كيف يمحص الأمثلة التاريخية ويقابل بينها). إذن أين تقوم المشكلة؟ أنها تقوم فى الحقيقة الواقعة وهى أن مكيافيللى بعمله هذا، كان يستهدف أن (يثبت أن الرومانيين كانوا حكماء

سياسياً. فالأمثلة الحديثة تظهر أخطاء المعاصرين، أكثر من أى شيء آخر، وهو يزن بينها وبين القواعد القديمة التى يؤمن بصحتها).

وهكذا لا يقوم اعتراض الأستاذ بترفيلد على أن مكيافيللى لا يستخدم الطريقة الاستقرائية، بل على أن طريقته قد أفسدها، حمله للفأس وكأنه يريد شحذها أو سنها. وليست الافتراضات التى يحاول إقامة الدليل على صحتها، افتراضاته إلى حد كبير، وإنما هى مستقاة من الكتاب الاقدمين. وإنى لعلى استعداد لقبول هذه النقطة. ولكن ما لا أستطيع فهمه، هو كيف أثر هذا على الطبيعة الاستقرائية لطريقته. فهل يطلب من الباحث دائماً وفى جميع الحالات أن يقيم افتراضاته على أساس الأمور التى مر بها فى دراساته؟ لا، وهل تخرج طريقته عن الاستقراء لأن بعض هذه الافتراضات قد وصلت إلى أسماعه أثناء حديث ما، أو لأنه عبر بها أثناء قراءاته؟ إننى لا أعتقد هذا، كما أن الأستاذ بترفيلد لا يضمن هذا الشرط فى تعريفه للاستقراء الذى أورده فى الصفحة التاسعة والخمسين من كتابه. إن كل ما يشترطه هو أن تكون الافتراضات قائمة على ملاحظات ممحصة، وأن تجمع الحقائق وتقابل وتحلل، ولا ريب فى أن مكيافيللي، باعترافه هو، قد حقق هذه الشروط بالنسبة إلى ما تسمح به طبيعة البحث التاريخي.

البدهيات الواضحة فى طريقة مكيافيللي

لم يكن مكيافيللى فيلسوفاً أو عالماً بالمنطق، فهو لا يبدى كبير اهتمام بالتصنيف، ولذا فإن على كل من يرغب فى فهم ما يقوله فى أى موضوع معين، أن يجعل له فهرساً منذ البداية. وتختلط التعميمات التى تعتبر أساسية فى طريقته، مع غيرها من القواعد ذات التطبيق المحدود، أو قد تمر مروراً عابراً، أو يأتى بها على سبيل التقديم لفصول تعالج مواضيع أخري. ومع ذلك فهى موجودة إذا ما بحثنا عنها، وفى وسعنا أيضاً أن نستكنه مضامين غيرها من المبادىء عن طريق الحجج التى يستخدمها. يضاف إلى هذا أن جميع التعميمات والقواعد التى يستمدها مكيافيللى من دراساته التاريخية تفترض وجود روابط معينة بين الاسباب والنتائج. وأود أن أطلق على هذه الافتراضات أو الكفايات اسم البدهيات، وأن أحاول البحث فيها.

البدهية الأولى - تناسق الطبيعة: على الرغم ن تقيد مكيافيللى فى تطبيق طريقته، فى محاولة اكتشاف (النتائج المسببة) على الصعيد السياسي، إلا أن ثمة فقرات، يلفت نظرنا فيها إلى الحقيقة القائلة بأن القوانين التى يثبت صلاحها فى النسق السياسي، تشبه تلك التى يثبت صلاحها فى النسق الطبيعى أيضاً. وهو يلاحظ فى مقدمة الكتاب الأول من مطارحاته، أن أولئك الذين يزعمون استحالة تقليد الأمثلة التى وضعها عظماء الرجال فى الماضي، يتحدثون (وكأن النجوم والشمس والعناصر والانسان، قد غدت جميعها، فى حركتها ونسقها وطاقتها، مختلفة عما كانت عليه فى الماضي). ولا ريب فى أن هذا القول يعتبر بمثابة تأكيد النقيض، وجعله الافتراض الأساسى الذى يعتزم العمل بموجبه.

(فليس القانون المدني، سوى مجموعة من القرارات التى اتخذها شارعو العصور الغابرة، وقد بسطت ورتبت لتعليمنا. وليس الطب إلا سجلاً للتجارب التى قام بها أطباء الماضي، والتى يبنى عليها أطباء اليوم وصفاتهم الطبية). ويتحتم أن يكون فى الإمكان بطريقة مماثلة وضع قواعد تستند إلى تجارب الماضي، ويمكن للآخرين استخدامها (فى إقامة الجمهوريات وحكم الممالك وتشكيل الجيوش وإدارة دفة الحروب وتصريف شئون العدالة وتوسيع الامبراطوريات). وهو يفترض أيضاً أن (جميع أعمالنا تشبه أعمال الطبيعة)، ومن المستحيل على الصعيد السياسي (أن يقوم جذع ضعيف باسناد فرع ثقيل) كما هى الحالة على الصعيد الطبيعى بالنسبة إلى الأشجار. وهو يستهل الفصل الأول من كتابه الثالث بقوله: (أنه لما كان من الحقائق المقررة، أن لحياة الأشياء الدنيوية أجلاً محدوداً. وأن هياكلها بالنسبة إلى أنها مركبة قابلة للتحلل، والبلي، إلا إذا تجددت، فإن هذا القول يصدق أيضاً على جميع الدول والمنظمات الدينية التى تنشد البقاء).

وعلى الرغم من أن تفكير مكيافيللى محصور بصورة أساسية فى الهياكل السياسية، إلا أنه يوضح أن عمليات التحول من تفسخ وانحلال وتجدد، لا تقتصر على هذه الهياكل أو الهيئات السياسية، بل تكون عامة بالنسبة إلى جميع الأشياء الدنيوية، وهى هياكل مركبة على حد تعبير. ويطبق على المنظمات السياسية أيضاً، النظرية العلمية المتعلقة (بالجوهر والشكل)، والتى تعالج بصورة رئيسية قضية تحول العناصر الطبيعية. فهناك شيء مشترك بين سلوك الإنسان وعمليات الطبيعة. وعلى هذا فإن القوانين التى تنطبق على أحدهما يجب أن تنطبق بحكم أحداث التبدل الضروري، على الثاني. وعلى هذا يمكن أن نطلق على هذا الافتراض اسم بدهية التناسق، وأن نصفها على الشكل التالي: (إن الأجساد الطبيعية كالهيئات السياسية، تمر دائماً فى عملية مستمرة من التحول، تتشابه تماماً. وكما يمكن وضع القوانين

بالنسبة إلى الفئة الأولى التى تشرح العمليات التى تجري، فإن فى الإمكان وضع قوانين مماثلة للأخرى).

البدهية الثانية - السبب والنتيجة: يقتبس مكيافيللى فى الفصل الثانى من مطارحاته، فقرات من بوليبيوس دون أن يعترف باقتباسها، وهى تتحدث عن التبدلات الحكومية التى تتعرض لها جميع الدول والمدن، والأسباب التى تؤدى إليها، وهذه الانتقالات فى رأس بوليبيوس ذات طابع دائري، تبدأ من الملكية، وتمر عبر الطغيان الاستبدادي، وحكم النبلاء، ثم حكم القلة (أوليغاركي) فالديمقراطية، فالفوضى لتعود إلى الملكية ثانية. وعلى الرغم من أن مكيافيللى يعرض فى الفصل الثانى من كتابه الأول من (المطارحات) هذه النظرية، وكأنها من خلقه، إلا أنه، وهذا مهم جداً، بعد أن يذكر أن الدائإة قد استكملت، يسقطها من حسابه ولا يعود إلى الحديث عنها مطلقاً. فهو يرى أن العملية يجب أن يعبر عنها فى إطار أعم من التعبير، كانتقال من النظام (أى من طراز الحكم الصالح)، إلى الفوضي، أى إلى طراز الحكم غير الصالح، والعكس بالعكس. وأكثر الأسباب شيوعاً فى الثورات، هو الصراع الطبقى وهو عين ما يقوله بوليبيوس. وعندما تحل قضية الصراع الطبقي، ينبثق نوع من الحكم المستقر، ويسود النظام. أما إذا لم يحل الصراع، فإن النتيجة الحتمية هى الاضطراب وفقد النظام والفوضي. وقد تكون للثورات أيضاً أسباب أخري، كطموح بعض الرجال الذين يعملون رغبة منهم فى الحصول على السلطان، على الجمع بين أحزاب يريدون عن طريقها السيطرة على الدولة، أو الحسد الذى يشعر به الذين (لا يملكون) للذين (يملكون) وذلك عندما تفشل الدولة فى الحصول على حلول معقولة للمشاكل الزراعية أو غيرها، أو الرغبة فى الثأر التى يستفزها الطغيان والاضطهاد. وتميل جميع هذه الأسباب إلى خلق الفوضى واستشراء

الفساد. كما تخلقهما أيضاً البطالة الناجمة عن تفاقم الثراء. وللنظام أيضاً أسباب أخرى منها الدستور الصالح، والقوانين والعادات الطيبة التى تفترض بدورها وجود مشرعين طيبين، أو إخماد الفتن بتدخل من رجل جليل الشأن. ويمكن تبسيط مثل هذه الأسباب وما تسفر عنه من نتائج، قريبة أو بعيدة، وتصنيفها فى شكل قوانين حكمية، أو تعميمات، لكل من أوتى معرفة كافية بالتاريخ. وعلى هذا فان دعوى مكيافيللي الأساسية، تقوم على افتراض أن الأسباب المتماثلة تؤدى إلى نتائج مماثلة أيضاً على الصعيدين السياسى والطبيعي.

ويضع مكيافيللى فى هذا الموضوع قواعد عدة منها أن (الشيء نفسه قد يحدث لاناس مختلفين فى أحايين كثيرة) وأن (الناس الذين يخلقون فى نفس البلاد، يعرضون دائماً عبر القرون لنفس الخصائص) وأن (الأسر تحتفظ فى المدن بنفس العادات مدة طويلة). ويقيم مكيافيللى لكل من هذه النظريات الدليل الحكمى إلى حد ما، ويبدو جلياً مما يقوله أن طريقته تفترض وجود نظرية وجودية طاغية فى طبيعتها كقوله مثلاً (إن هناك رغبات وميولاً واحدة توجد لدى كل الشعوب فى كل زمان ومكان).

وعلى هذا يمكن ايضاح نظريته على النحو التالي: (إذا قارنا الحاضر بالماضى السحيق، ففى الإمكان أن نرى بسهولة فى جميع المدن ولدى مختلف الشعوب، نفس الرغبات والميول، التى كانت موجودة دائماً. وهكذا إذا درس الإنسان الماضى دراسة صحيحة، أمكنه أن يرى المستقبل بالنسبة إلى أية مجموعة بسهولة، وأن يطبق عليها نفس العلاج الذى استخدم قديماً، أما إذا لم يجد المرء علاجاً قد استعمل فى الماضي، أمكنه ابتكار علاج جديد بالنسبة إلى التشابه بين الأحداث.

وإذا شئنا تعميماً أكثر لايجاد قاعدة تشمل النسقين الطبيعى والسياسى قلنا أن ما عناه مكيافيللى هو أن هناك دائماً أسباباً ونتائج متماثلة.

وهذه هي بدهيته الثالثة التى توصل إليها: لكل أسباب متماثلة، نتائج متماثلة أيضاً. فالقول بأن الأسباب المتماثلة تؤدى إلى نتائج متماثلة، قد لا يكون صحيحاً، إذا لم تتوافر المزايا الأخري. فمن الواجب أخذ الظروف أو (الأوقات) بعين الاعتبار. وهكذا نجد مكيافيللى يقول: (اعتقد أن كل من يكيف إجراءاته وفقاً لطبيعة الزمن يلقى النجاح، وإن كل من لا يكيفها على هذا النحو يمنى بالفشل). وهكذا ففى إمكان الرجل المتأنى أحياناً الوصول إلى غايته، وقد يفشل فى ذلك فى ظروف أخري. ومن المحتمل أن يكون التهور قد نفع يوليوس الثاني، ولكنه من ناحية أخرى وفى ظروف ثانية، قد يؤدى إلى كارثة. وعلى نفس النحو، يمكن القول بأن (العلاجات التى كانت مجدية فى ظروف معينة) قد لا تكون مجدية فى ظروف أخري، إذ قد (تنعدم الأسباب التى كانت فعالة فى الظروف الأولي). وهذه الناحية مهمة للغاية، إذ أنها تحذر كل راغب فى (تحويل الحكومة) بأن عليه أن يحسب حساب من يحكمهم). ويقول مكيافيللى فى فصل آخر بصورة عامة أن (على كل راغب فى التمتع بحظ طويل طيب، أن يكيف نفسه للظروف والأوقات). وهكذا يمكن قراءة البدهية هذه على هذا النحو: (إن الأسباب المتماثلة فى ظروف متماثلة تؤدى إلى نتائج متماثلة).

ويمكن استكمالها بالبدهية الرابعة التالية: (إن الأسباب المتماثلة فى ظروف غير متماثلة، قد لا تؤدى إلى نتائج متماثلة).

يحذرنا مكيافيللى فى أكثر من مكان واحد، من أن القاعدة السابقة التى يقول فيها أن لكل أسباب متماثلة نتائج متماثلة، قد لا تكون صحيحة، وأن النتائج قد تقع فى طرق مختلفة ومتباينة. ولا ريب فى أن هذا القول هو الذى يجعل فى إمكان الحاكم أن يكيف نفسه للأوقات، وأن يؤدى اختياره للأفضل والأنسب من سبل السلوك المختلفة إلى حصوله على ما وضعه نصب عينيه. وهناك أيضاً نظريتان، يقول فيهما مكيافيللى بوضوح، ان فى الإمكان الوصول إلى نفس الغاية بطرق من السلوك،

قد تكون متعارضة أو متعاكسة. فهانيبال الذى اختلفت طرائقه عن طرائق شيبيو (الافريقي) تمام الاختلاف، أوقع فى إيطاليا نفس الآثار التى أوقعها الأخير فى إسبانيا، كما أن (قسوة مانليوس تورغواتوس)، وإنسانية فاليريوس كورفينوس (وكلاهما من أباطرة رومة الأقدمين)، حققتا لهما نفس الدرجة من الشهرة.

وهكذا يستخلص مكيافيللى بدهيته الخامسة وهى أن النتائج المتماثلة، قد تنتج عن أسباب مختلفة بل ومتعارضة.

فهو يتساءل مثلاً، عن الطرية التى تمكنت بها رومة من توسيع ممتلكاتها بينما فشلت اثينا وسبارطة فى ذلك تمام الفشل، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن رومة كانت تبدو أكثر اضطراباً وأسوأ حكماً من الآخريين. ولا يعود هذا فى رأيه إلى (أن رومة كانت فى وضع أفضل، بل إلى مجرد الاختلاف فى طرق الأجراء). فمن المفروض أن تكون المزايا الوضعية لكل من رومة واثينا وأسبارطة متماثلة. ولذا فانها ليست السبب فى نجاح رومة وفشل كل من اثينا واسبارطة. والمبدأ الأسلوبى الذى استخدمه مكيافيللى يشابه المبدأ الذى توصل إليه مل فى كتابه (أسلوب الاختلاف).

وهكذا يتوصل مكيافيللى إلى بدهيته السادسة وهى أن النتائج المختلفة لا تعود إلى نفس الأسباب.

وهناك بدهية أخرى يمكن استنباطها من الأسباب الخمسة التى عزا إليها مكيافيللى فشل الملك لويس الثانى عشر فى الاحتفاظ بممتلكاته فى إيطاليا، والتى أوضح بها أسباب انتصارات بورجيا المذهلة وسقوطه النهائى الذى عزاه إلى فشله فى الحيلولة دون انتخاب البابا يوليوس الثاني.

وإذا ما أخذنا هذين القولين معاً، توصلنا إلى بدهية مكيافيللى السابعة، وهى أن أية نتيجة معينة، قد تعود إلى مجموعة من الأسباب، وأنه إذا لم يوجد أحد هذه

الأسباب، انعدمت النتيجة.

ولا ريب فى أن الملاحظات التى جاء بها مكيافيللى بالنسبة إلى صعوبة الاختيار بين مختلف طرائق السلوك، تترابط ترابطاً وثيقاً مع تضارب الأسباب التى تعمل فى أى وضع معين، ومع التعقيد الناجم فى نتائجها. فهو يقول: (ان على الإنسان فى جميع مناقشاته أن يدرس أى سبيل ينطوى على أقل ما يمكن من المتاعب، وان يختار هذا السبيل على أنه أحسن السبل، إذ ليس فى مكنة الإنسان أن يجد مطلقاً أية قضية واضحة كل الوضوح، وغير معرضة للنقاش والجدل. والمبدأ هنا أسلوبى لا سببى ومع ذلك فهو متصل بما يقوله مكيافيللى عن الأسباب وعن أهمية اعتبار الظروف دائماً.

ولذا يمكننا هنا أن نضيف بدهيته الثامنة، وهى أنه فى ظروف معينة، تكون الأسباب الفعالة معقدة، ويستحيل معها القول بكل تأكيد، ما إذا كان أى عامل معين سيسيطر على النتيجة أولا، وخير ما يفعله الإنسان هو أن يحسب الاحتمالات كلها.

وليس من شأنى فى هذا البحث الحالى أن أبحث فيما إذا كانت البدهيات التى سردتها آنفاً صالحة للتطبيق على العلم الطبيعى أيضاً. ولقد قبل أن الافتراض القائل بأن النتائج المتماثلة يمكن أن تصدر عن اسباب متناقضة، يخلق بعض الأشكال، ولكن إذا كان ما يطلبه الإنسان ماء فى درجة حرارة معينة، فإن فى وسعه، بالتأكيد أن يأخذ فى درجة حرارية أقل منها، ثم يدفئه، أو فى درجة حرارية أكثر منها ثم يبرده. ومن المعقول على أى حال أن تكون هذه البدهيات صالحة للتطبيق بصورة رئيسية على العلاقة بين الأسباب والنتائج، على الصعيد السياسي، حيث يكون أحد الأسباب على سبيل الافتراض، وعلى الأقل، ناتجاً عن العمل البشري.

مفهوم مكيافيللى عن الفضيلة

هل كان مكيافيللي يعرف الفضيلة حقًا وهل يعرف مواصفات الانسان الفاضل؟

لقد تكرر ورود كلمتى (الفضيلة) و(الفاضل) فى كتابات مكيافيللي، أكثر من أية كلمة أخري، كما تعرضتا للكثير من النقاش الذى أدى إلى تائج متباينة أكثر من غيرهما. ولهذا فقد راعيت فى ترجمتى لمطارحات مكيافيللى إلى الانكليزية، أن أكون حريصاً أشد الحرص على استعمال هاتين الكلمتين حيث استعملهما هو، حتى ولو كان بالامكان الاستعاضة أحياناً عنهما بكلمات أخرى تكون أكثر انطباقاً على المعني. ولا ريب فى أن هذه الطريقة ستمكن القارئ من الحكم، من المحتوى الذى وردت فيه الكلمتان، على المعنى الذى أراد مكيافيللى أبرازه. ولا ريب فى أن فى وسع القارئ أن يقرر ما لا تعنيه هاتان الكلمتان عند استعمالهما، من تفهم الكلمات الأخرى التى تترابط معها، أو تتعارض. فهي لا تعنى مثلاً، الحكمة أو الخير، أو سلامة الحكم أو السلطان، كما لا تعنى مطلقاً حسن الطالع. ويبدو أنه يقصد بها دائماً (الكفاية) حتى ولو استعملها مع الجنود، حيث تؤدى كلمة (البسالة) المعنى بصورة أدق. وذلك لأن مكيافيللي، أو ليفى الذى سار على منواله فى استعمال هذه الكلمة، لا يصفان الجندى الناقص التدريب، أو السيء الكفاية، بالفضيلة، حتى ولو كان فى منتهى البسالة. ولكننى من الناحية الأخري، أعتقد أن الأستاذ هانكوك كان مغالياً جداً عندما قال أن مكيافيللى لا يعنى بكلمة (الفضيلة) إلا (التكنيك البسيط والمجرد)، على الرغم من شيوع هذا الرأي. ويقول تيلى فى كتابه (تاريخ القرون الوسطي)، أن مؤلف (الأمير) عنى بكلمة (الفضيلة)، لا الفضيلة فى حد ذاتها، بل البسالة، والمقدرة

والنجاح، وهى الصفات التى قدرها عصر النهضة كل التقدير. ولا ريب فى أن مثل هؤلاء المعلقين، كانوا على حق فى موافقة الأستاذ هانكوك فى ادعائه بأن اصطلاح (الفضيلة) لا يعنى فى العادة أى (معنى اخلاقي). ولا ريب فى أن مكيافيللى قد استخدم هذا التعبير على الصعيد السياسى المجرد. ولقد قلت أيضاً أن (الفضيلة) تعنى دائماً الكفاية، أو ما أسماه الأستاذ هانكوك (التكنيك)، على أن يكون من النوع الجيد. ولكن هل يطلق مكيافيللى على الجندى ذى الكفاية والشجاعة، صفة (الفاضل) إذا كان هذا الجندى يشترك فى الحرب ضد بلاده؟ وهل فى وسعنا أن نفهم، إنه كان يفكر تفكيراً مجرداً بالكفاية عندما قال فى الفصل السادس عشر من كتابه الثالث من المطارحات أن (الفضيلة الأصلية حسابها فى الأوقات الصعبة بالنسبة إلى الناخبين ولكن فى أوقات السلام، جرت العادة على إهمال عدد كبير من الرجال العظماء والبارزين)؟ لا أعتقد هذا. فهو يقول فى كتابه (فن الحرب) (إن كل مواطن يزاول مهنة الحرب لهدف خارجي، لا يكون مواطناً صالحاً، إذ أن عليه أن يخدم بلاده لأنها فى حاجة إليه وأن يحارب فى سبيل المجد). وكان كوزيمو روسلتى مواطناً صالحاً فى نظره لأنه (لا يتخلى عن أى مشروع يعتقد أن فيه الخير لبلاده). ويقول فابريزيو، فى المطارحات، رداً على سؤال لكوزيمو، عن السبيل إلى تقليد رومة: (إن هذا يكون فى تخصيص المكافآت والأوسمة للفضلاء)، ثم يمضى فى شرح ما يعنيه فيقول: (أى فى عدم ازدراء الفقر، وفى إجلال الإجراءات والمنظمات التى تخدم الانضباط العسكري، وفى الايحاء للمواطنين بروح الزمالة، والابتعاد عن الحزازات. ايثار المرء لشئونه الخاصة على القضايا العامة)، ويقول فى مكان فى المطارحات، إنه (فى أيام الحروب، كانت رومة، تفيد من خدمة جميع أبنائها، سواء أكانوا من النبلاء أو

غير النبلاء، وهكذا كان يتوافر فى رومة، فى كل حقبة، عدد كبير من الرجال الأفاضل، الذين حققوا الانتصارات، ولم يكن الشعب فى حاجة إلى التشكك فيهم أو القلق عليهم بالنظر إلى وفرة عددهم). ويمضى فيقول: (وهكذا فإن المرشحين للمناصب كانوا حريصين أشد الحرص على الحفاظ على نزاهتهم، ويجدون لتجنب كل مظاهر الطموح، مخافة أن يتعرضوا لقدح الجماهير على أنهم من الطموحين). وهكذا فقد عنى الرومان بكلمة (الفضيلة) كل خصلة من الخصال، التى يناسب الإنسان التحلى بها. ولم تكن تعنى صفة الإنسان الشخصية فقط ومقدرته، بل تكريسه نفسه للدولة، وكفايته فى أداء واجبه، وهو أمر له أهميته القصوى فى حياة السياسى والقائد على حد سواء. ولكن الرجل، فى المفهوم الروماني، ليس إلا مواطناً عليه واجباته تجاه المجموعة التى يعيش بينها، وما لم يؤد هذه الواجبات خير الأداء. فهو ليس بالرجل الفاضل فى رأى الرومان أو ليفى أو مكيافيللي.

وليس فى وسع كل من يقرأ المطارحات، أن ينكر أن فضيلة أى مواطن هى فى تكريسه نفسه للصالح العام. ومن الواجب أن تفهم (الفضيلة) على هذا الصعيد، حتى ولو كانت تعنى أحياناً كما يستعملها مكيافيللى الكفاية. وقد تكون هناك مصاعب وشواذ. فهو مثلاً يقول (ولم يكن للبندقية من الفضيلة ما يكفيها من التسلح لمقاومة أعدائها)، وهو هنا لا يعنى أن أهل البندقية لم يكونوا يقدرون مصالح مدينتهم، بل إن المدينة نفسها لم تكن على جانب كبير من القوة. وليست القضية هنا مسألة تكريس للواجب أو للمصلحة العامة، وإنما قضية طبيعية الجيش البندقى وقوته. وهناك حالة واحدة على الأقل، لا يعنى مكيافيللى بالفضيلة فيها، الصالح العام مطلقاً، وذلك عندما يعزو نجاة

سيفيروس من الاغتيال إلى حسن طالعه وإلى فضيلته أيضاً، إذ أنه في مكان آخر يقول أن سيفيروس كان ظلاً ما لشعبه، مكروهاً من أفراده لقسوته. ومع ذلك فهو يصفه (بالفضيلة العظمى) لأنه تمكن من كسب محبة جنوده، ومن النجاح في حكمه. وهو يصف قيصر بورجيا أيضاً بأنه أمير ارتقى اريكة السلطان لتأثير فضائله العظمى وليست هذه الفضائل إلا الكفاية والمقدرة، فهو إنسان فاضل على الرغم من عنفه لأنه يوجه هذا العنف إلى نبلاء رومانيا لا إلى أفراد شعبه الذين حفظوا له الجميل، فتمهلوا شهراً بعد سقوطه، قبل الاذعان لسيطرة يوليوس الثاني. وقد حافظ سيفيريوس على وحدة الامبراطورية أيضاً، وعلى هذا يمكن اعتبار حكمه موجهاً للصالح العام بقدر ما هو موجه لمصلحته.

مكيافيللي والصراع بين الفضيلتين السياسية والأدبية

هل كان مكيافيللي يجد صراعًا ما بين الفضيلتين السياسية والأدبية؟!

يثير مكيافيللى موضوع الصراع بين الفضائل السياسية والأدبية، فى كتابه (الأمير) لأول مرة، عندما يتحدث عن الأمراء، مطرياً فضائلهم كالكرم والرأفة والصدق، ثم يمضى فيتحدث عن أوضاع الحياة التى تجعل من المتعذر على الأمير ممارسة هذه الفضائل فى جميع الظروف والأحوال، هذا إذا رغب فى الإحساس بالأمن والسلامة. وعلى هذا فإن على الأمير أن يتعلم (كيف يسيء أحيانا) و(كيف يتجنب الملامة إذا أساء)، إذ أن عدم تجنبها قد يأتى له بالكوارث. فمن وجهة نظر السياسة، قد لا يكون (ما يبدو فضيلة)، دائماً من الفضائل، بالنظر إلى أن مزاولتها (قد تجلب الدمار)، وأن (ما قد يبدو رذيلة)، قد لا يكون دائماً وفى جميع الظروف من الرذائل السياسية ذلك لأنها (تضمن الأمن والنجاح).

ويحاول مكيافيللى فى مكان آخر من (أميره) شرح هذا المذهب بصورة أكثر تفصيلاً مشيراً إلى الحفاظ على العهود والمعاهدات. وهنا يرى أن ليس فى وسع الأمير دائماً أن يفعل ما ينتظره الناس منه، أى أن يكون (رؤوفاً وصادقاً، ورحيما ومتديناً ومستقيماً) ولا سيما إذا كان حديث عهد بالإمارة. وعلى هذا فإن على الأمير (دون أن ينحرف عن طريق الخير ما دام فى استطاعته المضى فيه، أن يكون من الذكاء بحيث يلجأ إلى السبل الشريرة، عندما ترغمه الضرورة على ذلك) على أن يحرص كل الحرص على التظاهر بالتحلى بهذه الخصال الخمس ولا سيما خصلة التدين منها. وفى وسعه تحقيق ذلك بسهولة إذ أن (أى إنسان يلاحظ ما أنت عليه ليس إلا، بينما لا يعرف حقيقتك إلا القليلون، وهكذا فما دمت ناجحاً فإن الناس سيرون فى الوسائل التى تتبعها نبلا وشرفاً وسيطريك كل إنسان)،

بينما لا يجرؤ القليلون الذين يعرفون حقيقة ما تفعله على معارضة رأى الأغلبية.

ويرى بيرد أن فى الإمكان تلخيص مذهب مكيافيللى بوضوح فى أن طريقة حكم الشعوب والجماعات تختلف عن طريقة حكم الأفراد، وتقوم نقاط الخلاف الرئيسية فى الحفاظ على العهود والمعاهدات بصورة عامة أولاً، إجراءات الأمن التي يجب أن يتخذها كل عهد جديد سواء أكان ملكياً أو جمهورياً ثانياً، الدين ثالثاً. وأرى لزاماً على معالجة كل نقطة من هذه النقاط على انفراد، قبل درس المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه مذهب مكيافيللي. ومن الواجب القول على أى حال، بأن مكيافيللى لا يزعم، أن القواعد التى تنطبق على سلوك الأفراد، لا يمكن تطبيقها بصورة عامة على الحكام والمحكومين. وكل ما يدعيه، هو أنه على الرغم من وجوب التقيد عامة بهذه القواعد، إلا أن ثمة أوضاعاً وظروفاً لا تكون فيها هذه القواعد صالحة للتطبيق، ومن الواجب اهمالها فيها، وهى ظروف وأوضاع كانت شائعة تمام الشيوع فى عصره. وهو يقيم الدليل على رأيه هذا مستشهداً بالأمثلة التى أرى أن أحصر نفسى فى بحثها فى كل نقد أتوخاه.

ويقع النكث بالعهود والمعاهدات، ضمن ما يدعوه مكيافيللى (بالدهاء) و(الحيلة). وعكس الخداع فى رأيه هى الاستقامة، ولكن العالم على ما يراه هو، قد خلق بصورة لا يستطيع أى حاكم فيه، أن يمضى فى عمله، إلا إذا كان اسداً وذئباً فى وقت واحد، أى أن يستخدم القوة والحيلة، وفقاً لمقتضيات الظروف والأوضاع. ولا ريب فى أن مكيافيللى قد استوحى مذهبه هذا من شيشرون الذى قال: (أن من يتشبه بالأسد دائماً لا يدرى ما يفعله. فليس من واجب الحاكم العاقل، أن يحافظ على اتفاقاته، إذا كان الحفاظ عليها يؤدى إلى الأضرار به، أو إذا كانت الأسباب التى دفعته إلى عقدها، لم تعد صالحة وقائمة).

ولو استخدم مكيافيللى عبارة (الحيلة) وحدها، ليعنى بها التحلل من المعاهدات

على أساس تقنى ليس إلا، لما كان هناك استثناء ضخم لما يقوله. ولكنه يعنى أكثر من هذا، فهو يرى أن يتظاهر المرء بالتمسك بالقانون بحرفيته بينما يتلاعب بمعانيه وأهدافه. وينطبق هذا القول بالطبع على المعاهدات والاتفاقات والعقود. إذ أنه يقول: (ولن يعدم الأمير أبداً وسائل قانونية مشروعة يتخذ منها مبرراً لتجاهله للقانون). ولقد سار الرومان على هذا المنوال دائماً وحققوا على طريقه الكثير من المنافع. وكان هذا هو الأسلوب الذى ساروا عليه دائماً فى شن الحروب على الدول القوية التى تحترم قداسة المعاهدات. وهو يقول فى مطارحاته (فإذا أردت مثلاً أن أشن الحرب على أى أمير، وكانت بينى وبينه معاهدة يحترم كلانا نصوصها منذ أمد ما، فانى أبحث بدلاً عن مهاجمته عن مبرر أو سبب آخر لمهاجمة أحد حلفائه، مع إدراكى التام بأن هجومى على هذا الحليف، سيؤدى إما إلى غضبه هو، وهذا ما أتوخاه، إذ تصبح الحرب محتومة، أو إلى تحايله، مما يظهر ضعفه وعدم الركون إليه). وهكذا يمكن الحفاظ على المعاهدة من الناحية التقنية، إذ أن الحرب لا تشن على أحد الفريقين المتعاقدين وإنما على حليف أحدهما، ولكن هدف هذه المعاهدة قد تحطم، إذ أن الغاية منها هى منع الحرب. ولا ريب فى أن أقوال مكيافيللى هذه تشرح معنى (الحيلة) عنده، عندما يستخدمها فى معناها التقني، كما تشرح معنى الدهاء، إذ يتطلب العثور على المنفذ القانونى الكثير من الحصافة. ولكن هذا ليس، مع الأسف، الميدان الوحيد الذى يستعمل فيه تعبيره عن (الحيلة)، إذ يعنى بها أحياناً خرق المعاهدات والعهود عن سابق إصرار وتصميم، أو إتباع سبل الخداع الواضحة.

ويلفت غويكاردينى انتباهنا إلى هذا الغموض فى الكتاب الذى وضعه فيقول أن مكيافيللى يذكر أن (الناس يرتقون من خفيض المراكز إلى رفيعها عن طريق الحيلة لا عن طريق القوة، ولو كان يعنى بالحيلة فناً من فنون المداهنة والرياء، الذى لا ينطوى على الغش، كسلوك بروتوس مثلاً، فإن هذا الاستنتاج

الذى توصل إليه يكون صحيحاً.. أما إذا كان يعنى بالحيلة معناها الصحيح، أى خرق العهود أو أى إجراء مخادع آخر، فاننى أرى أن كثيرين قد أقاموا لهم ممالك ضخمة وامبراطوريات دون اللجوء إلى الحيلة كالإسكندر الأكبر وقيصر). وأشار غويكاردينى بعد ذلك إلى أن الرومان لم يلجأوا إلى الحيلة فى تعاملهم مع اللاتينيين وإنما إلى الحذر والفطنة وانتهى إلى القول: أما بالنسبة إلى الحيلة، فإن من المشكوك فيه أن تكون وسيلة صالحة للوصول إلى العظمة، إذ على الرغم من أن الخديعة قد تؤدى إلى كثير من الضربات الصائبة، إلا أن الاشتهار بها يؤدى دائماً إلى حرمان المرء من فرصة تحقيق غاياته). ولا ريب فى أن هذا النقد يلتقى مع مكيافيللى تماماً، فالحيلة فى مثل هذه الحالات لا تكون (مصلحة)، إذ أنها تؤدى إلى إلحاق الضرر بالغايات المتوخاة منها.

ولم يحاول غويكاردينى تبرير مكيافيللي. كما حاول الكثيرون غيره، على اعتبار أن جميع من كانوا يحتلون المراكز الرفيعة فى تلك الأيام، كانوا ينكثون عهودهم، وهذه فكرة قال بها بيرد الذى ذكر (أن الصدق فى الشئون العامة فكرة حديثة طارئة، لم يكن يفكر بها أحد فى أيام مكيافيللي، إذ لم يكن ثمة ضمير وطنى أو دولي). ولكن هذا القول بعيد عن الصحة تماماً، بل أبعد من كل قول سواه. إذ يقود فكرة الصدق فى الشئون العامة، إلى أيام الرومان، وقد استخدموها مع الشعوب التى كانوا يتعاملون معها، وكانت تثير الاحتجاج والسخط إذا ما نقضت على حد تعبير مكيافيللى نفسه. وقد عاشت الفكرة طيلة العصور الوسطى وأشار إليها القديس وما وغيره من الكتاب الذين أصروا على قوة رابطها الضميري. ولا ريب فى أن جميع الأمراء الذين عاشوا فى عهد مكيافيللي، كانوا يعرفون هذا الرابط، إذ أنهم عندما كانوا يفكرون فى التحلل منه، كانوا يسعون إلى ايجاد المبررات على أساس ما ذكره مكيافيللى من أن العهود التى يرغم الإنسان على الارتباط بها لا

تكون ملزمة، أو أن الظروف قد تبدلت. وكان بعضهم يلجأ إلى وسائل أخرى كالطلب إلى البابا تحليلهم من ارتباطاتهم كما فعل فرنسوا الأول، أو دعوة المجمع العام لاستشارته كما فعل لويس الثانى عشر فى (تور)، أو استشارة ضمير الشعب عن طريق الجماعات كما فعل نرى الثامن قبل طلاقه من الملكة كاترين الإسبانية. ولا ريب فى أن قول بيرد، لا يكتفى بالخروج على الحقيقة. بل إنه يعكس آراء مكيافيللى تماماً. فلقد كان مكيافيللى واعياً كل الوعى لوجود الضمير بين شعوب عصره. مما يتطلب من الأمراء التمسك بأهداب القوانين الأخلاقية وهذا ما حمله دائماً على تحذيرهم من أنهم إذا أرادوا العمل خلافاً لهذه القوانين، فعليهم أن يتظاهروا أمام شعوبهم بأنهم لم يفعلوا ذلك.

ولا ريب فى أن مكيافيللى صادق على الأقل فى دفاعه عن الحيلة. فهو يعترف أن المثل الأخلاقية تحرمها، ولكنه يقول بأن ثمة ظروفاً، تعرض الأمير للخراب إذا تمسك بأهداب هذه المثل. ويقدم تأييداً لهذا الرأى مثلاً واحداً لا أكثر إذ يقول: (وفى وسعى أن أقدم عدداً ضخماً من الأمثلة العصرية الحية التى تظهر كيف أن خداع الأمراء أدى إلى نقض عدد من المعاهدات والمواثيق وجعلها لاغية، وكيف أن البارعين فى الأساليب الثعلبية الماكرة كانوا أكثر نجاحاً فى ذلك). ولعل أحسن مثل يقدمه مكيافيللى هو فرديناند ملك الاراغون الذى يقول عنه (أنه لا يدعو إلا إلى السلام والصدق، مع عدائه الجم لهما، ومع العلم بأنه لو تمسك بهما، لفقد سمعته وملكه منذ أمد طويل). وعندما قيل لهذا الملك أن لويس الثانى عشر يشكو من أنه قد خدعه مرتين، أجاب قائلاً: (قل للملك أنه كاذب، فلقد خدعته عشر مرات على الأقل).

ونصل الآن إلى ناحية أخلاقية ثابتة وهى (التخلص من المنافسين بافنائهم). ويطلق عليها مكيافيللى اسم (الرعب)، وهو ما يتسامح به مكيافيللى إذا كان لا بد منه للحفاظ على أمن الإنسان وسلامه. وهو يعنى به تماماً ما فعله اغاثوكليس

عندما قتل جميع أعضاء مجلس الشيوخ فى سراقوزه وأغنى أفراد شعبه. وما فعله أوليفوروتو دافيرمو الذى قتل عمه وجميع كبراء فيرمونى فى وليمة أقامها، أو ما فعله قيصر بورجيا، الذى أغرى جميع ضباطه الذين كانوا قد ثاروا عليه، بالمجيء إلى سنيغاغليا بعد أن صالحهم، حيث قتلهم عن بكرة أبيهم. ويزعم مكيافيللى أن هذه الأساليب كانت ناجحة، ولكنه يتغاضي. فلا يذكر لنا أن اغاثوكليس اضطر فى أيام شيخوخته إلى ارسال زوجته وأطفاله إلى مصر مخافة أن يقتلهم حفيده الذى كان الشيخ قد قتل أباه، وأن قيصر بورجيا بعد سنة واحدة من حادثة سينغاغليا، نقل أسيراً من أوستيا إلى رومة حيث صودرت ممتلكاته، وانتهت حياته السياسية، وأن اوليفوروتو بعد أن قتل عمه قتل فى العام التالي، وهي نتائج لا يمكن أن تكون مشجعة للحكام الذين يؤيدون فكرة بث الرعب فى القلوب.

ويعود مكيافيللى إلى البحث فى موضوع (الأمن) فى ظل نظام جديد فى (مطارحاته)، التى تشرح تماماً ما يعنيه غوليكاردينى عندما يشكو كما يفعل دائماً، من ميل مكيافيللى إلى إصدار التعميمات وتجاهل الاستثناءات المهمة. كقوله: (أن الأمير لا يستطيع العيش بأمان فى أمارته، طالما أن أولئك الذين سلبهم إياهم لا يزالون أحياء). أو قوله: (أن الحفاظ على الحرية عندما تكون حديثة عهد بالوقوع، يستلزم قتل (أولاد بروتس)). وهو يستشهد فى إقامة الدليل على صحة قوله الثاني، بالحادث الذى وقع لبروتوس، عندما انضم أولاده إلى العدو الذى تحاربه رومة. فوقعوا فى الأسر واعدموا بموافقة أبيهم. ولا ريب فى أن هذه القضية لا تخرج عن الخيانة، وعقوبتها الأعدام حتماً. وهو يعنى بأولاد بروتوس، كل من يتآمر على بلده، وايقاع عقوبة الموت بالخونة.

أما بالنسبة إلى النظرية الأولي، فهو يورد حادثتين لاقامة الدليل على صحتها، مستقياً إياهما من تاريخ ليفي. وتقول رواية ليفى التاريخية أن تاركوينيوس

بريسكوس، الذى اختير وصياً على ابناء (انكوس) اغتصب منهم العرش، وسرعان ما أيده الشعب الرومانى فى عمله. وكان من واجبه، على رأى مكيافيللي، أن يقتل أولاد انكوس الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لاستعادة عرشهم فقتلوه. وأصبح أبناء تاركوينوس بريسكوس هم الورثاء الشرعيين للعرش، وبدلاً من أن يقوم سيرفيوس توليوس الذى اغتصب الملك بتأييد مجلس الشيوخ لا بموافقة الشعب، بقتلهم على رأى مكيافيللي، زوجهم إلى بناته، بينما كان عليه أن يقتلهم. وليس الموضوع هنا قضية غاية طيبة أو إجراء انضباطي، يتخذ ضد المتآمرين. فالملكان من المتآمرين، وما يوصى به مكيافيللى ببساطة وجلاء هو القتل. وقد يدافع مكيافيللى عن نفسه قائلاً (أنا لا أوصى بالقتل، وأنا أحمل على اغتصاب الملك كما تحملون. ولكننى أبحث فى الطرق والوسائل من وجهة نظر موضوعية مجردة). إن مكيافيللى لا يدافع عن القتل بالجملة، وإنما يقول أن هناك حالات، تبرر للحكام قتل منافسيهم ولا سيما عند إقامة ممالك جديدة.

فقتل (أبناء بروتوس) والحالة هذه لا يعنى مجرد إعدام الخونة الذين ثبتت أدانتهم بالخيانة، وإنما يعنى قتل كل من يشكل وجوده خطراً على نظام حكم جديد. وهذا ما عناه مكيافيللى تماماً. فهو واثق من أن جنون الحكم من القوة بحيث يدفع صاحبه إلى عمل كل شيء، قد يبدو فى شكل مؤامرة، فإذا قدر للمؤامرة أن تفشل، فستولد لدى الباقين من إخوان المتآمرين أو أبنائهم أو مؤيديهم، رغبة عارمة فى الثأر، مما يجعل من المستحيل على الحاكم أن يشعر بالأمن والطمأنينة طالما هم على قيد الحياة، وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على أولئك الذين يأخذون على عاتقهم حكم الجماهير سواء فى إمارة أو فى دولة حرة، والذين يعرضون حكومتهم، إذا تقاعسوا عن تأمين أنفسهم ضد أعداء العهد الجديد، إلى قصر الأجل. ويقول مكيافيللى أيضاً أن الحكام الجدد، إذا وجدوا الشعب معادياً للنظام، فإن خير ما يفعلونه

هو أن يحاولوا كسب الشعب عن طريق السماح له (بالثأر لنفسه من أولئك الذين كانوا سبباً فى عبوديته).

ولم يكن المتدينون من المسيحيين وحدهم، الذين أعربوا عن دهشتهم وسخطهم على هذه الآراء التى دعا مكيافيللى إلى تبنيها وعلى هذه الأساليب الوحشية التى رآها لإقامة نظام حكم جديد. فلقد اعتمد مكيافيللى على الماضى البعيد فى الأمثلة التى استشهد بها. ومع ذلك، فإن هذه الأساليب لم تكن ناجحة كل النجاح فى الماضي. يضاف إلى هذا إن هذه الأساليب لا تتفق مطلقاً مع السلوك الذى سلكه هو نحو الثائرين المهزومين، مما يحمل المرء على الظن بأن هناك رجلين يحملان اسم مكيافيللي، أحدهما السياسى الفلورنسى الرؤوف، والثانى دارس التاريخ الغارق فى أقاصيصه القديمة، والذى فقد كل ما لديه من إحساس فى استكشاف المرئيات، فآثر أساليب البربرة على الأساليب المتبعة فى عصره المتحضر.

ولا أرى لى حاجة إلى القول، بأن ما يدعو إليه مكيافيللى فى ما سبق بسطه من رأي، يتناقض تناقضاً صارخاً مع المبادئ الأخلاقية والمسيحية على حد سواء. فهو لا يوصى بما أوصى به إلا كشيء يمت إلى المصلحة ليس إلا. ولكن هل ثبت نفعه يا ترى؟ أن مكيافيللى نفسه يعترف بأن طريق الرعب محفوف بالاشواك والمتاعب. فالعنف يولد العنف، وهذا يهزم الغاية المتوخاة منه، ويؤدى الاستمرار فى استخدامه حتماً إلى تحول جماهير الشعب إلى العبودية أو إلى ما يدعوه مكيافيللي (بالفساد). ويظل هناك مع ذلك أناس يمثلون دائماً دور الحمقى كبروتوس، مثلاً، الذى يتظاهر بالخنوع، بينما ينتظر فى الحقيقة سنوح الفرصة للانقلاب على الحكم الاستبدادى الذى يكرهه ويزدريه، ويؤدى هذا بدوره إلى إجراءات تعسفية أخري، وإلى مزيد من السخط بين أقارب أولئك الذين عانوا من الاستبداد وأصدقائهم، والذين يعيش الكثيرون منهم فى [illegible] تواقين إلى

شن الحرب على النظام الذى يبغضونه. ويعى مكيافيللى جميع هذه المصاعب تمام الوعي. ولولا هذا الوعي، لما أدرك أنه فى توصيته (بأن يوجه الأذى كله فى ضربة واحدة، وأن لا يستمر الحاكم فيه إلا إذا كان لمصلحة رعاياه). ينادى بسبيل لا يمكن لانصار الحرية ومحبيها اتباعه. كان من الضرورى التزام سبيل الاعتدال، وعدم اتخاذ إجراءات لمجرد الاشتباه، والتسامح حتى مع أولئك الذين ايدوا العهد السابق شريطة أن لا يجهروا بعدائهم للعهد الجديد، نرى مكيافيللى لا يؤمن بالسبيل الوسط فى أى نظام جديد. فهو يرى أن سوديرينى قد فشل وأن فلورنسة لحق بها الدمار، وأن مصير كل عهد يتبع أساليب سوديرينى إلى الزوال.

ويبدو لى أن هذه النتيجة التى توصل إليها من قضية واحدة من قضايا الفشل، ليست صحيحة. فهو لم يتعمق فى درس النتائج. ولقد فشل مكيافيللى خاصة فى تفهم ما يمكن أن يؤدى إليه حكم قوى إذا لجأ إلى أساليب معتدلة، شريطة أن لا يسمح بالمنازعات والأحزاب، ولكنه مع ذلك أدرك أن (عصوراً ذهبية)، قد مرت بالعالم، وتمتع فيها كل إنسان بحرية الرأى والدفاع عنه. يضاف إلى هذا أن ثمة اعتبارات أخرى فى عصرنا يجب أن لا يسقطها الإنسان من حسابه، فقد اقترب العالم من بعضه بشكل لم يعهده العصر الذى كتب فيه مكيافيللى مؤلفاته. وقد أثار نهب رومة ودمارها فى عام ١٥٢٧ موجة عارمة من السخط لدى جميع الشعوب الأوروبية، ولكنه لم يدفع أياً من الدول الأوروبية إلى اتخاذ أى إجراء ضد أولئك المسئولين عنه. وأدى عهد الإرهاب الذى أقيم إبان الثورة الفرنسية من الناحية الأخري، لا إلى الفشل فى استئصال شأفة مؤيدى العهد البائد فحسب، بل إلى خلق سخط عام لدى الشعوب الأوروبية حمل أولئك الذين أيدوا الثورة فى بدايتها على الانقلاب عليها حرصاً على سلامتهم، مما أسفر نهائياً عن هزيمة فرنسا فى معركة واترلو. ولا حاجة بنا إلى الاتيان بمزيد من

الاستشهادات العصرية، ولكن علينا أن نفكر بهذه الاستشهادات قبل أن نصدر الحكم على النظرية القائلة بأن الاخلاق والمصلحة فى السياسة لا يتفقان.

ونصل الآن إلى موقف مكيافيللى من الدين. فهو يظهر من الناحية الأولي، المزيد من الاحترام له، ويصر الفينة تلو الفينة، على أن أية دولة لا تستطيع ضمان أمنها إلا إذا اعتمدت على الدين وشجعته، ولكنه يعالج من الناحية الأولى وفى فصول خمسة من مطارحاته قضية الدين وكأنه يعتبره من الناحية السياسية، مجرد أداة يمكن للدولة استخدامها لاقناع الجماهير بعمل ما تريده هى منهم. ويقوم تفصيله الواضح جداً لديانة رومة القديمة على الحقيقة الواقعة وهى أنه كان من السهل فرض الإشراف على هذه الديانة واستخدامها، وأن فى الإمكان بالنسبة إلى النبوءات والإيمان، وضع تفسيرات تنفع الغاية الدنيوية المتوخاة، ومعظم ملاحظاته عن الديانة التى نشأ عليها، ملأى بالنقد، ولكنها انتقادات موجهة على الغالب إلى سياسة البابوات السياسية، وإلى الرذائل المستشرية فى البلاط البابوي، وبين كبار رجال الدين. ولم تكن هذه الرذائل فى رأيه مؤثرة على تعاليم الكنيسة، ومضعفة إياها، فحسب، بل كانت مسببة لفضائح، بدت له وكأنها ستنزل اللعنة بالنصرانية، وهذا ما حدث فعلاً عند قيام لوثر. وعندما يتحدث عن روحية الرهبنات الدينية يقرن حديثه بالاحترام. ولا يرى فى التعاليم والإجراءات إلا خطأين يشير إليهما، يتعلق أحدهما بالطقوس والثانى بالعقيدة.

ففى الكتاب الثانى من (مطارحاته)، يتحدث مكيافيللى عن الطقوس المسيحية، فيصفها بأنها (ناعمة لا آسرة) وذلك إذا ما قورنت بالطقوس الوثنية التى لم تكن تقتصر على (الفخامة والجلال فحسب) بل تتعداهما إلى سفك الدماء المزيد من القسوة والتضحية بأعداد كبيرة من الحيوانات. وليس من الممكن أن يكون مكيافيللى مشيراً فى حديثه هذا إلى طقوس رومة فى عهد الجمهورية، إذ

أن هذه الطقوس لم تكن تعرف الدم كثيراً، وإنما كانت تقتصر على الفخامة والزخرفة. ولا بد أنه عندما كتب ما كتبه كان يفكر بالطقوس الشرقية التي انتشرت في عهد الرومان والتي كان من مظاهرها (حمام الدم) الذي اشتهر أمره. وأرى من الصعب على أن اتصور فلورنسيا مثقفاً كمكيافيللي يعرب عن تمتعه (بحمام الدم). كما أنه لو كان الهدف من الدين الحث على سفك الدماء والتعطش إليها، فليس ثمة ما يمكن أن يقال، سوى أن هذا الدين مهزلة ليس إلا. وأرى أننا، إذا كنا سنحذو حذو رومة، على أي حال، وهذا ما لا أتمناه، فعلينا أن ندرس أولاً، حقيقة ما كانت رومة تفعله، وإذا كنا نريد أن نأخذ من النتائج أمثلة، فعلينا قبل أن نضع استنباطاتنا أن ندرك حقيقة هذه النتائج، ولو صحت الروايات التي نقلت عن طريقة قيام الدين في رومة، لتبين أنه استهدف السيطرة على الغرائز لا أثارتها، وهذا ما ينطبق على مفاهيم الديانة المسيحية.

وتنصب شكوى مكيافيللي الثانية من الدين على (أن ديانتنا قد مجدت الوضيعين والخياليين من الناس، لا الرجال الفعالين العاملين، ووضعت للرجل مثله العليا في التواضع وانكار الذات والترفع عن شئون الدنيا، بينما جعلت الوثنية المثل العليا محصورة في العظمة والقوة وكل ما يشجع الإنسان على الجرأة والشجاعة). ويمضي فيقول إنه على الرغم من أن الدين يسمح للناس بتمجيد أوطانهم والدفاع عنها وهذا يتطلب منهم تدريب أنفسهم واعدادها للدفاع، إلا أن هذا العامل في التربية الدينية، أهمل إهمالاً مؤسفاً، مما أدى إلى استخذاء الناس للأوضاع الراهنة وإلى اختفاء تعشق الحرية.

وأرى أن أكتفي هنا بالقول، بأنه في الأوقات التي يتحدث عنها مكيافيللي كان تشجيع الشعب على الثورة ضد حكامه الطغاة أمراً يكفي لتعريض صاحبه إلى القتل والمذابح. ولا ريب في أن السياسة التي اتبعها البابا يوليوس الثاني كانت

أكثر واقعية وإنسانية. إذ مارس صلاحياته كسيد أعلى على طغاة المقاطعات البابوية (رومانا) فطردهم، وعين بدلاً منهم حكاماً أمل فى أن يحكموا المدن حكماً أفضل.

ومن الواجب أن أتحدث هنا بعض الشيء عن وثنية مكيافيللي، التى كثيراً ما كتب عنها، ولا أرى أفضل فى هذا المجال، من البدء باقتباس ما قاله عنها فيلارى فى كتابه (حياة وعصر نيقولا مكيافيللي). وذلك لأن هذا الكاتب عرف كتابات مكيافيللى وعصره معرفة وثيقة، قال فيلاري: (إذا كان معاصرو مكيافيللى وثنيين فى القضايا السياسية، فقد كان مكيافيللى نفسه أكثر وثنية منهم، وهذا ما تقيم الدليل عليه، كل صفحة من صفحات كتبه. فهو شديد الإعجاب إلى حسد لا يوصف بالعهود الغابرة، وهو لا يبدو كثير التمسك بالدين، أما كراهيته للبابوية فواضحة كل الوضوح، وتظهر وثنيته عندما يتحدث عن المسيحية، ولا سيما عندما يحاول مقارنتها بالوثنية، كما تبدو فى العبارات الخاصة التى كان كثيراً ما يستخدمها، والتى كانت تعكس طريقة تفكيره بوضوح بارز. فهو يستخدم مثلاً كلمة (الفضيلة) لتعنى الشجاعة والحيوية سواء فى طريق الخير أو طريق الشر. وكان يستعمل كلمة (الطيبة) عندما يتحدث عن معانى الفضيلة المسيحية، ولم يكن معجباً بها كإعجابه بالفضيلة الوثنية التى هى دائماً مصدر من مصادر المجد، ورأى أن الناس يقدرون المجد أكثر من أى شيء آخر فى العالم، وذلك لأن فى المجد خلودهم وتشببهم بالآلهة. ويقول أيضاً أن الناس يؤثرون السمعة السيئة على أن يكونوا مغمورين عائشين فى زوايا النسيان، وذلك لأن السمعة السيئة تنقل أسماءهم إلى ذراريهم. وكان يعجب كل الإعجاب بما إطراه جينو كابونى من ثناء (على أولئك الذين أحبوا بلادهم أكثر من حبهم لسلامة أرواحهم)، ويكرر قوله الذى كان شائعاً فى عهده كل الشيوع كثيراً. ولا ريب فى أن ما قاله فيلارى صحيح كل الصحة، فلقد سيطرت الروح الوثنية على آرائه فى السياسة

والحرب والدين كما أثرت على حياته الشخصية أيضاً. وليس ثمة مجال للشك في هذا مطلقاً. أما إذا سأل سائل، إلى أى مدى تمكنت هذه الوثنية من حمله على التخلى عن الديانة التى نشأ عليها، فهذا أمر آخر، ليس من السهل الرد عليه.

ومن المؤكد أن مكيافيللى أعجب بديانة رومة القديمة أكثر من الديانات الأخري، ولم ينشأ إعجابه هذا عن مجرد الاعتقاد باستحالة بقاء الدولة بلا ديانة لها، بل عن كون الديانة الرومانية من النوع الذى يستطيع الساسة استخدامه لتحقيق غاياتهم السياسية، أما الديانة المسيحية، فلم تنشأ من ابتكار الساسة، وكانت تدعى لا مجرد الاستقلال عن الدولة، بل تفوقها عليها أيضاً، كما وضعت لنفسها قواعد عقائدية محدودة لم يكن من السهل تكييفها لتنسجم مع الأهداف السياسية. ومع أن مكيافيللى يعرف عن أسفه لهذا، إلا أنه من الناحية الأخري، لا يكفر بالعقائد التى تنطوى عليها المسيحية، ولا يوجه إلى الكنيسة تهمة الخطأ. والأمر بسيط، فهو لا يتفق فى روحيته مع المسيحية لأنهذه تبشر بالسلام، وهو يرى أن حروب الفتح وبناء الامبراطوريات، هما أكثر ما تستطيع الشعوب أداءه لتمجيدها، ولا ريب فى أن وثنيته كانت عميقة الجذور إلى الحد الذى لم يدرك فيه أن هذه العقيدة التى ينادى بها، لا تتفق مطلقاً مع العقائد الأخري، غير المتأصلة فى نفسه والتى يدافع عنها، كحق الناس فى الحرية، وحق الشعوب فى تقرير شكل الحكومات التى تختارها. ولا تشجع المسيحية العنف، وتنظر إلى (الحيلة) بشيء من المقت والازدراء، أما مكيافيللي، فيمجد العنف دائماً، ولا يكترث بسافونا رولا، لأنه امتنع عن العنف، وينظر إلى (الحيلة) على انها عنصر لا يقل أهمية للفراهة السياسية عن العنف، وقد تفضله أحياناً. لما تحققه من نتائج ناجحة. وعلى الرغم من كثرة حديثه عن العدالة وللحاكم. والقضاة النزيهين، فهو عندما يصل إلى موضوع أولئك الذين ينصبون العداء لعهد قائم، ينسى كل شيء عن

العدالة والمحاكم، ويكتفى بالقول، أنها يجب أن تزول، ومع ذلك، فبالنظر إلى الطريقة التى تنطوى على الاحترام والتى يتحدث فيها مكيافيللى عن الكنيسة لا عن رجال الدين، وبالنظر إلى اعترافه الصريح فى كتابه (الأمير)، بأن العناية الآلهية ساهرة لا على الكنيسة وحدها، بل على أملاك البابا الزمنية أيضاً. وبالنظر كذلك إلى أنه رغم ازدرائه لرجال الدين وكراهيته لهم، سمح لولده نيقولو، بأن يصبح واحداً منهم. ثم اعترف على فراش موته لاحدهم، طالباً المغفرة، فانى لا أرى سبباً يدعو إلى الافتراض بأن وثنيته قد قادته مطلقاً إلى نبذ الكنيسة من صميم فؤاده، ولا مبرر صحيحاً للشك فى اخلاص توبته قبل وفاته. وهناك قصة تروي، عن انه ألقى وهو على فراش موته، نكتة ساخرة بالدين. وقال انه يؤثر أن يلتقى بمن هم فى الجحيم لا فى النعيم، لأنهم أكثر امتاعاً فى الصحبة. ولكن ليس ثمة من دليل على صحة هذه القصة التى قد تكون مختلقة من أصلها، لا سيما وانها لا يمكن أن تصدر عن كاثوليكى مهما كانت درجة ورعه، إذا كان من قراء التاريخ القديم. ومع ذلك فهناك دليل على أنه كان يؤمن بالله، وأنه تلقى القربان المقدس، وقام بواجباته الدينية على فراش موته، الذى ظل أحد الكهنة يقف إلى جانبه حتى اللحظة الأخيرة.

الغاية تبرر الواسطة

ونصل إلى بيت القصيد وهو المبدأ الذي كان يردده مكيافيللي دائماً حيث تسيطر فكرة (الغاية) أو الهدف على جميع نظريات مكيافيللى السياسية. فالحكام يحاولون مهما كان طرازهم، حماية أنفسهم فى المراكز التى يحتلونها. ويحاولون المتآمرون، والراغبون فى إقامة الممالك، قلب السلطات القائمة، أما الشعوب فلا تطلب إلا السعادة والحرية، ولا تنشد فى حالة تعرضها للاضطهاد، إلا الثأر من مضطهديها، ويبحث الشبان عن المركز والشهرة، فالذين لا يملكون المراكز أو الممتلكات، يرغبون فى امتلاكها، بينما يتوق الذين فى أيديهم المراكز والممتلكات إلى الحفاظ عليها. وتختلف هذه الغايات كلها، ولكن يمكن تعلم طريقة تحقيقها فى جميع الحالات، من دراسة التاريخ، وذلك لأن هذه الأهداف كانت موجودة عند الآخرين، وقد استخدموا هذه الوسائل أو تلك، فى شتى الظروف والأوقات، للحصول عليها، استخداماً ناجحاً أو غير ناجح. ولما كان مكيافيللى فى كتابه (الأمير) ينصح المرشحين للإمارة، بالطرق التى توصلهم إليها، كما تنصح القائمين عليها بخير السبل للحفاظ على ما يملكون، حتى ولو كانوا من الطغاة، فقد اعتقد كثير من ناقديه، بأنه يدافع عن الوسائل التى يبحثها، دون أن يكترث بالغايات التى قد تكون وراءها، حتى ولو كان الطغيان أحدها، وهذا ما حمل فريدريك الأكبر، على الثورة عليه، فكتب كتابه (ضد مكيافيللي)، ليدحض مفاهيمه عن الطغاة، ولكنه، أى فريدريك، بعد أن أفلح فى الوصول إلى العرش، اتبع تماماً نفس الأساليب التى سبق له أن ثار عليها فى شبابه، وحمل عليها فى كتابه. وبالطبع لم يكن مكيافيللى يدافع عن أى شيء مطلقاً، وكل ما كان يفعله

هو أن يشير إلى النتائج التى قد تنجم عن اتباع سير معين من السلوك، وأن يقول للأمراء أن المجال فسيح أمامهم إذا أرادوا الوصول إلى مثل هذه النتائج، وأن طريقتهم فى الحكم لا تصلح لتجنبها إذا أرادوا هذا التجنب.

ولا يتحدث كتاب (الأمير) عما فى الأهداف التى يتوخاها الأمراء من خير أو شر، وإنما يهتم الكتاب فقط، فى موضوع ما إذا كانت الوسائط التى يبحث عنها هى الصالحة للوصول إلى تلك الأهداف المعينة، أو أنها غير صالحة لها. ولا تنطبق قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) على الأمير، إذا ألحقنا بكلمة التبرير أى معنى أخلاقي. وتختلف الحالة فى (المطارحات) تمام الاختلاف، إذ يقول مكيافيللي، (أن من القواعد الصحيحة القول بأن النتائج قد تبرر ارتكاب أعمال قد لا يمكن التسامح بها، فإذا جاءت هذه النتائج خيرة، وطيبة، فإنها تبررها دائماً). ولعل قاعدته الأخرى بأن (الغاية تبرر الواسطة، أكثر شمولاً وجمعاً للقول، ولكنها أقل دقة من هذه القاعدة الثانية، وذلك لأنها تفترض أن الغاية يجب أن تكون طيبة، وأنها يجب أن تتحقق، أو أنه يجب أن تكون هناك على الأقل مبررات كثيرة لافتراض تحقيقها، وأن لم تذكر ذلك بوضوح وصراحة.

وتسيطر فكرة هذه القاعدة على آراء مكيافيللى سيطرة تامة. فهو يدافع عن (الحيلة)، ويبررها كوسيلة لخداع الأعداء الأقوياء، واقناع الشعب بأن الإنسان يفعل الصواب. ولقد أورد مكيافيللى فى مطارحاته الكثير من الأمثلة على (الحيلة) وأطرى القائمين بها على أعمالهم، ولجأ الرومان إلى الحيلة، وكانوا حكماء فى طريقتهم، وهو يوصى أيضاً بافناء كل من يعرف عنهم العداء للنظام الجديد، سواء أمثل الأمير أو الجمهورية هذا النظام. وهو ينصح كذلك الراغبين فى الارتفاع من المراكز الخفيضة إلى المراكز العالية باللجوء إلى الحيلة.

ويحاول بيرد، وقد هزه مذهب مكيافيللى هزاً عنيفاً، الدفاع عنه مع ذلك وايجاد المبررات بأن كثيرين من المفكرين الذين سبقوه قد حملوا هذا الرأي. فقد قرأ لهم ذلك فى مؤلفاتهم، وبينهم أوفيد وشيشرون. ولا ريب فى أن قاعدة مكيافيللى كانت منسجمة مع سير الأمراء والحكام فى العصر الذى عاش فيه.

ويقول ارسطو فى كتابه (الأخلاق).. (لا يعترف كل عمل أو كل شعور بوجود النية، فلبعض الأعمال والمشاعر أسماء تعنى السوء كالازدراء، وعدم الخجل، والحسد، والزنا والسرقة والقتل، وتعنى هذه الأسماء أن مسمياتها سيئة وأن هذا السوء لا يقتصر على مجرد الاغراق فيها أو الاكثار منها. ولهذا فليس فى إمكان الإنسان أن يكون محقاً قط فى ارتكابها، بل يجب أن يكون دائماً على باطل)، وأخلاق الكنيسة المسيحية كأخلاق أرسطو من النوع الغائى (الذى ينتقل بالغايات)، ولكن قواعدها تنص كقواعد أرسطو بالذات، على أن بعض الأعمال سيئة من أساسها. وأن ليس ثمة من غاية يمكن أن تبررها. وينفى مكيافيللى بصراحة، انطباق هذا المبدأ على السياسة. وهذا لا يعنى أنه يعكس الخطأ إلى صواب والصواب إلى خطأ، ولكنه يؤثر أن يقول بجرأة، أنه إذا كان هدف الأمراء والحكام سلامتهم، فهناك حالات تتطلب منهم أن يعرفوا ارتكاب الأخطاء، وعندما تكون سلامة الدولة فى خطر، يجب القايم بأعمال قد تعتبر من وجهة نظر الداعية الأخلاقى مما لا يمكن التسامح به أو غفرانه. فهو والحالة هذه إنسان صريح كل الصراحة، وإذا كانت صراحته تجعل أقواله تبدو مثيرة للفزع، إلا أنها على الأقل توضح الموضوع تماماً. فهو يري، أن الغاية الطيبة تبرر فى حقل السياسة، الواسطة التى تعتبر خطأ من الناحية الأخلاقية.

ومن الواضح أن علينا قبل الخوض فى بحث ما إذا كانت الغاية الطيبة الناجحة

فى حقل السياسة تبرر الواسطة، أن نعرف القواعد التى سنقرر على ضوئها معنى (الطيبة) و(السوء) فى كل من الغاية والنتيجة. ولعل خير رد مؤقت على هذا يقوم فى الفصل نفسه، إذ أن مكيافيللى يتحدث فيه عن (مهندس الدولة العاقل، الذى يستهدف الحكم لا لمصالحه الشخصية، بل للمصلحة العامة، ولا لمصلحة خلفائه، بل لمصلحة ذلك الوطن المشترك للجميع). وهو يرى أن أى إنسان فى مثل هذه الظروف، وفى مثلها وحدها، لا يستطيع أن ينحو باللوم على حاكم (إذا قام بعمل، مهما تنكب فيه جانب المألوف، تكون فيه فائدة فى تنظيم المملكة أو إنشاء جمهورية)، وهو يلقى فى الفصل التالى ضوءاً أكثر شمولاً على معنى (الطيبة)، إذ يتصور دولة يعيش فيها الحاكمون والمحكومون على السواء فى أمن واطمئنان، وسلام، وعدالة، وتحترم فيها السلطات المدنية وتطاع وتصان الثروات فيها من الهجوم ومن النبلاء، وتجل فيها الفضيلة، ويسير كل شيء فى هذه الدولة بيسر ونعومة. فلا حقد ولا اشتهاء لما لدى الغير، ولا فساد ولا إفساد، ولا طموح، وكل إنسان حر فى التمسك برأيه والدفاع عنه.

ولا ريب فى أن هذا الوصف ينطبق على الامبراطورية الرومانية كما افترض مكيافيللى صورتها فى عهد نيرفا وغيره من الأباطرة الصالحين، ولكننا إذا استعضنا عن كلمة (الثراء) بكلمة (الأملاك) فإن الوصف نفسه ينطبق أيضاً على طراز الجمهورية التى فكر مكيافيللى بوجوب وجوده عندما يسير الحكم فيها على طريق طيب. وهو يحمل فى مثل هذه الحالة، مفاهيم رفيعة جداً لما تعنيه الحكومات الطيبة، و(للطيبة) التى يجب أن يسعى جميع الحكام من أمراء أو جمهوريين للتحلى بها، والسؤال الوحيد الذى يبدو أمامنا هو ما إذا كان ثمة تبرير لجميع الوسائط، شريطة أن تحقق الوصول إلى هذه الغاية، وتبرير لإقدام رومولوس على قتل أخيه روموس،

ليغدو المشرع الوحيد لرومة ويحقق الحكم الصالح. وعلينا أن نرد على هذا السؤال على ضوء النتائج التي تمخضت عن تحقيق الغاية.

ولقد ظهر بعض التناقض فى مفهوم (الطيبة) الذى يجب أن يستهدفه المشرع، ففى ظل الحكم الملكي، يكون الأثرياء أحراراً فى التمتع بثرواتهم كما كانوا فعلاً فى عهد الامبراطورية أيام نيرفا، أما فى الجمهورية، فيرى مكيافيللى وجوب قيام المساواة و(أن تكون الدولة غنية والمواطنون فقراء)، وهو لا يعنى بهذا الفقر معناه الحرفي، بل معناه اللاتينى أى (الاعتدال فى وسائل العيش). يضاف إلى هذا أن مكيافيللى الذى يكره كراهية قوية وجود طبقة نبيلة تتحكم فى الأرض، ولا سيما إذا مارست هذه الطبقة حق التشريع والقضاء على أتباعها، يرى أن هذه الطبقة (عندما يكثر عدد أفرادها، يجب الخلاص منها على أيدى كل من يستهدف إقامة جمهورية ناجحة)، ولكنه من الناحية الثانية، يناقض نفسه فيقول فى مكان آخر: (وحيث توجد المساواة، لا يستطيع كل من يود إقامة مملكة أو إمارة، تحقق ذلك، إلا إذا اختار من الصفوف المتساوية، عدداً من الطموحين، وذوى العقول القلقة، وجعل منهم نبلاء فى الحقيقة والاسم، يمنحهم القصور والممتلكات، ويضفى عليهم الامتيازات، بحيث يؤلفون طبقة تتمتع باحترام اتباعها). ويمضى فيقول.. (أما النير الذى سيرغم الآخرون على احتماله، فيكون من النوع الذى تفرض القوة فقط احتماله). ولا غرابة، إذا ما سمعنا مكيافيللى بعد كل هذا يقول: (ولا ريب فى أن تحويل بلاد صالحة للحكم الملكى إلى جمهورية، وتحويل أخرى صالحة للحكم الجمهورى إلى ملكية، قضية لا يستطيع التصرف فيها إلا كل من أوتى قوة عقلية خارقة، وصلابة بارزة، وهما صفتان نادرتان فى الرجال). ومع ذلك فهناك ظروف يستحيل فيها الحفاظ على النظام

الجمهوري، ولاّ سيما ندما ينقلب جميع الناس إلى مستكينين وفاسدين، وفى مثل هذه الحالة يستطيع (السلطان شبه الملكي) وحده أن يعيد فرض النظام.

وليس النظامان الجمهورى والملكي، بالوحيدين اللذين يجب أن يختار المرء بينهما سبيله.. فهناك عدد كبير من المفاهيم (للطيبة) فى النسق السياسي، بقدر ما هناك وفرة فى عدد الكتاب والسياسيين والساسة. وعلى هذا، فإذا كان من حق كل فرد يقتنع بأن مفهومه الخاص عن الطيبة، هو المفهوم الذى يجب أن يسود، وأنه هو الوحيد القادر على تنفيذه، أن يزيل منافسيه من ساحة الحياة، وأن يتخلص من جميع معارضيه، فإن العالم سيواجه أزمة دقيقة، ومشاكل، بدلاً من تلك الأجواء من الهدوء والسلام، التى شرحها مكيافيللى بوضوح، (وسنرى الشعوب وقد مزقتها الحروب والخلافات، والملوك وقد اغتالهم القتلة، والمدن وقد نهبت وسلبت، والطقوس الدينية وقد فسدت، والزنا وقد انتشر، والبحار وقد امتلأت بالمنفيين المنبوذين، والصخور وقد لطختها الدماء. وستقع فظائع لا تعد ولا تحصي، وينظر إلى المرتبة والثروات وسيماء النبالة على أنها جريمة عظمي، كما سنرى الواشين وقد كوفئوا أحسن المكافآت، والخدم وقد استعدوا للثورة على سادتهم). وهكذا فإن القول المأثور (بأن الغاية إذا تحققت تبرر الواسطة)، تناقض صريح فى التعبير، إذ أنه يعنى أن كل من يجد له غاية طيبة يستطيع أن يلجأ إلى كافة السبل للوصول إليها، وعلى هذا، فمن حيث أن أشخاصاً متعددين قد يحملون الغايات السياسية الطيبة، فإن الفوضى التى لا نعرفها اليوم إلا لماماً ستسيطر على كل مكان.

والحقيقة التي لا ريب فيها اننى مندهش حقاً من شيء خاص يبدو لى غريباً فى تفسير مكيافيللى لهذه الفتوى السياسية. فهو يصر فى العادة على أن النظام والهدوء

يتطلبان تصديقاً غير متحيز لشئون العدالة، كما يتطلبان وجود عدد كبير من المحاكم والقضاة لمحاكمة المجرمين والخونة والمديرين الفاسدين. ولكنه لا يعود إلى ذكر المحاكمات عند الحديث عن الإجراءات الاستثنائية التى يجب أن يتبعها مؤسسو الدول الجديدة. فالمفروض أن يعرف الحكام الجدد أعداءهم، وأن ما عليهم فعله، هو إبلاغ جنودهم. أو قضائهم إرادتهم، وأن يقولوا لهم.. (ها هم الرجال، اقطعوا رؤوسهم، وانتهوا من ذلك بسرعة). ولا ريب فى أن الخونة يستحقون الموت، كما يستحقه الثائرون الذين يقبض عليهم والسلاح فى أيديهم، ومع ذلك، فهو يحث على إنشاء المحاكم للنظر فى قضايا الجرائم العظمي، ولكن قد تثور الشكوك، بسهولة بعد أية حركة انقلابية، وعلى الحكام أن يأخذوا حذرهم من هذه الشكوك ومن الظلم الذى يشتد أمره من جراء الشك، مخافة اتهامهم بنكران الجميل. وهكذا كان فى وسع الإنسان أن يتوقع من مكيافيللى أن لا ينصح الحكومة التى تنبثق عن حركة انقلابية ناجحة بالاسراع فى الخلاص من منافسيها بل ينصحها بأن (تسير متئدة فى إعدام المنافسين، وأن تحرص على محاكمتهم أولاً أمام محكمة غير متحيزة، مخافة انقلاب العدالة إلى ظلم، وتحول الخير المتوخى إلى شر).

والحقيقة التي لا ريب فيها هي اننى لا أستطيع أن اعتبر مكيافيللى مخطئاً، فى تصديقه، دون تمحيص، قصص أعمال الناس فى القرون البعيدة الماضية، لا سيما وأن معظم هذه القصص من النوع الخرافي، ومع ذلك، فهو يطرب لها. ويعلق غويكاردينى على أقوال مكيافيللى فيقول: (أن العنف دليل الضعف، ولا سيما عند الأمير الذى لم تقم إمارته على أساس ما لديه من قوات مسلحة. فعلى هذا الأمير أن يلجأ إلى الإجراءات العنيفة عندما تقضى الضرورة بها، ولكن عليه فى الوقت نفسه أن يحاول توطيد مركزه عن طريق السلوك الإنسانى الرؤوف، واغداق المنح

والعطايا. ولذا يجب أن لا يعتبر ما يقوله مكيافيللى قاعدة مطلقة، وذلك لأنه يطرب دائماً طرباً شديداً عندما يسمع بالإجراءات العنيفة). ويشير مكيافيللى فى مكان آخر إلى فيليب الثانى ملك مقدونيا فيقول أن على الأمير الذى يحتل إمارة مقهورة مغلوبة على أمرها أن ينافس فيليب ويباريه، وأن (يجدد كل شيء فى الإمارة التى يحتلها). أي إن يكون صارماً وغير متحفظ فى قسوته فى استئصال شأفة المعارضة. ومن الحق أن يقال أن مكيافيللي، يتحدث الآن (كاخلاقي) فيقول أن مثل هذا السلوك سيثير الاشمئزاز لدى أى مجتمع سواء أكان مسيحياً أو غير مسيحي، وإن من الخير لمثل هذا الحاكم، أن ينزوى فى الحياة الخاصة، بدلاً من اللجوء إلى مثل هذه الفظائع، لتحقيق غاياته، ومع ذلك يصر مكيافيللي، على أن الحاكم المصمم على الاحتفاظ بممتلكاته التى اغتصبها، يرى من مصلحته أن يسلك عين السبيل التى سلكها فيليب الثاني. ولكن أحقاً هذه هى مصلحته؟ إذن أين هى مبادئ مكيافيللى الأساسى والسليمة القائلة بأن أية حكومة لا تستطيع الحفاظ على سلامتها إلا باكتساب حسن نية رعاياها؟ لا ريب فى أنه نسى الآن هذه المبادئ، والمؤسف أنه فى لحظاته الأكثر رصانة وهدوءاً، يضفى وزناً أكبر على المعارض التى يستفزها الاضطهاد، ويدرك ادراكاً كاملاً أن من الحمق والظلم، الحكم على الناس وادانتهم بالشبهات، كما سبق عصره فى الاصرار على وجوب قيام المحاكم والقضاة غير المتحيزين، بحيث تتوافر للمتهم جميع الفرص العادلة لبسط قضيته، ومع ذلك لم ينجم نجاح فيليب كلية عن الوحشية التى عرضها أحياناً. فلقد عرض كما ذكر بيكارد - كمبردج، فى تنظيمه للدول الاغريقية (منتهى الفراهة السياسية الواسعة الافق، وفهماً لأوضاع العالم الهلينى كان يفتقر إليه ساسة دول المدائن الإغريقية).

والحقيقة التي لا ريب فيها هي لقد أوصلنى هذا إلى نهاية ما أريد قوله،

عن موقف مكيافيللي، من العلاقة بين الأخلاق والسياسة، ولم يبق أمامى إلا-
الإشارة إلى ثلاثة كتب ظهرت مؤخراً فى هذه البلاد، أولها كتاب (من افلاطون
إلى مكيافيللي)، وهو المجلد الأول من سلسلة عنوانها (إعلام الفكر السياسي)
للأستاذ فوستر من جامعة اوكسفورد، وثانيها (سياسة مكيافيللي) لبتر فيلد،
الأستاذ فى كمبردج، وثالثها (مكيافيللي)، للأستاذ وايتفيلد، أستاذ الأدب
الإيطالى فى جامعة برمنغهام، وتعرض هذه الكتب الثلاثة تبايناً فى الرأى بالنسبة
إلى موقف مكيافيللى من المثل الأخلاقية، أكثر بروزاً من الطبيعى والمألوف،
فبينما يدينه كل من فوستر وبترفيلد، على نظرياته ومواقفه، نجد واينفيلد، يبرئه
ويدافع عنه فى كل شيء باستثناء سياسة العدوان التى أوصى بها فى الكتاب الثانى
من مطارحاته. وكان الانطباع الذى حصل عليه فوستر من قراءاته لمكيافيللى
إنه (لا يؤمن بالعقيدة الأساسية للدين المسيحي، وهى أن الإنسان مخلوق لأداء
هدف سماوى غيبي)، وأنه أيضاً لا يعتقد بأن (الفضيلة تنسجم مع القانون
الطبيعي)، إذ أن الوصول إلى السلاطن عنده، هو الفضيلة فى حد ذاتها، كما أنه لا
يعترف بأى مقياس آخر يمكن بواسطته الحكم على الفضيلة). وقد يكون فى هذه
الأقوال بعض القسوة، ولكنها تتفق مع ما توصل إليه بترفيلد الذى اقترح بأن
يحمل كتاب (الأمير) عنواناً ثانياً وهو (كتاب مدرسى للمستبدين)، والذى قال
(أن الصورة الوحيدة الحقيقية لمكيافيللي، هى نابوليون بونابرت، وأن ليس من
المدهش فى النتيجة أن تستاء الأجياء المتأخرة من هذا المكيافيللي، الذى يبدو وكأنه
يؤمن للطغاة المستبدين كتاباً يوضح لهم فيه الخطط التى يستطيعون اتباعها).
وبعد أن يحذر بترفيلد طلابه وقراءه، من أن يعلقوا كبير أهمية على البيانات التى
تبرر استخدام أية (واسطة) عندما تكون سعادة المجتمع مهددة بالخطر، يقول أن
مثل هذه البيانات غير صالحة، وأن مذهب مكيافيللى يأخذ القاعدة العامة القائلة

(عش كما يعيش الناس) ليبرر القول بأن التمسك بأهداف الأخلاق لا يجدي، وأن السبيل الوحيد هو تكييف سلوك أفاضل الناس للمقاييس التى يسير عليها سيئو السلوك، وهذه دعوة لا مثيل لها إلى نبذ الفضيلة والتمسك بالرذيلة.

لكن الأستاذ ويتفيلد، يقيم من نفسه مدافعاً، لدحض مثل هذه الآراء، وهو يلجأ لتحقيق ذلك إلى نوعين من الحجج، فهو يصر أولاً، إننا فى حكمنا على السبيل الذى يدعو إليه مكيافيللي، وما فيه من تمسك بالأخلاق أو ميل عنها، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الأوضاع التى يتصورها. وأنا أتفق معه فى هذه الناحية، وأعتقد أننى فى الملاحظات التى أوردتها حتى الآن قد عنيت أكبر العناية بهذه النقطة. فمن الواضح (إن من غير المعقول أو المنطق، أن يلعب فريق لعبة الكريكيت، فى الوقت الذى يلعب الفريق الآخر، بالمدافع الرشاشة). ولكن إذا كان الفريق الثانى يريد أن يلعب الكريكيت، ولكنه لا يستطيع، فهذه قضية أخرى تختلف فيها الآراء وتتباين.

أما النوع الثانى من الحجة التى يستند إليها الأستاذ وايتفيلد، فيبدو فى المحاولة التى يبذلها لإظهار آراء مكيافيللى متفقة فى جوهرها مع آراء كبار الكتاب المشهورين من قدماء ومحدثين. فهو يشبه آراء مكيافيللى فى أحاديث باغليوني، بآراء شيشرون ودانتى ولاروشفوكو، كما يشبهه فى مواضع أخرى بليفي، وقد بحثت فى هذا الموضع باسهاب وتفصيل، فى الفصول السابقة، وانني أترك للقارئ الحكم ما إذا كنت أنا المصيب فى الاستنتاجات التى توصلت إليها، أو أن واينفيلد هو المصيب، بعد أن يفرغ من قراءة كتاب (المطارحات) الذى لا بد وأن يقرأ معه (الأمير) أيضاً.

الفساد المزعوم فى الجنس البشرى

يمكن القول إنه سبق كتب الأستاذ هانكوك عن مكيافيللي. لأن الأستاذ هانكوك، يعترف بأن القوى المشايعة للمكيافيللية والمناهضة لها، مازالت عاملة ولا سيما فى حقل السياسة الخارجي، ولأنه ينتقد الفريقين فى مقاله، فهو يقول أن المؤرخين يميلون إلى تجنب الخوض فى بحث القضايا الأخلاقية التى تتصل بالدبلوماسية الأجنبية، بينما يسلط مكيافيللى عليها الإضراء، ويواجهها بشجاعة وبسالة. أن نقد الأستاذ هانكوك لمكيافيللي، متناه فى القسوة. فهو يقتبس مثلاً قول الأستاذ آلين بأن (مكيافيللى كان يرى بوضوح، ولكنه لم يكن ترى كثيراً)، ثم يضيف (أنه رأى نتائج الأمور دون أن يرى طبيعتها وأنه كان فى إمكانه أن يلاحظ الأشياء، ولكنه سرعان ما يرتبك ويخطئ، بشكل تعس، عندما يبدأ فى إيضاحها). وأنا أقر بوجود بعض التناقضات، أن نظرية مكيافيللى متماسكة كل التماسك كما أرى أنه أدرك طبيعة الأمور بوضوح يفوق أدراك أى كاتب سياسى آخر. وهو يحمل رأياً سيئاً فى الطبيعة البشرية، ولكن إذا اعتبرنا ما وقع فى العالم مؤخراً حولنا، وما يقع الآن، فاننى أرى أنه لم يكن مخطئاً فى رأيه كل الخطأ. فالشهوات هى عين الشهوات، والعواطف هى نفس العواطف من طموح وحسد وشك وطلب للثأر، ورغبة فى السيطرة وما يتبعها من رفض شديد لها، وسخط يحمله الذين لا يملكون عندما يرون الآخرين يملكون الكثير، وهؤلاء يميلون بالطبع إلى خلق الاضطراب إلا إذا ضبطوا ضبطاً محكماً كما قال مكيافيللي، ويتعلق السؤال الوحيد هنا، بما إذا كان مكيافيللى قد بالغ بعض

المبالغة فى أقواله عن فساد الإنسان.

ويقدم الأستاذ هانكوك افتراضين من الافتراضات الرئيسية العديدة التى أتى بها مكيافيللي، على أنهما يحتلان مكان الأولوية، وأولهما أن الناس أشرار بطبيعتهم، وأنهم لا يفعلون الخير إلا بدافع الضرورة، ولذا فهو يقول أن الخطيئة الأصلية تؤلف قاعدة نظريات مكيافيللى السياسية كما ألقت قاعدة نظريات لوثر الدينية.

أما الافتراض الثانى فهو أن القانون وحده هو طريق الخلاص للناس سياسياً، وأن هذا القانون شيء دنيوى لا قواعد له ولا جذور فى عالم الأخلاق، وأنه السبب لا النتيجة للطيبة الإنسانية.

وصحيح أن الخطيئة الأصلية، كانت أساساً فى مذهب لوثر، ولكن الشيء الواضح، أن آراء لوثر الدينية، ليست بذات علاقة مطلقاً بمكيافيللي. وإذا أردنا البحث عن منابع (تشاؤمية) مكيافيللى ونظريته فى القانون، فعلينا أن نتطلع إليها، أما بين مخلفات الماضى السحيق أو فى الوسط الذى عاش فيه. ويقول غيركى فى الصفحة الثانية والعشرين من كتابه (النظريات السياسية فى القرون الوسطي) عند حديثه عن نظريات (الحزب البابوي) فى القرون الوسطي، إنه (لما كانت الدولة قد وجدت قبل الكنيسة، ووجدت خارج الكنيسة أيضاً، فإن هذه الدولة هى ثمرة الطبيعة البشرية، التى اتلفها سقوط الإنسان). وعلى الرغم من تبنى أوغسطين لهذا الرأي، وكذلك غريغوريوس السابع وغيرهما من الكتاب فى مطلع القرون الوسطي، إلا أنه لم يكن الرأى السائد فى عصر مكيافيللى نفسه. فقد أدى العثور على مؤلفات ارسطو من جديد، إلى تبدل واضح، مما حمل القديس توما الاكوينى فى الوصف الذى يشرح فيه أصل الدولة، على تجاهل النظرية السابقة، وعلى أن يعزو أصل الدولة إلى الحقيقة الواقعة وهى أن (الإنسان حيوان اجتماعى وسياسي)، وقد

أوتى من العقل ما يمكنه من إدراك أن (للجماهير) حاجات تتعدى حاجات أية مجموعة من الأفراد، ولكنها تكون مشتركة للجميع، وأنه على ضوء ذلك يجب أن يكون ثمة من يعنى (بذلك الخير الذى يتعلق بالجماهير). ويشير القديس توما إلى أن الالتزامات القانونية تنشأ من الحقيقة الواقعة وهى أن الجميع يستهدفون الخير العام. ويمكننا الحكم بأن مكيافيللى كان على علم بهذه النظرية، من تكرار ورود كلمة (الخير العام) فى كتاباته، ومن الحقيقة الواقعة، وهى أنه كالقديس توما يجعل من (الاهتمام بالخير العام) القاعدة للتمييز بين الأمير الطيب والطاغية. ولا ترد عبارة (الخطيئة الكبرى) فى مؤلفات مكيافيللي. وعلى هذا يمكننا القول بأن (تشاؤميته) نابعة عن ملاحظته لما فى الناس من فساد، ولما يحملونه من عواطف تجعلهم على اهبة لارتكاب الخطيئة. ولا ريب فى أن التأكيد الذى يضعه على الحاجة إلى القانون إذا اريد إصلاح الناس مماثل للنظرية القديمة، ولكننى اشك فى أنه نابع عنها، إذ تكفى فى هذا المجال الملاحظة أيضاً. أما أن القانون دنيوى بالنسبة إلى افتراضه وجود مشرع، فهذا رأى من الناحية الأخري، كان منتشراً كل الانتشار.

ونعود الآن إلى السؤال الثاني، المتعلق بالرأى الذى يبسطه، والقائل بأن الناس سيئون بطبيعتهم، لنرى ما إذا كان حقاً يمثل معتقدات مكيافيللي، وما إذا كان مؤلفنا حقاً يرى أن الطيبة هى ثمرة القانون، وإنها لا تنبع عن أى مصدر غريزى وداخلى فى الإنسان.

وقد يكون فى الإمكان الاتيان بعدد لا يحصى من الفقرات فى مؤلفات مكيافيللي، لإضافء شيء من الزخرف على الرأى القائل بأن افتراضية المذكورين يؤلفان القاعدة الرئيسية فى نظريته، ولكن من المهم جداً فى الوقت نفسه، أن لا نغفل المحتوى الذى يورد فيه هذه الأمثلة. فهو مثلاً، فى الفصل

الثالث من الكتاب الأول من مطارحاته لا يقول (بأن جميع الناس شريرون، وأنهم دائماً يطلقون العنان للشر الراسب فى عقولهم عندما تتاح لهم الفرصة)، وإنما يكتفى بالقول بأن على جميع المشرعين أن يعتبروا هذا شيئاً مفروغاً منه. وصحيح أنه هو نفسه القائل فى مكان آخر (أن الناس لا يعملون الخير مطلقاً إلا عندما تدفعهم الحاجة إلى عمله، ولكن عندما يكون الناس أحراراً فى الاختيار، وفى عمل ما يريدونه، تسيطر الفوضى والاضطراب فى كل مكان)، وأنه هو الذى قال أيضاً (أن الفقر والجوع هما اللذان يدفعان الناس إلى العمل، وأن القوانين هى التى تحملهم على الطيبة والخير)، ولكنه يضيف إلى هذا قوله: (لا حاجة إلى التشاريع، طالما أن الأمور تسير سيراً مرضياً بدونها). وقوله فى مكان آخر: (وعندما تنهار العادات الطيبة، يغدو التشريع أمراً لا مناص منه). وهو لا يصر فى الفصل الثانى والأربعين من كتابه الأول، على أن الناس عامة فاسدون، بل يكتفى بالقول بأن (من السهل إفساد الناس) والسبب الجذرى فى هذا الفساد، هو السيطرة التى تملكها عواطف الإنسان على تفكيره. ولنضرب مثلاً، بالطموح، فهو يفرض، على حد تعبير مكيافيللي، سلطانه على الأفئدة البشرية، حتى إن الناس لا يستطيعون الخلاص منه مهما ارتقت بهم مراتبهم. اجل انه يصبح مرضاً لا نجاة للنفس منه ولا يكتفى الناس بالانتقال من طموح إلى آخر، بل إنهم ينقلون عدواه إلى الآخرين.

ولا يبدو لى فى جميع هذه البيانات أى شيء من الغلو. فالتاريخ يقيم الدليل عليها، والواقع السياسى يؤكدها. ومثل هذا القول، ينطبق أيضاً على ما يقوله مكيافيللى من آثر العواطف الأخرى كالحسد والغضب والكراهية والخوف. وعلى الرغم من أنها خصال ممقوتة، إلا أنها كانت دائماً وأبداً جزءاً من الطبيعة

الإنسانية. ولكن لهذه النقطة جانباً آخر، لم يتجاهله مكيافيللى مطلقاً. فلقد وجدت الفضيلة وتوجد فى كل عصر، وكل ما يتغير منها هو توزيعها. وهى ليست نابعة عن التشريع، إذ لو كان الوضع كذلك، لحق لنا أن نتساءل من أين جاءت فضائل المشرعين. وإذا كان جميع الناس لا يعملون الخير إلا بدافع الحاجة، فكيف نفسر ما يقوم به البعض من عمل تلقائي، قد يقل جودة عما يقوم به الآخرون الذين يحاولون تجنب المجاعة؟.. ولا يكتفى مكيافيللى بالقول، بأن (أجيالاً متعاقبة من الرجال الأفاضل، تظهر فى الجمهوريات الحسنة النظام، أكثر من ظهورها فى ظل النظام الملكي)، بل إنه يتوقع أيضاً. أن تكون هذه الفضيلة من طراز رفيع للغاية. وهو يقول أيضاً. أن على المواطنين الذين اشغلوا رفيع المناصب، أن لا يتقاعسوا عن قبول مناصب أقل منها شأناً فى خدمة بلادهم، وأن على المواطنين من أمثال ماركوس ريغولوس وسينسناتوس، اللذين قادا جيوش بلادهما إلى النصر، أن يكونوا على استعداد للتعاقد فى مزارعهم الصغيرة، وأن يسمحوا للدولة بالتمتع بالمنافع. ويجب أن يكون هنهاك رجال من أمثال مانليوس، على استعداد للتخلى عن حزازاتهم الشخصية استجابة لنداء الوطن، وآخرون من أشباه كاميليوس يقفون صامدين فى وجه المشاق والنوائب. وهو يتحدث فى مكان آخر، فيقول أن على المواطنين فى الدول المنظمة، كمدن ألمانيا الجنوبية، أن يدفعوا الضرائب المستحقة عليهم للدولة، وأن لا يحاولوا الخلاص منها بتقديم البيانات الكاذبة، وأن يحافظوا كذلك على قداسة إيمانهم. ويتضح من هذا أن وجود مثل هذه الأجيال المتعاقبة من الرجال الأفاضل، عنصر أساسى فى تصريف شئون النظام الجمهوري.

ويؤكد مكيافيللى معظم هذه الآراء فى كتابه (فن الحرب). فهو يرى أن المواطن الذى يزاول مهنة الجندية، يجب أن يفعل هذا لأن بلاده فى حاجة إليه،

وأن عليه أن يحارب مستهدفاً المجد، أما إذا حارب لسبب خارجي آخر، فهو ليس بالمواطن الصالح. ويوضح مكيافيللى فى هذا الكتاب ما يعنيه (بالفضائل) التى يجب أن تقدرها الدولة، وأن تنعم على المتحلى بها بالأوسمة اعترافاً منها بجهوده. وهى فى رأيه أن لا يكون الجندى (مزدرياً للفقر، وأن يوقر الإجراءات والمنظمات التى تفرض الانضباط العسكرى وتشرف عليه، وأن يبتعد عن التحزبات، ويوحى للمواطنين بروح الزمالة، وأن لا يؤثر العناية بشئونه الخاصة على الشئون العامة). وقد يكون الجنود الذين لا يفعلون ما يقوله، شجعاناً بواسل، كما كان بومبى وقيصر، ولكنهم لا يكونون مطلقاً من طيبى الرجال.

وكما يورد مكيافيللى ملاحظات ساخرة ومؤذية فى موضوع فساد الإنسان، فهو لا يتورع مطلقاً، عن إبداء مثل هذا النوع من الملاحظات بصدد الجماهير أيضاً. فهو يقول فى كتاب (الأمير) مثلاً عن الناس بأنهم (ناكرون للجميل، متقلبون، مراءون، ميالون إلى تجنب الأخطار، وشديدو الطمع، وهم إلى جانبك، طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم، وأطفالهم، وكل ما يملكون، كما سبق لى أن قلت، طالما أن الحاجة إليها بعيدة نائية، ولكنك عندما تقع فى متاعب، فإنهم ينقلبون عليك). ويقول فى مكان آخر عنهم: (أن من السهل اقناعهم بأمر من الأمور، ولكن من العسير جداً، إبقاءهم على هذه القناعة). وفى مكان ثالث يقول: (وهم يستبدلون حكامهم بسهولة، أملاً فى إصلاح أحوالهم، وتنفيذاً لهذا الاعتقاد يحملون السلاح ضد أولئك الذين يحكمونهم، ولكنهم سرعان ما يتبينون أنهم قد خدعوا فى هذا الرأي، لأنهم سيعرفون فيما بعد، بحكم تجاربهم، أنهم قد انتقلوا من حالة سيئة إلى حالة أسوأ منها). أما فى (المطارحات) فهو يقول لنا (أن الجماهير التى لا رأس لها، لا صلاح لها مطلقاً، وانها عندما تكون متحدة،

يكون أفرادها أقوياء، ولكن عندما يبدأ كل منهم فى البحث، عن سلامته، يعدون جبناء وضعفاء). وعلى قضاة المدن، أن يتجنبوا، كما يتجنبون الصخور اذا انهارت عليهم، تقديم الأسلحة إلى الجماهير الصاخبة، إذ عليهم أولاً أن يحسنوا اختيار رجالهم، وأن ينتخبوا لهم أحسن الضباط). وهو يقول فى مكان آخر (إن الجماهير التى يضللها مرأى المصلحة الخداع، تسعى دائماً إلى حتفها بظلفها، وتسيرها الآمال المشرقة والوعود المتهورة بسهولة). وعندما تكون الجماهير خاضعة فإن جل ما تسعى إليه هو أولاً الثأر من مضطهديها، وثانياً استعادة حريتها. وعندما تتمكن بعد فترة طويلة من العبودية، من استعادة حريتها، فإنها تميل إلى أن تسلك نفس السلوك الشرس الذى يلجأ إليه الحيوان، ولكن لما كانت عاجزة عن العناية بنفسها، فإنها تغدو بسرعة (فريسة أول قادم يحاول ربط أسارها من جديد).

وعلى الرغم من أن جميع أقواله هذه قد تكون صحيحة، إلا أنه يورد إشارة فى (الأمير)، تلمح إلى أنه لا يعنى الحقيقة كلها. وتتحدث هذه الإشارة عمن يغتصب إمارة من الإمارات، ثم يقيم دعائم حكمه على الجماهير، فهو كمن يقيم البناء لى أسس واهية من الطين، إذ أن هذه الجماهير سرعان ما تتخلى عنه، إذا أحست بأن لأعدائه اليد العليا. ونراه فى (المطارحات) يقول أن النظام الذى يستند إلى الجماهير، أى النظام الجمهوري، يصلح للمضاهاة بالإمارات. فالجماهير (إذا تركت وشأنها لا تخطىء بالنسبة إلى قضايا معينة، كتوزيع المناصب والترقيات، أو أنها إذا اخطأت، فاخطاؤها نادرة إذا ما قورنت بما يقترفه القلة إذا عهد إليهم بالتوزيع). ويمضى فى مكان آخر فيقول: (ولا تكون طلبات الجماهير الحرة مؤذية لقضية الحرية إلا نادراً). وحتى لو وقع هذا، فيكفى لازالة الانطباع الكاذب، أن يقف رجل له مكانته على المنصة يخطب الجماهير ويشير لها إلى خطئها،

وذلك لأن الجماهير حتى ولو كانت متحمسة، تستمع إلى الرجل الذى تحترمه. وهو يقول فى مكان ثان (إن ما ينحو به بعض الكتاب باللوم على الجماهير، يمكن أن يوجه أيضاً إلى أية مجموعات من الناس ولاسيما من الأمراء). ولا ريب فى أن الرذائل التى الصقها بالجماهير فى كتابه الأمير من (التقلب والتردد ونكران الجميل) يمكن أن تعزى أيضاً إلى بعض الأمراء. أما الجمهور المنظم القابض على زمام سلطانه فيكون مستقراً، ومتأنياً وعارفاً للجميل، أكثر من الأمير نفسه.

ويدرك مكيافيللى أنه فى تمجده هذا لفضائل الجماهير يدافع عن نظرية لا يقبل بها الجميع. ولكنه يصر على هذا التمجيد. ومن الواجب أن تكون الدول التى ستجرى المقارنة بينها، على نفس المستوى من التطور، أى أما أن يكون القانون يسودها كلها، أو أن لا تكون له أية سيطرة عليها. وعندما تجد الجماهير نفسها منتظمة فى ظل القانون، تحرص على هذه القوانين كل الحرص، وتكون على استعداد للاستماع إلى أية نصيحة معقولة، كما تكون أكثر دقة فى اختيار الأشخاص الذين يتولون مناصب الحكم فيها، أما إذا فقدت، أى الجماهير، احترامها للقانون، فإنها لا تكون أكثر أخطاء من الأمير، أو أكثر تشهياً لأموال الناس أو فظاظة فى سلوكها. ويقول مكيافيللى أيضاً: (أن الجمهوريات أكثر حرصاً من الإمارات على احترام معاهداتها، ولكنها أقل منها قدرة على سن دستور أو شن حرب، أو تحكم فى شعوب تابعة. وذلك لأن أشد أنواع العبودية، هو ذاك الذى يخضعك إلى حكم جمهوري).

وقد يتفق الإنسان أو لا يتفق مع آراء مكيافيللى فى هذا الموضوع، ولكننى تلوتها، لأقيم الدليل على أن آراءه فى الإنسان والجماهير لم تكن على ذلك القدر من التشاؤم الذى يحاول الكثيرون تصويره به، وعلى انه إذا كان يقر بأن لجميع الناس عواطف يمكن أن تغلبهم بسهولة وبصورة محزنة، فهو يقر أيضاً بأن ثمة طيبة أصيلة فى الإنسان، يمكن استثارتها بالمعاملة الحسنة، التى يستجيب إليها دائماً مقدماً تضحيات شخصية

عظيمة. وهذه هي النقطة الأساسية التي يحاول الوصول إليها في الكتاب الثالث من مطارحاته، الذي يورد فيه المثال تلو المثال، عن عظماء رومة، وعن أشكال الفضيلة المختلفة التي يعرضونها. وهو يفعل هذا لأن توطيد النظام الجمهوري مستحيل، إلا إذا وجد رجال اكفاء من ناحية وعلى استعداد لتسخير مصالحهم الشخصية لخدمة بلادهم، رجالاً على استعداد للسلوك سلوكاً كريماً، سواء أكانوا في الحكم، أو في خارجه، متقاعدين يعيشون عيش القناعة، على مجرد دخل ضئيل من ممتلكاتهم، رجال على استعداد، إذا دعاهم الداعي، لقبول منصب ثانوي، رغم احتلالهم مناصب أولية في الماضي، ورجال على أهبة للتخلى عن حزازاتهم الشضخصية إذا تطلبت ذلك حاجات وطنهم. وبالإضافة إلى جميع هؤلاء، يجب أن يتوافر عدد آخر من الرجال، الذين تستفزهم قدوة السابقين، فيضحون على استعداد للسير على منوالهم، كل في مجال عمله في الحياة، ولا ريب في أن هذه هي الناحية الوحيدة، التي تفضل فيها الجمهوريات، الإمارات إذا ما قورنت بها. ففي الجمهورية، يجب أن يتوافر، وهذا واقع فعلاً في الجمهوريات المنظمة، عدد كبير من الرجال على استعداد لتكريس أنفسهم ببجماع أفئدتهم، لخدمة الدولة، دون التفكير بالأمجاد الشخصية. وعلى الرغم من أن الإنسان لا يستطيع وقع وجود كل هذه العناصر، ولكنها وجدت وتحققت في الجمهورية الرومانية، وما دام أن الطبيعة البشرية لا تتغير، فما الذي يحول دون تكرر هذا الوجود يا تري؟ هذا هو موضوع الكتاب الثالث، وافتراض مكيافيللي الرئيسي فيه، لا بأن الإنسان يفعل الخير مضطراً، بل بأن هناك عدداً كبيراً أيضاً من الناس الذي يقبلون على عمل الخير طواعية، وأن هناك عدداً كبيراً آخر على استعداد لتقليد غيره، لسبب ما يحمله من حب في فؤاده لبلاده.

عرض شامل لنظرية مكيافيللى السياسية

يمكن لعزيزي القاريء ان يلاحظ إنني حصرت حديثى حتى الآن فى مجموعة على طريقة مكيافيللى وعلى بعض افتراضاته الأساسية أو مبادئه التى قامت عليها هذه الطريقة. ويتحتم على الآن أن ألفت النظر إلى الملامح البارزة فى نظريته السياسية التى أقامها. وقد يكون من الخير لمن يود دراسة مكيافيللي، لو أوضحت له، النسق الذى يمكن تصنيف (مطارحات) مكيافيللى فيه بالنسبة إلى الفصول، هذا إذا أراد الدارس أن تكون دراسته قائلة على التسلسل المنطقى لا على النسق التاريخى الذى اتبع المؤلف. ولما كانت هذه النظرية السياسية قد وضعت فى شكل قضايا وقواعد، فإن من السهل على كل من يعرف شيئاً عن التاريخ، وعن الأحداث الراهنة، أن يثبت من صحتها على ضوء ما وقع من أحداث منذ القرن الذى كتب فيه مكيافيللى مؤلفاته. لكن هذا موضوع اتركه إلى القارئ. وكل ما يسعنى عمله هنا، هو أن اقترح حوادث بين آونة وأخري، لها صلة شبه بها تحدث عنه مكيافيللي.

ويحسن القارئ صنعاً، إذا بدأ تلاوته الكتاب، بقراءة الفصول العشرة الأولى من الكتاب الأول، وذلك بقصد الحصو على فكرة عن المواضيع الرئيسية التى اهتم بها المؤلف، وعن نظرته العامة إليها. أما إذا آثر القارئ البدء بالطريقة التى لا يتحدث عنها مكيافيللى كثيراً، فإن من الخير له أن يشرع فى قراءة الأهداء، ومقدمتى الكتابين الأول والثاني، ثم ينتقل إلى الفصول المتعلقة بالافتراضات التى يقيم عليها نظريته المسببة.

وعلى هذا فإذا أردت البدء بالطريقة والمبادئ الرئيسية، اتبع الترتيب التالى فى قراءتك:

١- الإهداء.

٢- مقدمة الكتاب الأول.

٣- مقدمة الكتاب الثاني.

٤- الفصل التاسع والثلاثون من الكتاب الأول عن الأحداث التى يتكرر وقوعها.

٥- الفصل الثالث والأربعون من الكتاب الثالث عن طبيعة الشعوب الدائمة.

٦- الفصل السادس والأربعون من الكتاب الثالث عن طبيعة الأسر الدائمة.

٧- الفصل التاسع والعشرون من الكتاب الثانى عن (غائية الحظ).

٨- الفصل السادس والخمسون من الكتاب الأول عن (الطيرة وتوقع الكوارث).

ولما كانت نظرية مكيافيللى تقوم أيضاً على تفهم نفسية الإنسان والجماهير كما يكشف عنها تاريخ الحركات السياسية، فمن الخير أن تنقل بعد ذلك إلى قراءة الفصول المتعلقة بهذا الموضوع وهي:

١- الفصل الثاني والأربعون من الكتاب الأول عن (سهولة إفساد الناس).

٢- الفصل السابع والعشرون من الكتاب الأول عن (استحالة الطيبة الكاملة والشر المطبق).

٣- الفصل السادس والثلاثون من الكتاب الأول عن (الفضيلة التى ينطوى عليها القول، بأن على المواطنين الذين تسنموا ارفع الرتب أن لا يأنفوا من قبول ما هو أدنى منها).

٤- الفصل السابع والأربعون من الكتاب الثالث عن (إيثار المرء لبلاده على نفسه).

٥- الفصل الرابع والأربعون من الكتاب الأول عن (عجز الجماهير إذا افتقرت إلى القيادة).

٦- الفصل السادس والأربعون من الكتاب الأول عن (الطموح والثأر).

٧- الفصل السابع والأربعون من الكتاب الأول عن (الأخطاء التى يتعرض الشعب لارتكابها).

٨- الفصل الثالث والخمسون من الكتاب الأول عن (سهولة خداع الشعب بالمظاهر والأماني البراقة).

٩- الفصل السادس عشر من الكتاب الثالث عن (مقارنة بين الشعب إبان الانتخابات فى أيام الرخاء والشدة).

١٠-الفصل الحادس والثلاثون من الكتاب الثالث عن (رباطة الجأش).

وهناك عدة فصول أخري، يستهلها مكيافيللى بملاحظات لها علاقة بالدراسات النفسية، بينما هناك فصول أخرى تضم مثل هذه الملاحظات فى صلبها، وهى تتناول (الطموح والغطرسة والخلق والجبن والغلظة والنوازع والسيطرة والحسد والكرم والاعتراف بالجميل والميول والاشتهاء والحقد والفقر والثروات والشك والإرهاب والفضيلة والثأر).

ومن الواضح أن الفصل الثانى من الكتاب الأول، هو الفصل الذى يجب أن تبدأ به دراسة نظرية مكيافيللى السياسية، ولكن على القارئ عند قراءته، أن يتذكر، أن جزءاً كبيراً من هذا الفصل قد (نقل) حرفياً تقريباً من الكتاب السادس لبوليبيوس، وأن ما جاء فيه تبعاً لذلك، لا يمثل دائماً، وجهات نظر مكيافيللى الخاصة. فمكيافيللي، لا يؤمن مثلاً، بأن الحكومات تمر فى أدوار انتقالية، وهو ما يقول به بوليبيوس. ولكنه يوافقه على أن جميع أشكال الحكم البسيطة، كالحكم الملكي، أو حكم النباء، أو الديمقراطية المجردة والبسيطة تكون غير مستقرة، وميالة إلى الانتقال إلي معكوساتها، التى تتجسد فى مذهب ارسطو، وهو يشير إلى أن التبدل الدائري، إذا وقع اطلاقاً، لا يتم إلا نادراً. والتبدل فى رأيه مماثل للذبذبة، إذ يتأرجح متنقلاً بين التقدم والانحطاط، مع توقع الخراب والطغيان فى حالة مضى الفساد بعيداً فى طريقه. وهو لا يعتبر حكم النبلاء، طرازاً صالحاً من الحكم. وإنما

هناك طرازان فقط صالحان للحكم، ويستطيعان البقاء طويلاً، وهما الطراز الإمارى (الملكي)، والطراز الجمهوري. أما حكومات القلة فهى فى رأيه طراز منحل يمكن أن تنساق إليه الجمهوريات بسهولة، أما سبب انحلاله، فى رأيه، فهو أنه على الرغم مما قد يأتى به أحياناً من رخاء وازدهار، كما حدث فى عهدى كوزيمو ولورنزو دى مديشي، يكون معرضاً إلى عدد لا يعد ولا يحصى من اساءات التصرف، وقد يتحول بسهولة إلى طغيان استبدادي، ولكنه يحتضن من الناحية الأخري، كل الاحتضان نظرية بوليبيوس، من أن أفضل أنواع الحكم، هو ذاك الذى يجمع بين الاوتوقراطية (حكم الفرد) والارستقراطية (حكم النبلاء) والديمقراطية (حكم الشعب)، وهذا النوع أو لاطراز هو الذى يطلق عليه اسم الجمهورية.

وهناك فصل آخر بالإضافة إلى الفصل الثانى من الكتاب الأول، يتناول موضوع الثورة، وإذا ما درسنا مراحل التحول التى تتعرض له كافة الحكومات، ظهرت أمامنا قاعدتان، رئيسيتان لنظريته. ولهذا فإنى اقترح أن تقرأ الفصول التالية المتعلقة بأنواع الحكومات واستقرارها وتحولها:

١- الفصل الثانى من الكتاب الأول عن (أنواع الحكومات الشعبية والتحولات الحكومية).

٢- الفصل السابع من الكتاب الثالث عن (الثورة الدموية وغير لادموية).

٣- الفصل الثامن من الكتاب الثالث عن (التكيف مع الشعب).

٤- الفصل التاسع من الكتاب الثالث عن (التكيف مع الزمن).

٥- الفصل الخامس والخمسون من الكتاب الأول عن (استحالة إقامة إمارة تقوم فيها المساواة، وجمهورية لا مساواة فيها).

ويحاول مكيافيللى فى الفصلين الثامن والتاسع من كتابه الثالث والفصل

الخامس والخمسين من كتابه_الأول، أن يضع الخطوط العريضة التى تحل بموجبها المشكلة الأساسية التي اثيرت في الفصل الثانى من الكتاب الأول. وكان فى كتابه الأمير، قد أكد المرة تلو المرة، ضرورة احراز الأمير لحسن نية شعبه. فهذه هى الطريقة الوحيدة لكى يحس بالسلامة سوآء فى أوقات السلم أو الحرب، ولا ريب فى أن هذا المبدأ ينطبق على الجمهورية وعلى حكم القلة (الاوليغاركي) ايضاً. ويعتمد كسب التأييد القلبى للشعب لأى نوع من أنواع الحكومات، اعتماداً كبيراً على طبيعة الشعب نفسه وعاداته وتقاليده وثقافته وتجاربه. ولا يمكن لأية حكومة أن تحقق لنفسها الاستقرار إلا إذا كيفت نفسها لرعيتها، وعلى هذا الأساس من التتابع، يجب أن تكيف سياستها الداخلية والخارجية أيضاً للزمن. والثورات التى تقع دون أن يصحبها أى سفك للدماء، تنتج عن موافقة اجماعية من الشعب، وتحدث فى أوقات مناسبة. ويعنى مكيافيللى بالمساواة، أن يكون الجميع على قدم التساوى أمام القانون، وبالنسبة إلى ما يملكونه من ممتلكات. فيجب أن يكون لكل إنسان ممتلكاته أو على الأقل الحق فى أن يملك ما يشاء، وأن يورثها من يشاء لا أن يقتصر ما يملكه على (ثلاثة أفدنة وبقرة) كما قال يوسف تشمبرلين. وعلى هذا الأساس يكون جميع الناس فقراء ولكن الدولة تكون ثرية.

ونتنقل الآن إلى موضوع ثالث تجب دراسته هو (النظام الجمهورى وطبيعته وعلاقته بالنظام الملكي). واقترح أن تقرأ الفصول التالية:

١- الفصل العاشر من الكتاب الأول، ويضم حملة شعواء على الطغيان.

٢- الفصل التاسع عشر من الكتاب الأول عن (التسلسل الوراثى فى الأسر المالكة).

٣- الفصل العشرون من الكتاب الأول عن (التسلسل الوراثى فى الأسر المالكة أيضاً).

٤- الفصل الخامس من الكتاب الثالث عن (الطريقة التى غير الأمراء الوارثون فيها ممالكهم).

٥- الفصل الثامن والخمسون من الكتاب الأول (عن مقارنة بين الأمراء والشعوب فى التعقل والثبات).

٦- الفصل التاسع والخمسون من الكتاب الأول عن (مقارنة بين الأمراء والشعوب فى موضوع الالتزام بالاحلاف والمعاهدات).

٧- الفصل التاسع والعشرون من الكتاب الثالث عن (مسئولية الأمراء عن أخطاء شعوبهم).

٨- الفصل الرابع والثلاثون من الكتاب الأول عن (الحاجة إلى الديكتاتورية فى أوقات الأزمات).

٩- الفصل الخامس والثلاثون من الكتاب الأول عن (مساوىء الديكتاتورية كما يعرضها مجلس العشرة).

١٠-الفصل التاسع من الكتاب الأول عن (الحاجة إلى قيام رجل واحد فقط، بتخطيط الإصلاحات وتنفيذها).

ويقتبس مكيافيللى فقرة من بوليبيوس. فى الفصل الثانى عشر من كتابه الأول، تتضمن ثلاثة عوامل يلفت إليها الانتباه، وتكون مشتركة بين الإمارات والجمهوريات ففى كل منها يجب أن تكون هناك أولاً سلطة إدارية مركزية، ذات قوة وشأن وذلك لأن الحيرة والتذبذب يقضيان على كل حكومة صالحة وثانياً طبقة عليا أو نبيلة، يطلق على افرادها اسم النبلاء، وتكون لديها الوسائل للتعبير عن طلباتها أما عن طريق مجلس أعلى أو عن طريق مجلس الشيوخ وثالثاً الشعب الذى تعتبر حسن نيته ضرورة لابد منها لنجاح كل حكومة حتى الملكيات منها والذى يعتبر سخطه وتذمره، من الأمور القاضية على الدول إذا ما اهملتها.

ويعتمد الفرق بين الملكية والجمهورية، قبل كل شيء، على ما إذا كانت السلطة الإدارية المركزية متمثلة فى شخص واحد أو أكثر. فإذا كانت فى شخص واحد، فالنظام ملكى أو إماري. ويعارض مكيافيللى فى الملكيات الوراثية لأن من الصعب الحفاظ على سلسلة ثابتة من الأمراء الأقوياء، ولأن الأمراء الوارثين يميلون إلى الحكم لا لمصلحة الشعب، بل لمصحلتهم هم ومصلحة أسرهم المالكة. وهو يؤثر الملكية المنتخبة أو المتبناة أى تلك التى يوصى فيها الملك بمن يخلفه. وكانت الملية كما عرفها مكيافيللى من مخلفات النظام الاقطاعى وهو يرى لهذا من الضرورى أن تضم الملكيات النبلاء الاقطاعيين أى الذين يمارسون التشريع على الاتباع الذين يعيشون فى مقاطعتهم. وهو لا يرى فى هؤلاء النبلاء أى نفع إلا إذا كبحت السلطة المركزية جماحهم، ونظمت أعمالهم عن طريق قوانينها ومنظماتها. وهو يعزو استقرار الملكية فى فرنسا إلى الحقيقة الواقعة، وهى وجود مثل هذه القوانين والمنظمات فيها التى يحترمها حتى الملك نفسه احتراماً لائقاً، إذ يدعو البرلمانات إلى الاجتماع لسن التشريعات اللازمة، وللاستماع إلى شكاوى الشعب. ومع ذلك فهو يعتبر الشعب الفرنسى مضطهداً، ويعتبر اضطهاده خطيئة كبري.

وتميل الملكيات عادة إلى الحكم المركزي، وإلى اضطهاد الطبقات التى تعمل على كسب رزقها. أما النظام الجمهورى فيميل إلى السماح للشعب بطلب ما يشاء، وأن يحص لعلى ما يريد تدريجياً بالمزيد من السلطات على حساب الطبقة العليا. ومن الضرورى بالنسبة إلى كل جمهورية، أن تكون لاسلطة المركزية فى أيدى ممثلى الشعب المنتخبين، الذين يحتلون مراكزهم مدة معينة من الزمن، باستثناء الرئيس الذى قد ينتخب مدى الحياة. ويرى مكيافيللى أيضاً، أن من الضرورى وجود مجلسين، أحدهما للشيوخ والآخر للشعب، على أن يمثل الأول منهما الطبقة العليا، وأن يمثل الثانى الطبقة الشعبية، وأن يعهد إلى هذين

المجلسين بجميع الأعمال التشريعية اللازمة. وقد تنشأ المنافسة بين المجلسين، لا سيما وأنهما يمثلان مصالح متضاربة، وقد يحاول كل منهما إحراز السيطرة على الحكومة، مما يؤدى إلى اخفاق الحكومة المركزية التى إذا ما داهمتها الأزمات وهى على هذا النحو من الضعف، عنت القضاء الحتمى على الجمهورية.

وللحيلولة دون هذا، يحث مكيافيللى على الاقتداء بالطريقة الرومانية، التى كانت تعمل فى أوقات الأزمات ولا سيما فى الحروب، إلى إزالة الفروق مؤقتاً بين النظامين الجمهورى والملكي، عن طريق تعيين ديكتاتور تعطى له جميع السلطات لاتخاذ القرارات دون استشارة الآخرين، وتنفيذها، دون أن يكون لإنسان الحق فى استئنافها. ويتحدث مكيافيللى عن مزايا الديكتاتورية فى الفصلين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين من كتابه الأول، ويقيم مقارنة بينها وبين حكومة العشرة. ولا ريب فى أن مكيافيللي، ما كان ليوافق على فكرة بقاء حكومة ذات صلاحيات ديكتاتورية مدة خمس سنوات، إذ أن من السهل جداً أن تتحول الديكتاتورية إذا طال أمرها إلى (طغيان) حتى ولو نشأت على أسس دستورية. ومن الضرورى ألا يكتفى بتجديد المدة التى تعمل فيها الصلاحيات الديكتاتورية، بل أن تكون أقصر ما يكون، وأن يحدد الهدف الذى اقيمت من أجله مخافة التقليل من الصلاحيات الدستورية التى يملكها الموظفون الآخرون. ويعزو مكيافيللى انهيار النظام الجمهورى فى رومة إلى إطالة أمد الصلاحيات الديكتاتورية. ولن يجد القارىء صعوبة كبيرة فى العثور على أمثلة حديثة لانهيار النظام الجمهوري، لأن منح الصلاحيات الديكتاتورية تم فيها دون تحديد للزمن أو للمدي.

وهكذا كانت مطارحات مكيافيللي التي تعتبر من اكصر ما كتبه من حيث كثافة الانكار التي طرحها خلال تلك المطارحات.

الجزء الثاني

كتـــاب الأميـــر

الإهداء
من نيقولا مكيافيللي
إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دى ميديشي

من المعروف أن أولئك الذين يسعون على نيل رضاء أحد الأمراء يجتهدون في تقديم الهدايا الثمينة ذات القيمة الغالية إليه. أو يهدونه أشياء يعلمون أنها تدخل البهجة والسرور إلى نفسه ويسعدها، ويحب رؤيتها. وعلى هذا الأساس نجد أن غالب الأمراء يقبلون هدايا تتمثل فى جياد أصيلة، أو أسلحة ثمينة، أو ثياب موشاة بالذهب أو الأحجار الكريمة، وما شابها من تحف تليق بمكانتكم العظيمة.

ولكننى على أى حال أود أن أهدى سموكم الكريم شيئًا متواضعًا يدل على إخلاصى لكم ولم أجد فيما أملك ما هو أغلى من معرفتى بأعمال ومنجزات عظماء الرجال. وهى معرفة اكتسبتها من خلال تجربة طويلة مررت بها وقد صاحبها العديد من الأحداث إضافة على ما درسته حول ما حدث فى الماضي.

وبعد تفكير عميق وبذل الكثير من الجهد فى دراسة وتأمل منجزات العظماء، أهدى سموكم اليوم ما توصلت إليه من نتائج، وقد وضعتها فى هذا الكتاب الصغير.

ورغم أننى أعتبر أن هذا الكتاب المتواضع قد لا يرقى لقبول سموكم، إلا أننى واثق من عطف سموكم وقبولكم له. فسموكم تعلمون أننى غير قادر على إهدائكم ما هو أعظم، أو أكثر قيمة من هذا الكتاب. فهو يمكن سموكم

من التعرف فى وقت قصير على كل ما اكتسبته طوال حياتي، وما تحملت من أجله الكثير من الأخطار والفقر طوال سنوات عمرى الطويل. وأنا لم أتعمد بأى حال أن أجمل كتابى هذا بالمحسنات والكلمات المؤثرة المفتعلة، وهو أمر يتبعه كثير من الكتاب. كما أننى لا أعتقد أنه من غير اللائق أن يتجرأ رجل بسيط من عامة الشعب مثلى على مناقشة الأمراء وتوجيه الحكومات. فمصورى المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال. ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان. ولذلك فمن الضرورى أن تكون أميراً حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضاً كى تعرف الحقائق الحقائق المتعلقة بالأمراء.

وأنا أستأذن أن تقبل هديتى المتواضعة. فإذا نظرتم إليها ملياً يا صاحب السمو فستجدون أنها تعبر عن رغبتى الصادقة المخلصة فى أنى بلغ سموكم شأناً رفيعاً أنتم أهل له لمنبتكم الشريف وصفاتكم الشخصية الفذة.

ولو تفضلتم سموكم بإلقاء نظرة على هذا الكتاب الصغير، فسوف يتأكد لكم من مدى الجهد الذى بذلته فيه وقدر المعاناة الطويلة التى كانت هى حظى فى الحياة.

الفصل الأول:

أنواع السلطة والحكومات والممالك

١- الأنواع المختلفة للحكومات وطرق إقامتها

قال نيقولا مكيافيللي:

كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهى إما جمهوريات أو ممالك. والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة. وتستمر فى الحكم لسنوات طويلة. أو أنها تكون ممالك حديثة النشأة مثل مملكة (ميلان) فى عهد (فرانسيسكو سفورزا). أو أن تكون قد انضمت حديثاً كأجزاء جديدة، تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة مثل مملكة نابولى فى عهد ملك إسبانيا. والممالك التى تكتسب بهذه الطريقة إما أنها كانت فى حوزة أمير آخر، أو أنها كانت ممالك حرة تم ضمها بالقوة إلى ملك الأمير نفسه، أو إلى أمراء آخرين وآلت إليه من بعدهم. أو أن القدر قد ساقها إليه أو أن يكون قد تمكن من ذلك بسبب قدراته الخاصة.

٢- الممالك وأنواعها

يقول نيقولا مكيافيللي: لن أتحدث هنا عن الجمهوريات حيث تناولتها تناولاً شاملاً فى كتاب آخر، ولكنى سأتناول هنا الممالك، وسأتناول أنواعها المختلفة التى سبق أن ذكرها وكيفية حكمها والسيطرة عليها. وأول ما نلاحظه

هو أن صعوبة الوصول إلى عرش الملك فى مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلى العرش فى الممالك الجديدة. حيث لا يكفى تجنب الأوضاع التى كان يتبعها السلف والتحسب لأى طارئ. وفى مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلى عنه. وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادراً على استعادة العرش.

وعندنا فى إيطاليا مثال واضح على لك وهو الدوق (فيريرا) الذى استطاع صد غارات (البنادقة) عام ١٤٨٤م وكذلك صد البابا (جوليوس) عام ١٥١٠م لا لشيء سوى قِدَم أسرته فى حكم هذه الدوقية. حيث إن الأمير الشرعى المحبوب من شعبه الذى لا توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعى لشعبه أن يتمسك به. ومن الطبيعى أن يتناسى الأسباب والدواعى البسيطة التى تدعوه لتغيير الحكام، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ، فإنه سيفسح الطريق أما تغيير آخر.

٣- متى وكيف تتمرد الأقاليم على امرائها

يقول نيقولا مكيافيللي: لا تكمن الصعاب حقاً إلا فى الممالك الجديدة. فإذا كانت المملكة ليست جديدة بالكامل، أى أنها مملكة مختلطة بعضها حديث، والآخر قديم فإن الاضطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التى تحدث فى كل الممالك الجديدة، وذلك لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسين أحوالهم وهذا الاعتماد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم فى ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهم يذهبون من سيء إلى أسوأ. وهناك ضرر طبيعى وحتمى ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير فى السيطرة على مملكته سواء كانوا جنوداً، أو مساعدين له،

بالإضافة إلى الإصابات التى لا حصر لها التى تحدث بسبب احتلال جزء جديد.

وهكذا يتحول كل من أصيب فى معركة قمت بها للسيطرة على الأرض عدو لك، ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صارمة حيث ستكون معترفاً لهم بجميل مساعدتهم لك. ولهذا السبب على أى حال، فإنك أيها الأمير ستكون فى حالة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك. وهذه هى الأسباب التى جعلت (لويس الثاني) عشر ملك فرنسا، وعلى الرغم من قدرته على احتلال (ميلان) بلا مشاكل، إلا أنه سرعان ما فقد السيطرة عليها حيث استطاعت قوات (لودوفيكو) بمفردها أن تستعيدها منه فى المرة الأولى، وذلك لأن سكانها الذين فتحوا له بواباتها بإرادتهم قد اكتشفوا أنهم قد خدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا على أى ميزة كانوا يتوقعونها، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهم الجديد.

ومن المعروف أن الأقاليم التى تتمرد على أمرائها يصعب فقدانها مرة أخرى بعد استعادتها، حيث يصبح الحاكم -وبسبب سابق تمردهم- أكثر حرصاً على دعم موقفه ومعاقبة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف. لذلك وعلى الرغم من أن مجرد ظهور الدوق (لودوفيكو) على الحدود كان كافياً لأن تفقد فرنسا سيطرتها على (ميلان) فى المرة الأولى، إلا أن فقدان السيطرة عليها مرة أخرى لم يكن ممكناً إلا عندما تحالف الجميع ضدها وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وذلك للأسباب السابق ذكرها. أى أنها سقطت فى المرتين الأولى والثانية. وقد أشرنا تواً إلى أسباب سقوطها فى المرة الأولى. والآن يجب أن نعرف أسباب سقوطها فى المرة الثانية وكيف كان يمكن لفرنسا أن تتجنب هذا السقوط وما هى الإجراءات التى كان يجب اتخاذها لو أن هناك حاكماً آخر فى

مكان ملك فرنسا ليتجنب فق دان السيطرة على جزء من مملكته. وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التى تضمها أم لا. فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من السهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتادة على التحرر ولكى نملكها بسلام يجب أن تمحى الأسر التى كانت تحكمها من الوجود. أما بالنسبة لبقية الشعب فإنهم سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد طالما أنه لم يحدث ما يغير من ظروف حياتهم السابقة، أو يغير من عاداتهم، وهذا واضح فيما حدث فى كل من (بورجوندي، وبريتاني، وجاكسوني، ونورماندي) التى انضمت لفرنسا منذ وقت طويل، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة فى اللغة، إلا أن عادات الشعوب كانت متشابهة من جهة أخرى مما مكنهم من الاستمرار فى الاتحاد. ومن يسيطر على أرض ويريد أن يحتفظ بها لابد أن يضع فى اعتباره أمرين. أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاءً مبرماً، وثانيهما عدم تغير أى قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد فى وقت قصير جداً وتصبح الدولة كياناً واحداً.

ولكن عندما يكون شعب الأراضى المنضمة حديثاً يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة، فإن الصعوبات التى يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظاً وفيراً وحنكة للتغلب عليها. وإحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيراً هى أن يقيم الحاكم الجديد فى تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته لها أكثر أمناً واستمراراً. وهذا هو ما فعله الأتراك فى بلاد الإغريق. فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولة لم يكن من الممكن المحافظة عليها، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك. فوجوده فى موقع الأحداث يمكنه من معاصرة الاضطرابات، وهى لا تزال فى المهد ومن ثم معالجتها بسرعة، أما إذا عاش بعيداً

عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقط عندما تكون قد تفاقمت، وغير قابلة للعلاج. كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به. وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له، فإنهم سيجدون كثيراً من الأسباب ليحبوه. أما إذا ظلوا على ولائهم القديم، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديد قريباً منهم سيكون سبباً للردع والخوف منه. كما أن إقامته ستجعل أى قوى خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية. وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جداً تجريده منها.

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل فى زرع المستعمرات فى عدة أماكن مميزة بالأرض المستعمرة، ومن الضرورى أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير م القوات المسلحة فى نفس المكان. والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أى تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفة قليلة. والمضرة ستقع فقط على هؤلاء الذى ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحها للمقيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعاً من الحماية للدولة، أما من تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين. أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن السهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون من ممتلكاتهم أيضاً. وخلاصة القول أن المستعمرات لا تتكلف أى مال وستكون أكثر ولاءً وأقل اضطراباً، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ما داموا متفرقين وفقراء كما أوضحت. ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم فى الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك فى الأمور الكبيرة فإذا ما أضير الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه ووجود القوات بدلاً من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً

أكثر، مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة فى المحافظة عليها، وبذلك يكون ضمها خسارة مادية، وإضافة على أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذى كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها. وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل واحد منهم عدواً لك، يمكنه أن يفعل ما يضرك. فهم باقون بمنازلهم رغم الهزيمة. وعلى أى حال ستكون معسكرات الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها.

كما أن الحاكم الذى يحكم إقليماً أجنبياً كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائداً وحامياً لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهداً لإضعاف الأقوياء منهم. وأن يحذر أن يغزوهم أجنبى أقوى منه، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفاً أو طمعاً، وقد حدث ذلك حينما دعا (الإيتوليون) الرومان إلى بلاد الإغريق. وأى بلد دخلها الرومان كان بناء على طلب من أهلها وهناك قاعدة تقول: إن أى أجنبى قوى يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبى مدفوعين فى ذلك بحقدهم على حكامهم. ولا يتكبد الأمير أى عناء فى ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية. ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطاناً كبيراً أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له. ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها.

وقد ابتع الرومان دائماً هذه السياسة فيما سيطروا عليه من ولايات. فقد أقاموا المستعمرات وأقاموا علاقات حميمة مع الدول الضعيفة المجاورة دون السماح لها بمزيد من القوة وأضعفوا الدول القوية ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالسيطرة عليها. وسأضرب هنا مثلاً بولاية الإغريق حيث أقام الرومان صداقة مع (الآخيين والأيتوليين) إلا أنهمن لم يسمحوا لهم بالتوسع فى الإقليم. كما

أنهم أضعفوا مملكة مقدونيا وطردوا (أنتيوكس) ولم يفلح صديقهم (فيليب) فى استمالتهم له دون أن يضعفوا نفوذه كما لم تغرهم قوة (أنتيوكس) بالموافقة له على السيطرة على أى ولاية فى المنطقة.

وفى كل هذه الحالات سلك الرومان مسلك الأمراء الحكماء، الذين لا ينظرون إلى اضطرابات الحاضر فقط، ولكن أيضاً على ما سيقع منها فى المستقبل، ويتأهبون له قبل وقوعه. فما يمكن التنبؤ به يمكن علاجه بسهولة. إما إذا انتظرنا إلى أن تداهمنا المخاطر، فسيصبح العلاج متأخراً عن موعده وتستعصى العلة. ويحدث هنا مثلما يحدث فى الحميات غير المستقرة. فالأطباء يقولون أنها فى بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهى فى نهايتها وهذا هو الحال فى أمور الدولة. فإننا نرى الخطر المتوقع قبل حدوثه (وهى صفة الحكماء من الرجال فقط) فيسهل علاجه. ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أى علاج وهذا كله بسبب قصر النظر. ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهى لا تزال فى المهد واستطاعوا دائماً أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى لما هو فى صالح الطرف الآخر. ولذلك فهم قد أعلنوا الحرب على (فيليب) و(انتيوكس) فى بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما فى إيطاليا، على الرغم من أنه كان متاحاً أمامهم تجنب كلتا الحربين. ولم يستجيبوا لنصائح من طلبوا منهم الانتظار والتريث لأن مرور الوقت قد يحمل معه خيراً أو شراً.

ولكن لنعد لفرنسا لنرى ما إذا كانت قد فعلت مثل ذلك أم لا. ولن أتحدث عن الملك (شارل) ولكن عن الملك (لويس) حيث أنه يمكن تحليل ما فعله بطريقة أفضل، ولوضوح سياساته وممارساته. كما أنه قد حكم إيطاليا لفترة

أطول. وسترى أيها الأمير أن الملك (لويس) فعل عكس كل ما يجب فعله للمحافظة على إقليم أجنبى فقد دعا طمع (البنادقة) الملك (لويس) إلى دخول إيطاليا حيث طمعوا فى أن يكسبوا نصف إقليم (لمبارديا) من وراء ذلك وأنا لن ألوم الملك على مجيئه إلى إيطاليا ولا على الجزء الذى احتله منها، وذلك أنه جاء رغباً فى تثبيت أقدامه فى إيطاليا، وليس لمصادقة أهل البلد. ولكن على العكس تماماً فقد أوصدت كل الأبواب فى وجه الملك (لويس) بسبب هذا السلوك، فاضطر لقبول أى تحالف يعرض عليه، وكان من الممكن لخططه أن تنجح بسرعة شديدة لولا وقوع أخطاء أخرى منه أثناء تنفيذ تلك الخطط.

والملك إذن حين سيطر على (لمبارديا) قد استعاد فوراً النفوذ الذى كان الملك (شارل) قد فقده فقد استسلمت له مقاطعة (جينوا) وأصبح (الفلورنسيون) أصدقاء له وتقرب إليه مركيز (مانتوا) وأدواق (فرارا) و(بنتيقولي) وأميرة (فورلي) وأمراء (فانزا وبيزاو وريمينى وكاميرينو وبيمبينو) وأهل (لوكا وبيزا وسينا). وقد عرف البنادقة فى ذلك الوقت نتيجة طيشهم، ففى مقابل سيطرتهم على عدد قليل من المدن فى (لمبارديا) تركوا الملك يحكم أكثر من ثلثى إيطاليا.

وتستطيع أيها الأمير أن تدرك أنه كان من السهل على الملك (لويس) أن يستعيد النفوذ الفرنسى على إيطاليا لو أنه طبق القواعد الأساسية التى سبق أن أشرت إليها وسيطر بحزم على حلفائه الذين كانوا كث يرى العدد واضحى الضعف. فقد كانت مخاوفهم كبيرة سواء من الكنيسة أو من البنادقة الذين لم يرضوا بالوجود تحت إمرته وسلطانه وقد كان حلفاؤه الضعفاء مضطرين إلى الالتصاق به، وكان بإمكانه ومن خلال مساعدتهم له أن يتغلب على مناوئيه لكن الملك (لويس) فعل عكس ذلك تماماً فلم يكد يصل إلى ميلان حتى ساعد البابا (الكسندر) ليبسط نفوذه على إقليم روما. ولم يدرك الملك أنه بذلك قد

أضعف نفسه وابتعد عن حلفائه الذى لجئوا إليه، ولطلوا حمايته، كما أنه ضاعف من نفوذ الكنيسة بإضافة قوته الوقتية إلى قوتها الروحية. وقد أدى هذا الخطأ الأول من الملك إلى سلسة أخطاء أخرى. فقد اضطر إلى أن يأتى بنفسه إلى إيطاليا ليوقف نفوذ البابا (الكسندر) عند حدود معينة، ويمنعه من أن يكون حاكماً على (توسكانيا) لكنه لم برض بأنه قد ساهم فى زيادة قوة الكنيسة وفقد أصدقاءه، كما أنه كان يتمنى فى ذلك الوقت أن ينال مملكة نابولى إلا أنه اقتسمها مع ملك أسبانيا، وبينما كان هو الوحيد المتحكم فى إيطاليا أصبح الآن له شريكاً، فتلاشت الآمال المعلقة عليه وأصبح الناس غير مقتنعين به وباحثين عن غيره وبدلاً من أن يأتى بملك موال له، تخلص منه وأتى بغيره قادر على طرده هو من هناك.

إن الرغبة فى تملك الأشياء أمر طبيعى وعادى جداً ومن يستطيع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه، ولكن من يريد التملك ولا يستطيع تحقيقه فإنه يود أن ينجح مهما كلفة الأمر فيقع فى أخطاء ينال عنه ا لوم كثير. فإذا كانت فرنسا فى ذلك الوقت وبقواتها الخاصة قادرة على السيطرة على نابولى فقد كان يجب عليها أن تفعل ذلك. وإذا كانت لا تستطيع فكان يجب عليها ألا تقتسمها فإذا كان هناك عذر لاقتسام (لمبارديا) مع البنادقة وهو أن ذلك الاقتسام قد سمح لملك فرنسا بإيجاد موضع قدم له فى إيطاليا، فإن التقسيم الثانى يحسب عليه فلا توجد ضرورة لذلك.

وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء: سحق القوى الصغيرة، وزاد من نفوذ قيام دولة واحدة فى إيطاليا، وجاء بأجنبى قوى جداً إلى داخل البلاد ولم يذهب ليعيش هناك بنفسه، ولم ينشئ أى مستعمرات. ولو كان الملك (لويس) قد امتد به العمر، لما أضير من هذه الأخطاء الخمسة كثيراً. إلا أنه ارتكب الخطأ السادس وهو تجريد البنادقة من الولاية. وقد كان ذلك ضرورياً فقط لو لم يكن قد دعم قوة الكنيسة، وأتى بالأسبان إلى إيطاليا. وبما أنه قد فعل

كل ذلك فكان من الأجدر به ألا يسعى إلى التخلص من البنادقة أبداً لأنهم إذا كانوا أقوياء وبإمكانهم أن يصدوا محاولات غزو (لمبارديا) وذلك لأنهم لن يقبلوا بأى شيء يحدث فيها ويخرجهم منها من جهة، ومن جهة أخرى لن يقدم أى طرف آخر لترعها من فرنسا وإعطائها للبنادقة، ولا يوجد من عنده الشجاعة ليهاجم الاثنين معاً.

وإذا كان هناك من يرى أن الملك (لويس) قد سلم (رومانا) إلى (الكسندر) ومملكة (نابولي) إلى الأسبان حتى يتفادى الحرب فإنى أرد عليه بما ذكرته من أسباب وبأنه لا يجب علينا أن نترك الاضطرابات تثور فى مقابل تجنب الحرب. فالحرب لم يتم تجنبها فى هذه الحالة ولكنها تأجلت فقط والتأجيل ن يضر أى أحد سواك أنت يا من تسعى إليه. أما إذا ادعى البعض أن هذا الموقف الذى اتخذه الملك (لويس) كان بسبب وعد مع البابا بأن يقوم بتلك الحملة لحسابه على أن يطلقه البابا من زوجته ويسند (كاردنالية) إلى (روهان) فإنى أرد على ذلك بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء وكيف ينبغى تناولها. وهكذا أضاع الملك (لويس) (لمبارديا) لأنه لم يفعل مثلما فعل الآخرون الذين استولوا على أقاليم وأرادوا الاحتفاظ بها. وهذا المر ليس معجزة ولكنه منطقى وطبيعي. وقد تحدثت فى هذا الموضوع مع الكاردينال (روهان) فى (ناتس) وقد قال لى الكاردينال: إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب. وأجبته بأن الفرنسيين لا يعرفون معنى السياسة لأنهم لو عرفوا معناها ما سمحوا للكنيسة أن تصبح قوية جداً. والتجربة تقول: إن فرنسا هى سبب عظمة الكنيسة فى إيطاليا وفى أسبانيا وهى أيضاً سبب سقوطها. ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر وهى (أن كل من يتسبب فى أن يقوى غيره يهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة، أو بالقوة. وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة).

طرق حكم الممالك القديمة

يقول نيقولا ميكيافيلي: بالنظر إلى الصعاب التى تكمن فى الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية. وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه وعلى أى حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أى متاعب فيها بعد سوى تلك المتاعب التى حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية.

وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم المالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلاً فى أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه، ويشاركون فى السلطة بدعم وتأييد منه أو يكون الحكم لأمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون فى قوتهم على الأمير وإنما على أصالة عائلاتهم القديمة. ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصينهم، ويعتبرهم رعاياهم أسياداً لهم، ويرتبطونهم ارتباطاً وثيقاً. وفى الدول التى يحكمها الأمير وأتباعه، يكون للأمير سلطات أكثر، حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقاماً، والآخرون الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسئولين بدولة الأمير، ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم.

وفى عصرنا الحالى يوجد مثالين لهذين النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا. فالمملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقون هم خدامه، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين، ويغيرهم، أو يستدعيهم حسب هواه. لكن لملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء ومكانتهم معروفة جيداً لرعايا الدولة، وهم أيضاً محبوبون منهم، ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرض نفسه للخطر. إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جداً الاستيلاء على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة

جداً لأسباب عديدة وذلك فى حالة هزيمتها. أما مملكة فرنسا فمن السهل جداً إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة.

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هى أن الغازى لن يجد ترحيباً من الأمراء الموجودين بالمملكة، ولا يأمل فى أن تساعده فى حملته حركات تمرد بزعامة هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقاً. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعاً عبيد للسلطان، وأتباع له، وحتى لو تمكنا من إفسادهم، فلن نستفيد من ذلك كثيراً لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها. لذلك فإن على من يرغب فى الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجههم قواتهم المتحدة، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أى يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته فى معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى فلن يكون هناك أى خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فن يوجد بعد ذلك من يخشاه أما الآخر ون الذين كانوا حول الملك قبل النظر، فلا خوف منهم الآن، فإذا كان ا لمنتصر لم يعلق أى أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصر.

والعكس صحيح فى الممالك التى تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا، وذلك لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة، فلابد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير. وهؤلاء -للأسباب السابق الحديث عنها- يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك، ويجعلوا لك النصر سهلاً ميسراً.

ولكن فيما يعد إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيها بعد فإن المشكلات التى ليس لها نهاية تبدأ فى الظهور وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء. ويصبح التخلص نهائياً من أسرة الأمير غير كاف لأن النبلاء سيبقون ويتزعمون الثورات الجديدة. ولأنك لن تستطيع

إرضاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك.

والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة (داريوس) فإنك ستجدها مماثلة للمكلة التركية، ولذلك كان على (الاسكندر) أن يسقطها بالكامل أولاً بغزو جميع أراضيها وبعد النصر وموت (داريوس) استتبت الأحوال فى الولاية للإسكندر وذلك للأسباب التى ناقشناها فيما سبق. ولو أن خلفاءه ظلوا متحدين لما ثارت أى مشكلات ولعاشوا فيها فى سلام ولكن مشكلاتهم قد حدثت فيما بين بعضهم البعض. فمن المستحيل إذن أن السيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سر الثورات التى قامت بين وقت وآخر ضد الرومان فى أسبانيا وفرنسا واليونان. وذلك نظراً لوجود إمارات عديدة فى تلك الدول. ولم تستتب الأمور لحكم الرومان المزعزع إلا عندما انتهى ذكر هذه الإمارات ومحيت وأصبح الرومان سادة لا بديل لهم. وعندما دب الخلاف بين الرومان كان فى مقدور كل واحد منهم أن يعتمد على مساندة منطقته له حيث كون سلطاناً لنفسه. لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكاماً هناك إلا بعد انقراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة.

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجب للسهولة التى سيطر بها الإسكندر على آسيا، ولا الصعوبات التى لاقاها غيره ممن فتحوا أقاليم مثل (بايروس) وغيره كثير. لأن ذلك لا يعتمد على قدرة الفاتح سواء عظمت أم تضاءلت لكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

طرق السيطرة على الممالك

يقول: نيقولا ميكيافيللي: عندما تكون تلك المدن التى تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة فى ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاث طرق للسيطرة عليها: فإما أن يلغيها الأمير أو أن يذهب بنفسه، ويعيش هناك أو أن يسمح لها

بالاستمرار فى استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية. ونوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون على ولائها لك. ولأن هذه الحكومة التى شكلها الأمير تعرف أنها لا يمكن لها أن تستمر بدون رضائه وحمايته، فهى ستفعل كل ما فى وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية. ومن جهة أخرى فإن المدينة التى اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أى طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستمر هذه السيطرة.

ومثال ذلك هم الإسبرطيون والرومان حيث سيطر الإسبرطيون على أثينا وطيبة من خلال حكومة قليلة العدد، إلا أنهم فقدوا السيطرة عليها. بينما خرب الرومان كابو وقرطاجنة ونومانطة من أجل السيطرة على اليونان بنفس الطريقة التى استخدمها الإسبرطيون تقريباً وذلك بتركها حرة تعيش فى ظل قوانى نها الخاصة، إلا أنهم لم ينجحوا فى ذلك. واضطروا إلى تخريب كثير من المدن بها حتى يضمنوا الاحتفاظ بها، ففى الحقيقة لم تكن هناك طريقة أكيدة للإبقاء عليها سوى التخريب. ومن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضى هى عليه، لأنها ستجد دائماً الدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة. وهى أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمر فإن أهل المدينة سيستجيبون لندائها فوراً عند حدوث أى طارئ، وذلك مثلما حدث فى بيزا بعد أن سيطر عليها (الفلورنسيون) واستعبدوها لسنوات عديدة. ولكن عندما تكون المدن أو الأقاليم قد ألفت الحياة فى ظل أمير وأسرة حاكمة ثم تختفى هذه الأسرة تماماً، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخرى لا يجدون أميراً لهم، ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحدة يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهذا فإنهم لن يقدموا على

حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه. لكن فى الجمهوريات تكون الحياة أفضل والعداء أشد، كما أن الرغبة فى الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن ذكريات حريتها القديمة بسهولة. لذلك فإن الطريقة الأكيدة هى إما أن نخربها، أو أن نقيم فيها.

كيف يمكن السطرة على الأمور فى الولايات الجديدة؟!

يقول نيقولا مكيافيللى فى كتابه الأمير: لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جداً سواء فيما يخص الأمير أو الولاية وذلك فى أثناء حديثى عن الولايات الجديدة. وذلك لأن الناس دائماً يسيرون فى الدروب التى طرقها غيرهم، وأن تحاكى أعمالهم أعمال الآخرين. والعاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تماماً ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز. إلا أنه إن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أى حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التى يردونها حيثما يكون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمى الممكن للقوس الذى يستخدمونه. وهم بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تماماً.

وعلى هذا الأساس أقول بأن السيطرة على الأمور فى الولايات الجيدة تتفاوت تبعاً لقدرات من يستولى عليها. ولما كان أى فرد عادى لا يصل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقع قدراته الفائقة أو حظه السعيد، فإن أحد هذين الأمرين يخفف ما يلقاه من مصاعب كثيرة ومع هذا فإن من لا يعتمد على حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال. ومما يخفف العبء الجديد عن الأمير أيضاً هو إقامته فى الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره. أما إذا أردنا التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية، وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعاً

هو (موسى) - عليه السلام - و(كورش وروmولوس وتيسيوس) وغيرهم. على الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذى نفذ ما أمر به، إلا أنه يظل جديراً بالإعجاب لأنه ذو فضل أهله لأن يكون كليم الله -سبحانه وتعالى- أما كورش وغيره ممن ورثوا المهالك وأسسوها فإنهم جميعاً يستحقون الإعجاب. فما قاموا به م أعمال وما حققوه لا يختلف كثيراً عما قام به موسى -عليه السلام- رغم أنه كان رسولاً. وإذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ فى أى سيء. لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسباً. ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدراج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أى معنى.

وهكذا كان من الضرورى لموسى أن يجد بنى إسرائيل عبيداً فى مصر وأن يضطهدهم المصريون، وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفه ليتخلصوا من العبودية. وكان من الضرورى ألا يستطيع (رومولوس) البقاء فى ألبا، وأن يترك فى العراء يوم مولده حتى يصبح ملك روما ومؤسس تلك الأمة. وكان من الضرورى أيضاً أى يجد (كورش) أن الفرس ساخطون على إمبراطورية الميديون، وأن يكون الميديون ضعفاء ومخنثين بسبب طول فترة السلم. وما كان لتيسيوس أن يظهر قدراته لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون. فهذه الفرص قد سنحت لهؤلاء الرجال وساعدتهم صفاتهم العظيمة على الاستفادة منها. وهم بذلك يزيدون من رفعة أوطانهم ويزيدوها فلاحاً وسعادة.

إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التى تواجههم فى ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التى يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام فى ولاياتهم ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء

نظام جديد لتسيير الأمور وتنفيذه. فنجاحه مشكوك فى أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمر. لأن من يريد الإصلاح لابد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم، وهناك أيضاً من يؤيده بفتور رغم استفادتهم من النظام الجديد. ويرجع هذا الفتور - من ناحية - إلى خوفهم من خصومهم الذين يساندهم القانون، ومن ناحية أخرى إلى أن الناس لا تؤمن بالجيد إلا بعد أن تجربه فعلاً. وعلى هذا فإن المصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد فى كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرين دفاعاً فاتراً، حتى أنه يواجه خطراً كبيراً جداً وهو ما بين أولئك وهؤلاء. لذلك فإننا إذا أردنا أن نتناول هذه القضية بدقة، لابد لنا أن نعرف أولاً ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم، أم أنهم يعتمدون على الآخرين. وبعبارة أخرى هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعوه لهم أم أنهم يستطيعون فرضه؟ ففى الحالة الأولى لن يحققوا سوى فوزاً ضعيفاً. ولا ينجزون شيئاً. أما إذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر. وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك - يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة ومن السهل تحفيزهم لشيء، ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه. ولو كان كل من موسى - عليه السلام - وكورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة، وهذا هو ما حدث فى عصرنا الحالى مع الأخ جيرولامو سافونا حيث فشل فشلاً ذريعاً فى تطبيق شريعته الجيدة عندما بدأ الكثير من الناس فى الكفر به ولم يكن لديه القوة التى تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به. وعلى ذلك فإن من هم مثل

هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة فى شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار فى طريقهم، ولابد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدهم عليها يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء.

ولكل هذه الأمثلة الواضحة التى ضربتها أضيف مثالاً آخر أقل منها، وهو على أى حال مثال يمكن مقارنته بجميع الحالات المماثلة. إنه مثال (هيرو) السيراكوزى الذى أصبح أمير سيراكوز بعد أن كان مجرد فرد عادي. ولم يتدخل الحظ فى ذلك مطلقاً لأن أهل سيراكوز الذى كانوا مضطهدين قد اختاروه رئيساً لهم، وقد ارتقى بما لديه من قدرات من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. وكما قال عنه الكتاب: (لم يكن ينقصه لكى يحكم -وهو مازال فرداً عادياً- سوى المملكة). وقد ألغى نظام المندية القديم وأحل محله نظام جديد وتخلى عن جميع الأحلاف القدامى وعقد غيرها. وعندما أصبح عنده أصدقاء وجنود من اختياره أصبح قادراً أن يعتمد على ذلك وهو آمن. وبينما وجد صعوبة فى الوصول إلى مكانته إلا أنه لم يتعب كثيراً فى المحافظة عليها.

كيف يتم الوصول إلى الإمارة؟

يقول مكيافيللى فى كتابه (الأمير): إن من ارتفع من مكانة المواطن العادى إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة، إلا أنه يواجه كثيراً من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب. وهم لا يجدون أى صعاب فى طريق المناصب لأنهم يطيرون إليها. أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها. ومن أمثال هؤلاء من حصل على دولة فى مقابل المال أو تفضلاً ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث فى كثير من الحالات الإغريقية فى مدن (أيونا وهيلسبونت)، وهم من جعلهم (داريوس)

أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه. ومن أمثال من هؤلاء أيضاً الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب برشوة الجيش، حيث اعتمدوا اعتماداً تاماً على النوايا الحسنة لمن يساعدهم، وعلى حسن طالعهم. وهما أمران لا يستمران طويلاً ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة. وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يمروا بمواقف تمكنهم من ذلك. وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذى عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة، فلن يعرف كيف يأمر وينهى. وهم فى ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات تدين لهم بالولاء، إضافة على أن الدول التى تنمو سريعاً - مثلها فى ذلك مثل أى شيء آخر ينمو سريعاً - لن تستطيع أن تثبت جذورها وتتعمق كما أنها تتدمر بسبب أول عاصفة تهب عليها. وهناك استثناء كما قلنا وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادراً على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه حسن طالعه، ثم بعد ذلك يضع الأسس التى يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد قفزا إلى ذاكرتى وهما يجسدان الوصول إلى الإمارة إما بالقدرة، أو بحسن الطالع، وهذان المثالان هما: (فرانتشسكو سفورتسا) و(قيصر بورجيا). فقد اصبح (فرانتشسكو) دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبسبب قدراته، بعدما كان مواطناً عادياً. وبقليل من المعاناة حافظ على ما قد حصل عليه بعد مروره بصعوبات كبيرة. ومن جهة أخرى حصل قيصر (بورجيا) المعروف باسم دوق (فالنتين) على الملك بفضل نفوذ والده، وفقده عندما فُقد هذا النفوذ، وذلك على الرغم من أنه بذل كل ما يمكن أن يقوم به رجل حكيم، حتى يوطد أقدامه فى ولاية حصل عليها بسبب ما لغيره من قدرات وسلاح. ومن لم يرس قواعد البناء فى وقتها المناسب يمكنه أن يفعل ذلك فيما بعد رغم ما فى المر من خطر على البناء نفسه، وما فيه من عناء على

مهندس هذا البناء. ولو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التى اتخذها الدوق فسوف يلاحظ قوة الأسس التى وضعها لسلطانه القادم، وتأمل هذه الإجراءات شيء لازم، فما قام به الدوق لا يفوقه شيء آخر، ولا يقلل من قيمته أنه استخدم وسائل غير ناجحة، فهذا ليس خطأه، ولكنه كان بسبب سوء حظه الشديد ليس إلا.

عندما أراد (الإسكندر) السادس أن يعلى من شأن ابنه الدوق كان عليه أن يمر بكثير من الصعاب فى الحاضر والمستقبل. وأول ما واجه من مشكلات هو أنه لم يجد سبيلاً لجعله حاكماً لأى ولاية لا تخص الكنيسة. وكان يعلم أن محاولته لكى يسيطر على مدن الباب لن ترضى دون ميلانو والبنادقة. وذلك لأن (فائترا وريميني) كانتا تحت حماية البنادقة فى ذلك الوقت. بالإضافة إلى أنه لاحظ أن القوات المسلحة فى غيطاليا خاصة تلك القوات التى يمكنها أن تخدمه كانت تحت إمرة أولئك الذين يخشون عظمة البابا، وهو بالتالى لا يمكنه أن يعتمد عليهم وذلك لأنها جميعاً كانت تحت قيادة الأورسينى وكولونا وأتباعهما. ولذلك كان من الضرورى بالنسبة له أن يجعل الحالة الراهنة فى إيطاليا تضطرب، وأن يثير الفتن فى الولايات الإيطالية حتى يضمن السيادة على جزء منها. وقد كان ذلك يسيراً بالنسبة له حيث وجد أن البنادقة - وبسبب دوافع أخرى - قد دعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا. وهو لم يعرض ذلك فحسب بل إنه سهله بإنهاء الزواج الول للملك لويس. وهكذا جاء الملك إلى إيطاليا بمساعدة البنادقة ورضاء الإسكندر. ولم يكد الملك يصل إلى ميلان حتى أخذ من ه البابا قوات لحملته على رومانا التى أمكن فتحها بسبب شهرة الملك. وبعدما تم له ما أراد وسيطر على (رومانا) وهزم (الكولونيين)، أعاقه عن الاحتفاظ بها والتقدم أمران اثنان: أولهما أنه شك فى ولاء قواته، وثانيهما هو النية الفرنسية بمعنى

أنه خشى أن تتخلى عنه قوات الأورسينى التى سبق له استخدامها وحققت له النجاح، وهو يخشى فى نفس الوقت أن تكون سبباً لفشله. فهى قد لا تعوقه عن التوسع فقط بل قد تسلبه ما فتحه حتى الآن. كما خشى أن يفعل الملك نفس الشيء، وكان دليله على ذلك أنه بعدما سيطر على (فائنترا) أغار على (بولونيا) فتخلف عنه (الأورسيني) أما بالنسبة للملك فقد تنبه لنواياه عندما استولى على دوقية (أوربينو) وهاجم (توسكانيا) فأوقفه الملك عن هذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعتمد على أسلحة غير أسلحته أو أن يعتمد على حسن طالع يخص أحداً غيره، وكان أول ما فعله هو إضعاف أحزاب (الأورسيني) و(الكولونا) فى روما وذلك بأن جذب على صفه جميع أتباعهما من الأعيان، وجعلهم من تابعيه بأن أجزل لهم العطاء وعينهم فى مناصب، وولاهم أعمالاً كل حسب قدره، وخلال شهور قليلة انقطعت صلتهم بأحزابهم والتصقوا بالدوق بشدة وبعد أن سحق زعماء الكولونا انتهز الفرصة لكى يبطش بزعماء الأورسينى حين واتته الفرصة فأحسن استغلالها. وكان الأورسينون حين رأوا أن عظمة الدوق والكنيسة ستعنى سقوطهم قد دعوا إلى عقد مجلس فى (ماجيوني) وفى ذلك الحين قامت ثورة (أوربينو) وحدثت اضطرابات فى (رومانا)، وظهرت أمام الدوق أخطار لا تحصى، لكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها بمساعدة الفرنسيين وبعد أن استعاد سمعته لم يعد يثق بالقوات الفرنسية أو أى قوات أجنبية ولم يغامر بالتحالف مع أى منها فلجأ للخداع فأخفى أغراضه الحقيقة جيداً، حتى سالمه الأورسينون، وذلك بأن نزع كل من كان لدى ممثلهم السيد (باولو) من شكوك بأن أغدق عليه بالمال والملابس والجياد حتى أغرتهم سذاجتهم، فأتوا إلى (سنجاجليا) ووقعوا فى قبضته وبهذا تخلص الدوق نهائياً من هؤلاء الزعماء بهذه الطريقة، وجعل من أنصارهم أصدقاء له، ووضع الأسس

القوية جداً لنفوذه ثم استولى على كامل (رومانا) مع دوقية (أوربينو)، وكسب رضا سكانها الذين بدءوا يشعرون بمميزات حكمه.

وهذا الدور جدير بأن يلاحظه الآخرون ويسيرون على منواله ولن أتوقف عن الحديث عنه فعندما سيطر الدوق على (رومانا) كان حكامه السابقون ضعفاء وكانوا ينهبون الرعية بدلاً من أن يحكموهم، ويعملون على فرقتهم وليس توحيدهم، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية، والسلب، وجميع أنواع الفوضى لذلك رأى الدوق أن إيجاد حكومة صالحة فيها هو أمر مهم جداً، حتى يجعل أهلها مسالمين ومدينين لحكمه بالطاعة لذلك فقد ولى عليهم (روميرو دي أوركو) وكان رجلاً قاسياً، وقادراً، ومنحه سلطات كاملة فنجح (روميرو) نجاحاً كبيراً في توحيد البلاد وتنظيمها في وقت قصير إلا أن الدوق قد رأى أن السلطة المتناهية غير مناسبة، وأنها من الممكن أن تولد الكراهية في نفوس الناس، فأنشأ داراً مدنية للعدل برئاسة رجل ممتاز وعينت كل مدينة محامياً خاصاً بها في هذه الدار. ولما علم أن ما حدث من قسوة بالأمس القريب قد ولد في النفوس مقداراً من الكراهية قرر أن يعلن للجميع أن ما حدث لم يكن بسبب أوامر أصدرها وإنما بسبب ميول الوزير الفظة وذلك لكي يطهر نفوس الناس ويكسبها تماماً لصالحه. وعندما حانت الفرصة قتل (روميرو) وشطر جسده إلى نصفين، ثم ألقاه ذات صباح في ميدان عام في (شيزينا) وبجانبه قطعة من الخشب وسكين ملطخ بالدماء، فذهل الشعب لوحشية هذا المنظر إلا أنه رضي بذلك.

ولنعد إلى حيث توقفنا، الآن أصبح الدوق قوياً، وفي مأمن من الأخطار الراهنة ولديه سلاحه الخاص، وقد قضى -إلى حد كبير- على القوى المجاورة التي قد تؤذيه ولم يبق أمامه الآن إذا أراد أن يواصل الفتح سوى أن يفوز باحترام فرنسا له. حيث علم أن الملك - الذي اكتشف خطأه مؤخراً - قد لا

يمد يد العون إليه أبداً لذلك بدأ فى البحث عن أحلاف جديدة وفى مراوغة فرنسا حول الحملة التى كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولى وضد الأسبان الذين كانوا يحاصرون جيتا كان يريد أن يتوثق منهم، وكان من الممكن أن يوفق فى ذلك بسرعة لو أمد االله فى عمر الإسكندر.

وكان هذا هو ما فعله الدوق ويخص الحاضر أما فيما يخص المستقبل فقد خشى أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة، وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر ولذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربعة طرق وهي: أولاً: قضى قضاء مبرماً على كل من تجرى فى عروقه دماء الأسر الحاكمة التى اغتصب ملكها حتى لا يمكن للبابا أن يستغل أى فرصة ضده وثانياً: كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح بهم جماح البابا وثالثاً: لم يدخر وسعاً فى السيطرة على مجلس الكرادلة ورابعاً: حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه. وعند وفاة البابا كان الدوق قد أنجز الأمور الثلاثة الأولى وعلى وشك إنجاز الأمر الرابع. فقد قتل كثيراً من استطاع الوصول إلهم من الحكام السابقين وفر منهم عدد قليل جداً، وتمكن من ضم نبلاء روما إلى صفه وكان له نفوذ كبير فى مجلس الكرادلة أما بالنسبة لضم أرض جديدة، فقد وضع لنفسه خطة لكى يصبح سيد (توسكانيا) وقد كان ملك (بورجيا) و(بيومبينو) منذ فترة وجيزة كما فرض حمايته على (بيزا) وقد سيطر عليها عندما لم يعد يخشى الفرنسيين (وذلك لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين من مملكة (نابولي) بطريقة جعلت كلا الطرفين يخطب وده). ثم استسلمت له (لوكا وسيينا) دفعة واحدة بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من جهة والخوف من جهة آخرى، فلم تكن تملك أى موارد فإذا كان الدوق قد حقق نجاحاً مثلما الذى حققه عام وفاة الإسكندر، لكان له من القوة والقدرة ما يمكنه من أن يحاف على نفسه دون الحاجة للاعتماد على قوة الآخرين وحسن طالعهم

لكن الإسكندر مات بعد خمس سنوات فقط من إشهار قيصر بورجيا لسيفه لأول مرة، وتركه وهو لم تستتب له المور إلا فى (رومانا). أما بقية الأنحاء فهى معلقة فى الفضاء بين جيشين قويين جداً ومعاديين له وكان يعانى أيضاً من مرض عضال إلا أن الدوق كان لديه القدرة والحيوية ويعرف جيداً كيف يكسب تأييد الرجال وكيف يقهرهم وقد كانت قواعد ملكه التى وضعها فى فترة وجيزة قوية جداً، لدرجة أنه لولا وجود هذين الجيشين على مقربة منه واعتلال صحته لأمكنه التغلب على بقية الصعاب وتتضح قوة الأسس التى وضعها فى انتظار (رومانا) له لمدة تزيد عن الشهر رغم كونه نصف ميت فى روما إلا أن مركزه ظل قوياً. وعلى الرغم من أن (الباجليونى والفيتلى والأورسيني) قد دخلوا إلى روما، إلا أنهم لم يجدوا فيها من يقف ضده، فقد كان فى استطاعة الدوق على أقل تقدير أن يحول بين كرسى البابوية، وبين من لا يرغب هو فيه، إذا لم يكن قادراً على تنصيب من يشاء وربما تيسرت له كل هذه المور لو كان سليماً بصحة جيدة حين توفى الإسكندر و لقد أخبرنى فى يوم انتخاب البابا (يوليوس الثاني) بأنه قد فكر فى كل ما يمكن أن يحدث عند وفاة أبيه، واحتاط لجميع الأمور عدا أمر واحد لم يدر بخلده وهو أنه هو نفسه سيكون قريباً من الموت فى ذلك اليوم.

وعندما أراجع أعمال الدوق لا أجد ما ألومه عليه بل إنى أجد لزاماً على أن أرفعه كمثال يجب أن يحتذيه كل من حصل على سلطان بسبب ما قامت به قوات غيره وحسن طالعهم وهو بسبب شجاعته العظيمة وطموحه الكبير لم يكن أمامه أن يفعل غير ما فعل،وما أحبط خططه إلا قصر حياة (الإسكندر) ومرضه هو شخصياً لذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجيدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه، وأن يكسب الأصدقاء، وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة وأن يحبه الشعب ويخشاه حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه

وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه، أو من الممكن أن يؤذيه وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث وأن يكون صا رماً وشفوقاً فى نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك وأن يلغى نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيده، وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة ومثل هذا الأمير لن يجد مثالاً يحتذيه مثل أعمال هذا الدوق إلا أن النقد الوحيد الذى يمكن أن يوجه لهذا القيصر هو انتخاب (جوليوس الثاني) للبابوية، حيث أساء الاختيار وذلك أنه -كما قيل - إن لم يكن قادراً على انتخاب بابا يوافقه هو، فكان عليه ألا يسمح لأى كاردينال بأن يصل للبابوية كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أى كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من ق يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسى البابوية إن من أساء إليهم القيصر هم: (القديس بطرس والقديس جورجيو وآسكانيو) وكان أى واحد من غير هؤلاء جميعاً سيخشاه لو انتخب للبابوية إلا (روهان) والكرادلة الأسبان لأن الأسبان يخشونه لما بينه وبينهم من صلات والتزامات أما (روهان) فقد كان على قرابة بالملك وله نفوذ عظيم ولهذه الأسباب كان على الدوق أن ينصب فى كرسى البابوية واحد من الأسبان، وإن لم يستطع كان عليه أن يوافق على (روهان) وليس على القديس بطرس إن من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيماً، ولهذا فإن الدوق قد أخطأ فى هذا الاختيار، وكان هذا الخطأ هو سبب هلاكه التام.

حول من وصلوا لمنصب الأمير بالخديعة

بما أنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة دون الحاجة لحسن الطالع أو استخدام القدرات، ولا ينبغى أن نهمل هاتين الطريقتين إن إحدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات وهذا عندما يحصل فرد

من عِلية القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميراً على دولته التى يعيش فيها بناءً على رضا من المواطنين وعندما أتحدث عن هذه الطريقة، سأعطى لسمو الأمير مثالين أحدهما قديم، والآخر حديث دونما توضيح لميزاتهما، حيث إن مجرد ذكرهما سيكون كافياً لمن يضطر لمحاكاتهما.

لم يبزغ نجم (أجاثوكل الصقلي) من بين عِلية القوم ليعتلى عرش (سراكوزا) بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع فهو ابن صائغ فَخار، وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فترات حياته المختلفة وكان ذا جسد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد وعندما انضم إلى صفوف الجيش تدرج فيه بسرعة، ثم قرر أن يصبح أميراً على (سراكوزا) بالقوة، ودون انتظار لأى خطوات دستورية متبعة فى الجمهورية آنذاك فاتفق مع (هاميلكار القرطاجي) الذى حارب معه فى غزو (صقلية)، ثم استدعى مجلس الشيوخ فى (سراكوزا) كما لو كان سيشاورهم فى أمر من الأمور الهامة التى تتعلق بالجمهورية، وأمر باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ، وجميع من حضر الاجتماع من عِلية القوم والأعيان ثم نصب نفسه أميراً بعد قتلهم دونما أى عصيان مدنى ورغم أنه تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش (قرطاجنة) إلا أنه استطاع الدفاع عن المدينة، كما أنه استطاع أيضاً أن يغزو بجزء من جيشه بلاداً فى شمال إفريقيا ثم يعود منها بجنوده ليرفع الحصار عن (سراكوزا) كما أنه أوصل (القرطاجنيين) إلى وضع محرج جداً جعلهم مضطرين إلى التحالف معه تاركين له حكم صقلية وعندما نتناول أعمال هذا الرجل وصفاته لن نجد فيها أى دور واضح لحسن الطالع وذلك لأنه - وكما أسلفنا - لم يصل بفضل أى شخص ساعده ولكنه تدرج فقط فى المناصب

العسكرية، وواجه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذى حافظ عليه فيما بعد بشجاعة وتضحيات كثيرة لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغرير الأصدقاء، وفقدان العقيدة، والرحمة، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى المجد وإذا كانت فضائل (أجاثوكل) المتمثلة فى شجاعة فى مواجهة الأخطار وعظمته عند مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التى لا تحصى لا ترفعه إلى مصاف المشاهير ولا نستطيع أن نقول: أنه قد وصل إلى ما وصل إليه بالفضائل، أو بحسن الطالع.

وفى عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا (الإسكندر السادس)، كان (أولفرتو دافرمو) طفلاً صغيراً يتيماً فى رعاية خاله (جيوفانى فوجلياني)، وقد رعاه خاله ورباه، ثم أرسله فى ريعان شبابه ليعمل كجندى ضمن قوات (باولو فيتلي) وذلك كلى يتمكن - بعد حصوله على التدريب المناسب - من الوصول إلى رتبة عسكرية عالية وبعد وفاة (باولو) حارب (أولفرتو) تحت إمرة أخيه (فيتلوزو) وخلال فترة زمنية قصيرة وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدى والعقلى أصبح أحد قادة القوات لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرر أن يكون أميراً على مسقط رأسه (فيرمو) وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم،كما ساعده أيضاً (البنادقة) فكتب رسالة إلى خاله (جيوفانى فوجلياني) قال له فيها: إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه ى ريد أن يراه ويرى المدينة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان ولأنه قد كافح من أجل الوصول إلى المجد، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هباء لذلك فإنه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه

وطلب من خاله أن يعلن ذلك على الملأ حتى يستقبله مواطنو (فيرمو) استقبالاً يكرمه باعتباره أيضاً تلميذاً لهذا الخال ولم يخفق الخال (جيوفاني) فى عمل ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقبله أهالى (فيرمو) أعظم استقبال وآواه هو فرسانه فى بيته وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا (أولفرتو) خاله (جيوفاني) وكل علية القوم فى (فيرمو) إلى مأدبة كبيرة وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة فى مثل هذه المآدب، تطرق (أولفرتو) ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا (الإسكندر) وابنه قيصر (بورجيا) وقد استجاب خاله والحضور للحديث إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة (بورجيا) إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون فى مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله (جيوفاني) وجميع الحضور وما أن جلسوا فى مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن احتفالهم وقتلوا الجميع بما فيهم (جيوفاني) وبعد هذه المذبحة ركب (أولفرتو) حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصب نفسه أميراً عليها وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أوالعسكرية بطريقة تجعله لا يأمن على نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه فى مدينة (فيرمو)، ولكنه يصبح أيضاً مصدر خوف لجميع جيرانه وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر (بورجيا) قد خدعه عندما سيطر على الأورسينى وسنجاجليا حيث قبض عليه واحد مما ارتكبه من فضاع وأعدم هو و(فيتلوزو) الذى علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء فى بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم، على الرغم

من أن غيرهم لم يستطيع الحفاظ على منصبه فى وقت السلم وليس وقت الحرب وأنا أعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة فحسن ارتكاب الجريمة القاسية (إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة (حسن) عند الحديث عن النوايا الشريرة) يمكن من جنى الثمار فيما بعد أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعدد من يعارضوننا مع مرور الوقت، ولا تقضى عليهم ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما أما بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم.

ومن الملاحظ إذن أنه عندما نستولى على ولاية، فإنه يجب على المنتصر أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها فى وقت آخر. وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناءً على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفى يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقى آثارها أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها وقبل كل شيء لابد للأمير ا، يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثاً مؤلماً أو حادثاً سعيداً وذلك لأنك لا تكون فى هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجنى من ورائه أى فائدة لأنه سيؤخذ على أنه اضطرار وبلا أى فائدة.

الخطر يبدأ، حين يتحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق

يقول مكيافيللي: ونصل الآن إلى الحالة التى يصبح فيها المواطن أميراً بناءً على رغبة أقرانه من المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذى لا يحتمل، وقد يسمى هذا النوع بالإمارة المدنية وهو نوع لا يمكن الوصول إليه لا بحسن الطالع، ولا بالقدرات، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز، إما برغبة من جموع الشعب، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان فى كل مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشى تعسف الطبقة الأرستقراطية، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين فى المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج: إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضى حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى، والأمر يتوقف على ما يواتى من فرص لأى من الطرفين فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحد منهم ليصبح أميراً يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم فى ظل سلطانه ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميراً حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمى بسلطته ومن يصبح أميراً بمساعدة النبلاء يعانى من مشكلات كبرى فى سبيل الحفاظ على سلطانه أكثر من الذى يرفعه الشعب كما أنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم أنداداً له ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرداً والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل كما أن المعاملة العادلة لن ترضى عنه طبقة النبلاء فى حين أن نفس الأمر سيرضى عامة الشعب

بسرعة فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون فى التعسف والبطش وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه يكرهه لكثرة العدد لكنه من الممكن أن يعرف ذلك فى طبقة النبلاء لأنهم قلة وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه ولما كان النبلاء بعيدى النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة فى الوقت المناسب والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فبإمكانه أن يوجدها، أو أن يقضى عليها فى أى وقت، وأن يحسن من مركزها فى المجتمع، أو يجردها منه كما يحلو له.

وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين، أى أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يتركوا فإذا ما كانوا محكومين تماماً، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم أما من يبتعد عنك، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجاماً وجبناً فليس لك أن تخشاهم فى الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأى منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك فى السراء، أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعنى أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون فى أنفسهم ولا يكفرون فيك لذا يجب على الأمير أن يحترس منهم وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة فى سقوطه وقت الشدة.

ولهذا يجب على أى أمير يرفعه الشعب، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمراً سهلاً لأن الشعب لا يريد شيئاً سوى العدل أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب

فعليه أولاً أن يسعى لنيل رضا الشعب عنه وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب ولما كان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر، فغنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد من الطرق التى تختلف باختلاف الظروف، وهى لا تخضع لقاعدة ثانية ولهذا فلن أتحدث عنها ولا أستطيع سوى أن أقول: أنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد لنفسه ملاذاً فى حالة الخطر.

وقد صمد (نابيس) أمير (إسبرطة) لحصار بلاد اليونان جميعها، وجيش رومانى مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم وصان بلاده وحين لاح الخطر اكتفى بأن تأكد من ولاء فئة قليلة وما كان ذلك يكفيه لو أن شعبه يكرهه ولا أظن أن أحداً يمكنه أن يخالفنى بناء على الحكمة التى تقول: (من يبنى على العشب يبنى على الطين) وذلك لأن هذه الحكمة يمكن أن تطبق على الفرد العادى الذى يعتمد على الناس، ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه من بطش الأعداء به ففى مثل هذه الحالة يجد الإنسان نفسه مخدوعاً مثلما حدث (لجراكي) فى (روما) و(لجورجيو سكالي) فى (فلورنسا) فالشعب لا يخدع أميراً يدعم ولايته له بالشجاعة والاستبسال هو قوى القلب، ولا يتوانى عن الاستعداد بكل ما أوتى من قوة، فهو يستطيع أن يستنهض شعبه بعد أن يكون قد أحسن إرساء قواعد الولاية.

ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدنى إلى حاكم مستبد مطلق والحكام المطلقون إما أنهم هم القادة، أو أنهم يستخدمون ولاة لهم، ومركزهم فى هذا الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفاً، وذلك لأنهم يكونون تحت رحمة من عينوهم من ولاة حيث يستطيعوا تجريدهم من ملكهم سواء عملوا

ضدهم، أو خرجوا عن طاعتهم، خاصة إذا حدث ذلك فى وقت الشدة وفى مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق، وذلك لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره فى حالة الطوارئ وهم من ألغوا تلقى الأوامر من الولاة وسوف يحتاج الأمير دائماً فى الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية فى وقت الهدوء والأمن، فالرعايا فى حاجة إلى الإمارة وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير، لأن الموت بعيد عنهم ولكن فى ساعة العسرة، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم فى ذلك الوقت إلا القليل وهى تجربة شديدة الخطر ولا تمكن أن تحدث إلا مرة واحدة وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه فى حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائم.

الأمير الذى يعيش فى مدينة قوية ويحبه شعبه لا يمكن أن يهاجم

يقول مكيافيللي: وهناك أمر آخر من الضرورى أن نتناوله، ونحن نبحث عن صفات الإمارات، وهذا الأمر هو: هل الأمير قادر على أن يحمى نفسه بمفرده عند الحاجة أم أنه فى حاجة لحماية غيره دائماً وأنا أعتبر أن الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم، هم من يستطيع منهم أن يجند جيشاً كافياً بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهرهم أى مغير عليهم أما الأمراء الذين هم فى حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازلة الأعداء فى ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب على داخل المدن للدفاع عنها وقد ناقشت الحالة الأولى منذ وقت قصير أما فى الحالة الثانية فلا نجد شيئاً نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن، ويحافظ عليها ويحسن استخدامها، وأن يحاول تحصين مدينته، ولا يشغل باله بما يحدث حولها فى مدن أخرى أو قرى تابعة

وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها كلما تحسب له عدوه وحذر منه، لأن المقاتلين يخشون دائماً شن العمليات التى يعرفون مدى صعوبتها مقدماً، وليس من السهل أبداً أن نهاجم من تكون تحصيناته قوية لاسيما عندما يكون محبوباً من شعبه.

والمدن الألمانية تستمتع بكامل حريتها وتحيط بها أرض وسهول ريفية ضيقة وهى تطيع أمراءها طاعة كاملة عندما يستطيع ذلك والمدينة الألمانية لا تخاف من أميرها ولا من نوابه، وتحصينها جيد جداً لدرجة أن من يرى هذا التحصين يتأكد له أنه ليس هناك أفضل من ذلك فحول كل مدينة يوجد خندق مائى وحصن ومدافع ضخمة، وكل مدينة ألمانية تحتفظ بطعام وشراب ووقود كاف للمدينة فى مخازن عامة إضافة إلى أن الألمان حتى يحافظون على معنويات الشعب ورضاه يوفرون له الوظائف بأساليب عديدة وخاصة الوظائف الحيوية للمدينة، ويمكن لأبناء الشعب التربح من تلك الوظائف لمدة عام كما أن التدريبات العسكرية مستمرة طوال العام، ولها شهرة واسعة، وهى دائمة الابتكار والتجديد فيما يخص الحفاظ على المدينة.

ومن هذا يتضح أن الأمير الذى يعيش فى مدينة قوية ويحبه شعبه لا يمكن أن يهاجم، ولو هوجم فإن من يهاجمه سيضطر إلى الانسحاب، وهو يجر أذيال الخيبة والعار ولأن عالمنا سريع التغير، فإنه من المستحيل على أى قائد أن يستمر فى حصار مدينة ما لمدة عام، ومن يحتج على بأن الشعب لن يصبر حين يرى العدو وهو يحيط بالمدينة ويشعل النار فيما حولها من أمرك خاصة وأن طول الحصار، وتعرضه للمصالح الخاصة للعشب سينسيه أميره وأرد على ذلك بأن الأمير القوى الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من

- قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه إضافة إلى أن العدو عندما يأتى إلى مدينة بطبيعة الحال يشعل النيران فيها حولها بمجرد وصوله فى وقت تكون النفوس فيها لا تزال على حميتها وتتطلع للدفاع عن نفسها، أما عندما تفتر الحمية، ويكون الدمار قد وقع فعلاً وابتلينا بالشرور التى ليس لها علاج، يصبح الجميع فى ذلك الوقت أكثر استعداداً للاتحاد مع أميرهم الذى يصبح مديناً لهم بالمعروف فقد أحرقت ديارهم وخربت أملاكهم أثناء الدفاع عنه.

ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعماً وينعم بها عليه وبناءً على ذلك فإن الأمير الحكيم الذى ينظر إلى كافة الأمور بعين قادرة على حسن التقدير لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفى أثنائه لو كان يملك ما يكفى من مئونة وسلاح.

الإمارات الكنسية

يقول مكيافيللي: لم يبق أمامنا الآن سوى أن نتحدث عن الإمارات الكنسية، حيث تقع غالب صعوباتها قبل الحصول عليها حيث يتم الحصول عليها بالقدرات الخاصة أو بطريق الصدفة، لكن المحافظة عليها لا تحتاج لكلا الأمرين، وذلك لأنها محكومة بعادات دينية قديمة وهى عادات قوية وقادرة على أن تجعلها تحتفظ بأمرائها ماداموا قادرين على الحياة ومواصلة الحكم وهو الصنف الوحيد من الأمراء الذين يحكمون ولاياتهم ولا يدافعون عنها، ولهم رعايا لا يهتمون بهم، وعلى الرغم من أنهم لا يدافعون عن ولاياتهم فإنهم لا يفقدونها، ولا يستاء منهم رعاياهم بالرغم من إهمالهم لهم ولا يخطر فى بالهم الانفصال عنها ولا يستطيعون ذلك ولذلك فهى الإمارات الوحيدة الآمنة والسعيدة ولكن لأنها محكومة بالقيم العالية التى لا يستطيع العقل البشرى إدراكها، فإنى سأمتنع عن الحديث عنها لأن الله هو من يحميها ويحافظ عليها، فمن الحماقة والوقاحة أن نتحدث عنها وعلى

أى حال قد يتساءل البعض عن كيفية تمكن الكنيسة من تحقيق هذه المكانة الزمنية القوية فى حين أن كل من سبق (الإسكندر السادس) فى إيطاليا مهما كان شأنه – وليس الأقوياء منهم فقط– وذلك سواء كان (بارون) أو من السادة النبلاء، لم يقدروها حق قدرها، بينما يخشاها الآن ملك فرنسا الذى كانت الكنيسة قادرة على طرده من إيطاليا، كما كانت قادرة أيضاً على تحطيم قدرات البنادقة ولذلك وعلى الرغم من أن هذا أمر معروف إلا أننى لا أجد غضاضة فى تأكيده مرة أخرى.

وقبل أن يأتى (تشارلز) ملك فرنسا إلى إيطاليا، كانت هذه الدولة تحت حكم البابا، والبنادقة وملك نابولى ودوق ميلان والفلورنسيين وكان على الجميع أن يضع نصب عينيه أمرين مهمين، أولهما: أن لا يدخل إيطاليا أجنبى بقوة السلاح، والآخر هو ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها وكان الأمر يتطلب عناية خاصة بالبابا والبنادقة حيث أن كبح جماح البنادقة يتطلب اتحاد جميع الباقين كما حدث عند الدفاع عن (فريرا) كما أن مواجهة البابا تطلبت الاستعانة بالبارونات الرومان وكانوا منقسمين إلى حزبين هما: (الأورسينى والكولونا) وكانت هناك مشاحنات مستمرة بينهما وكانوا دائماً يحملون السلاح على مرأى من البابا، مما أضعف البابوية وجعلها غير ثابتة وعلى الرغم من ظهور بابوات حازمين مثل (سكستس) من آن لآخر إلا أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المشكلات سواء بما لديه من قدرات ولا بحسن طالعه وكان سبب ذلك حياتهم القصيرة حيث خلال عشر سنوات التى يحياها البابا فى منصبه فى المتوسط فإنه قد ينجح بصعوبة فى إضعاف أحد الحزبين، وليكن الكولونا مثلاً، ثم يأتى بابا آخر معاد للأورسينى فيسمح ذلك للكولونا بالازدهار مرة أخرى ولا يستطيع البابا التغلب عليهم مرة أخرى.

وقد جعل ذلك من قوة البابا الزمانية أنها لم تحظ إلا بقليل من الاحترام فى إيطاليا ثم جاء (الإسكندر السادس) الذى جعلنا نشهد له ودون جميع سابقيه،

بأن البابا يمكنه أن يسود بالمال والقوة وجعل الدوق (فالنتين) آلة في يده، كما أحسن استغلال الغزو الفرنسي، وفعل كل ما سبق لى شرحه فى أعمال الدوق، وكان لكل ما فعله تأثير على إعلاء شأن الكنيسة رغم أن ذلك لم يكن مقصده بل كان يقصد إعلاء شأن الدوق، فورثت الكنيسة كل ما قام به بعد وفاة الدوق ثم جاء البابا (يوليوس) حيث وجد الكنيسة قوية وتملك كل (رومانا) وقد تم القضاء على جميع بارونات الرومان، كما أن قوة الإسكندر كانت قد دمرت الأحزاب كما أنه وجد ا لبابا مفتوحاً لجميع الأموال بطرق لم تستخدم قبل الإسكندر وهو لم يكتف باستخدام تلك الطرق فقط بل زاد عليها، وصمم على أن يكسب بولونيا ويقمع البنادقة ويطرد الفرنسيين خارج إيطاليا وقد نجح فى كل ما أراد، فاستحق الثناء الكبير وذلك لأنه فعل كل ما فى وسعه للحفاظ على استمرار قوة الكنيسة وليس من أجل قوة أى شخص بصفة فردية كما أنه أبقى أحزاب (الأورسينى والكولونا) فى الحالة التى وجدهم عليها وعلى الرغم أن هناك قادة من بينهم كان يمكنهم أن يحدثوا تغييرات إلا أن هناك شيئين قد حافظا على وضعهما الثابت وهما: الأول هو قوة الكنيسة التي: أفزعتهم والثانى هو أنه لم يكن لهم كرادلة يخصونهم وهذا هو ما سبب الاضطرابات فى صفوفهم وهذه الأحزاب لا تهدأ أبداً إذا كانت لديها كرادلة، مما يثير الفتن والاضطرابات بين البارونات بسبب أطماع الأساقفة ولذلك فقد أدرك قداسة البابا (ليو العاشر) ما للأساقفة من قوة كبيرة ومن هنا طمح ان يصل بطيبته وفضائله التى لا تحصى إلى ما وصل إليه البابوات الآخرون من عظمة وجلال، ولكن بقوة السلاح.

لابد من وجود الدعائم القوية التى تساند الأمير

يقول مكيافيللي: وبعد أن ناقشنا صفات الولايات بالقدر الكافي، كما تناولت عوامل نجاحها أو سقوطها كما تناولت أيضاً الطرق التى حاول عن طريقها

الكثيرون الحصول على مثل هذه الولايات ولا يبقى أمامى الآن سوى أن أتحدث عن وسائل الهجوم والدفاع التى يمكن أن تستخدم فى كل ولاية وقد سبق لى أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التى تساند الأمير وإلا كان القضاء عليه مؤكداً وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هى وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيدة أيضاً، ولذلك لن أناقش الآن القوانين، وسأتحدث فقط عن الأسلحة.

وأنا أرى أن الأسلحة التى يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون أسلحته الخاصة، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة وأسلحة المأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهى تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهى لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها وهم ينهبونك فى وقت السلم وينهبك العدو فى وقت الحرب وسبب ذلك أنهم لا يجدون دافعاً يدفعهم للبقاء فى الميدان سوى الأجور الزهيدة التى لا تجعلهم على استعداد للموت من أجلك فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لن ت قوم بحرب، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معا وأنا لست بحاجة لأن أبذل مجهوداً كى أثبت ذلك، فخراب إيطاليا لم يحدث إلا بسبب الاعتماد لسنوات عديدة على القوات المرتزقة وإن كان بعضهم قد ساعد بعض الأمراء على بلوغ السلطة، وقد ظهروا شجعاناً وأقوياء حين كان التنافس بين بعضهم البعض، إلا أنهم لم يكونوا كذلك حينما جاءهم الأجنبي، مما أتاح للملك (تشارلز) ملك فرنسا أن يستولى

على إيطاليا بأقل جهد ممكن إن من يعلل خراب إيطاليا بسبب الخطايا هو محق، لكنها ليست خطايانا كما يقولون، وإنما هى خطايا الأمراء التى تحدثت عنها، فنالوا همن أيضاً العقاب.

وسأشرح بالتفصيل عيوب هذه القوات المسلحة المرتزقة، حيث أن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوى كفاءة أو غير أكفاء فإذا كان أكفاء فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم أنهم عظماء إما ب ابتزازك وأنت سيدهم أو بالضغط على غيرك لما هو فى غير صالحك أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً وقد يرد على إنسان بقوله: إن ذلك ممكن حدوثه سواء كانت القوات من المرتزقة أو من غيرها وأنا أرد عليه بقول: أن القوات يستخدمها أمير أو حاكم الجمهورية وعلى الأمير أن يتوجه بنفسه إلى موقع القائد، وعلى الجمهورية أن ترسل مواطنيها لهذا الغرض، فإذا اتضح عجز من أرسل فيجب على الجمهورية أن تغيره أما إذا كان قديراً فإنها يجب أن تمنعه من تخطى الحدود المرسومة له بحكم القانون وتشير التجارب إلى أن الأمراء المسلحين والجمهوريات المسلحة هم فقط القادرون على تحقيق تقدم ملموس فى حين لا تقدم القوات المرتزقة أى شيء سوى المضرة كما أن الجمهورية المسلحة لا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بشهولة كما يحدث فى جمهورية مسلحة بقوات أجنبية.

وقد كانت (روما) و(إسبرطة) مسلحين جيداً وأحراراً لقرون طويلة كما كان السويسريون مسلحين جيداً ونعموا بالحرية التامة ولدينا مثال من العصور القديمة للجنود المرتزقة وهم القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد انتهاء أول حرب لهم مع الرومانيين وذلك فى حين أن القيادة كانت ما تزال لأبناء قرطاجنة كما أن أهل طيبة قد جعلوا (فيليب المقدوني) قائداً لقواتهم بعد موت (أبامهنوداس) وقد جردهم من حريتهم بعد أن تم له النصر وقد استأجر

أهل ميلانو (فرانشسكو سفورتسا) لمحاربة البنادقة عندما مات الدوق (فيليب) وعندما تغلب على البنادقة فى معركة (كارافاجو) تحالف معهم ليقمع أهل ميلانوا، وهم من كان يعمل فى خدمتهم وقد عمل أبوه فى خدمة (جويفانا) ملكة نابولي، ثم تركها فجأة وهى بدون سلاح مما اضطرها لأن ترتمى فى أحضان ملك (الأرجون) حتى لا تفقد مملكتها وإذا كان البنادقة والفلورنسيين ق وسعوا ممتلكاتهم فيما مضى باستخدام القوات المرتزقة، ولم يحدث أن ولى القادة أنفسهم كأمراء بل استمروا فى ولائهم ودفاعهم عن الأمراء، وأنا أرى أن الصدفة قد خدمت الفلورنسيين فى تلك الحالة، حيث لم ينقلب عليهم القادة ذوو الكفاءة، ولقى بعضهم الآخر معارضة، بينما وجهت مجموعة ثالثة مطامعها إلى وجهة أخرى إن من لم يقم بالانقلاب هو السير (جون هوكوود) ونحن لا نستطيع الحكم على ولائه مادام يحقق نصراً والجميع يعرف أنه لو حقق نصراً فربما وقعت (فلورنسا) تحت رحمته كما أن (البراتشسكي) و(سفورتسا الأب) صد بعضهم البعض على الدوام فكانوا عقبات دائمة أمام بعضهم البعض، فوجه (سفورتسا) أطماعه إلى لومبارديا، وبينما توجه (براتشو) بأطماعه إلى الكنيسة ومملكة (نابولي).

ولنتناول ما حدث منذ فترة وجيزة حين نصب الفلورنسيون (باولو فيتللي) قائداً عليهم، وهو رجل حكيم جداً ارتفع إلى أعلى المراتب بعدما كان يشغل منصباً عادياً ولا يمكن أن ننكر أنه لو تمكن من الاستيلاء على (بيزا) لوجب على (فلورنسا) أن تحافظ على صداقته بذلك بشدة وذلك لأنه لو حارب فى صفوف أعدائهم فلن يجدوا سبيلا لمقاومته ولو كانوا قد احتفظوا به لكان عليهم أن يطيعو ه أما بالنسبة (للبنادقة) فإذا تناولنا ما حققوه من تقدم فسنجد أنهم قد نجحوا وحققوا مجداً طالما اعتمدوا على قواتهم الخاصة، كما أنهم حاربوا ببسالة وشجاعة بالاعتماد على أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء العامة حتى بدءوا حروبهم البرية

وتخلوا عن هذه الميزة واتبعوا العادات الإيطالية وعند بدايتهم لتوسعهم البرى لم يكن لعيهم أن يخافوا من قوادهم، فرقعة الأرض ليست كبيرة وصيتهم لم يكن ذائعاً ولكن -مثلما حدث تحت قيادة (كارمينولا) -بعد أن اتسعت أملاكهم، وأدركوا خطأهم، ورأوا فتور همته بعد أن هزم دوق ميلانو، ورأوا ألا يقوموا بأى غزو جديد تحت إمرته فيها بعد ولم تكن لديهم رغبة فى طرده، ولا يستطيعون ذلك، خشية فقدان ما قد تمت السيطرة عليه فاضطروا إلى إعدامه حتى تطوى صفحته وعندئذ أصبح (بارتولوميو دابرجاموا وروبرت توراسان سفرينو والكونت دى بتليانو) وأمثالهمن قادة لهم، وكانوا يخشون أن يحققوا لهم الخسارة بدلاً من النصر، فخسروا فى يوم واحد ما كسبوه بصعوبة شديدة فى ثمانية قرون كل ذلك بسبب أننا نستطيع أن نحقق بعض التوافه باستخدام القوات المرتزقة لسنين عديدة، لكن ما تسببه من خسائر يأتى مفاجئاً وغريباً ولما تكرر ذلك فى إيطاليا التى تحكمت فيها القوات المرتزقة لسنين طويلة، فسوف أبحث عن صورة أدق وأكثر تفصيلاً تمكننا من تناولها ودراسة أصولها وتطورها.

ولابد أن نعرف أن إيطاليا كانت فى تلك السنوات الأخيرة مقسمة إلى ولايات صغيرة، عندما بدأت الإمبراطورية فى التفكك بسرعة، وأخذ البابا يتمتع بنفوذ أوسع فيما يتعلق بأمور الدنيا وثارت المدن الرئيسية الثلاث على أمرائها المقربين من الإمبراطور وشجعت الكنيسة هذا الأمر حتى تزيد من سلطانها الزمنى وفى مدن أخرى كثيرة أصبح واحداً من السكان أميراً وهكذا سقط غالب إيطاليا تماماً فى قبضة الكنيسة وبعض الجمهوريات القليلة ولما كان القساوسة والمواطنون العاديون لا يستطيعون حمل السلاح، فغنهم قد أخذوا فى استئجار جنود أجانب، وأول من استخدم هذا الأسلوب من الجندية هو (البرجيو دا كومو) فى (رومانا)، حيث تربى كل من (برتشو) و(سوفورتسا)

اللذين كانا أصحاب الكلمة الأولى فى إيطاليا على أيدى المرتزقة ثم تبعهم جميع قادة الجيوش فى إيطاليا حتى اليوم، وكان من نجاحاتهم أن تغلب شارل على إيطاليا ثم افترسها لويس وطغى فيها (فرناندو) وبغى، وأهانها السويسريون. وكان أسلوب هؤلاء المرتزقة هو أن يزعزعوا الثقة فى المشاة حيث كان من السهل على أفراد الشعب أن ينتموا للمشاة، وكان المرتزقة دائماً من الفرسان الذين لا وطن لهم ويعيشون على ما يكسبون، وكاد الأمر أن يقتصر تماماً على الفرسان، فقليل منهم كان يضفى الهيبة وخلع على الجيش الشرف والمهابة وقد انحدرت الأمور إلى درجة أننا كنا نجد أن هناك ألفين فقط من المشاة فى جيش تعداده عشرون ألف جندى وقد أرسى المرتزقة كل القواعد والتقاليد التى تخلصهم من أى مشقة أو خوف وتقلل من الم خاطر التى قد يتعرضون إليها حفاظاً على أرواحهم وأرواح جنودهم من أمثلة ذلك أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن يطلبوا عنهم فدية، ولا يهاجموه التحصينات العسكرية ليلاً، ولم يحفروا الخنادق حول معسكراتهم ولم يحاربوا فى الشتاء ولم يضعوا المتاريس لقد أجازت قوانينهم العسكرية لهم كل ذلك، وكان قانوناً مبتكراً يحاول أن يجنبهم المخاطر والمتاعب، فانحدروا بإيطاليا إلى غياهب العبودية ونزلوا بها إلى الحضيض.

حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية

يقول مكيافيللي: عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتى للدفاع عنه بقواته فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهى عديمة النفع مثل القوات المرتزقة، وقد حدث ذلك فى العصر الحديث عندما لاحظ (جوليوس) إخفاق قواته المرتزقة فى غزو (فيريرا)، فلجأ إلى استخدام القوات المعاونة واتفق مع (فرناندو) ملك أسبانيا على أن يساعده بقواته وقد تكون هذه القوات جيدة فى حد ذاتها، لكنها دائماً مصدر خطر على من يستعيرها لأنها إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد

هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيراً لتلك القوات وعلى الرغم من أن التاريخ القديم مليء بالكثير من هذه الأمثلة فإن لن أترك هذا المثال وهو مثال البابا (جولوس الثاني) لأنه مثال حديث حي فى الأذهان وليس هناك سياسة خرقاء قليلة الحكمة مثل السياسة التى اتبعها وذلك لأنه بسبب رغبته فى السيطرة على (فريرا) قد وضع نفسه بالكامل تحت سيطرة الأجنبى ولكن لحسن الحظ ظهرت قوة ثالثة ساعدت على منعه من جنى الثمار المرة لسياسته الفاسدة وذلك لأنه عندما هزمت قواته المعاونة فى (رافينا). نهض السويسريون وردوا المنتصر، وذلك دون أى توقع منه أو من الآخرين، ونجا بذلك من أن يقع فى أسر عدوه الذى هرب بالفعل ولا فى أسر قواته المعاونة لأنها هزمت على يد قوات جهة ثالثة كما أن الفلورنسيين الذين كانوا بلا سلاح بالمرة قد استأجروا عشرة آلاف جندى فرنسى للهجوم على (بيزا)، وهذا يعتبر مخاطرة كبرى لم يمروا بها من قبل خلال سنوات كفاحهم وحشد إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركى فى اليونان لمواجهة جيرانه، لكنهم لم يرحلوا بعد الحرب، وكانت هذه هى بداية لمرحلة استبعاد لليونانى ين من جانب من جاءوا لمناصرتهم.

إذن على من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التى تزيد خطورتها قليلاً على خطورة القوات المرتزقة، فبوجودهم سيكون الخراب شاملاً، وذلك لأنهم متحدون داماً، وولاؤهم لآخرين وليس لك بينما تحتاج القوات المرتزقة إلى وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، وذلك لأنها لا تشكل تكويناً واحداً ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك وعلى ذلك فإذا جعلت طرفاً ثالثاً هو القائد فإنه لن يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التى تؤهله لأن يضر مصالحك وخلاصة القول هو: أن قصارى الخطر المتمثل فى القوات المرتزقة يكمن جبنها وتخاذلها عن القتال، لكن القوات

المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها.

والأمير المحنك إذن يتجنب دائماً هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات؛ وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين فهو لا يعتقد أن هذا الذى تحققه القوات الأجنبية سيكون نصراً حقيقياً وأن لا أتردد فى أن أذكر مثال قيصر (بورجيا) وأعماله فهذا الدوق دخل إلى (رومانا) بقوات معاونة وقاد قوات تتكون بالكامل من جنود فرنسيين تمكنهم من السيطرة على (أيمول) وفورلي، ولكنه لم يأمن جانبها فلجأ إلى القوات المرتزقة لتجنب المزيد من الخطر، فاستأجر (الأورسينى والفيتلي)، ثم اكتشف بعد ذلك عدم قدرته على الثقة فيهما بعد أن جربهما وتأكد من أنهما غير مخلصين وخطيرين، فبطشهما واعتمد على جنوده فقط مما زاد من شعبيته زيادة مستمرة، ولم يصل إلى مثل هذه الشعبية الكبيرة التى وصل إليها إلا عندما لاحظ الجميع أنه الآمر الوحيد لقواته.

ولا أريد أن أترك الأمثلة الحديثة من تاريخ إيطاليا، وأريد الآن أن أتحدث عن (هيرو) سيراكوزا وقد سبق لى ذكره هذا الرجل وبمجرد أن جعله السيراكوزيين على رأس الجيش - كما سبق أن قلت - لاحظ عدم فائدة الجيش المنظم على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة، ولما رأى أن الخلاص منهم أو الاحتفاظهم أمر غير مأمون، فقد قطع أوصال هذا الجيش وقسمه إلى أجزاء صغيرة واعتمد منذ ذلك الوقت على خاصة وليس على قوات الآخرين كما أننى سأستشهد أيضاً بقصة رمزية من العهد القديم، وهى توضح هذه النقطة بدقة فعندما عرض داود نفسه على (شاؤول) لكى يذهب وينازل (جوليات) بطل فلسطين فسلحه (شاؤول) بسلاحه الشخصى كى يشجعه على القتال لكن داود بعد أن جرب السلاح بنفسه رفضه قائلاً: إنه يستطيع استخدامه بطريقة جيدة، ولذلك فقد فضل أن يواجه عدوه بمقلاعه وخنجره وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد أيضاً

وقد تعوقك، أو تشل حركتك أو تشكل عبئاً عليك إن الملك (تشارلز) السابع أبو الملك لويس السادس قد اعتقد أن حسن الطالع والشجاعة كانا السبب فى تحرير فرنسا من الإنجليز، وقد لاحظ ضرورة التسلح باستخدام قواته الخاصة وأسس نظاماً فى مملكته يعتمد على رجال يحملون السلاح وعلى كتائب المشاة وفيما بعد ألغى ابنه الملك لويس كتائب المشاة واستأجر جنوداً سويسريين، وكان هذا هو الخطأ الذى تبعته أخطاء أخرى أدت إلى تعرضه للخطر كما هو واضح الآن وذلك لأنه باعتماد على السويسريين ومنحهم هذه السمعة أحبطت فرنسا معنويات كل قواتها الخاصة، فقد تم إلغاء المشاة واضطر الباقى من القوات إلى العمل مع الأجانب لكسب تعاونهم ثم تعودوا على الحرب مع القوات السويسرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم النصر بدونهم وأصبح الفرنسيون فى وضع لا يمكنهم من القضاء على السويسريين، ولا يمكنهم من مواجهة الآخرين دون الاعتماد عليهم وبذلك أصبحت القوات الفرنسية من النوع المختلط، جزء منها من المرتزقة، وجزء من القوات الوطنية وإذا ما تناولناها بصفة عامة فإننا سنجدها أفضل كثيراً من المكونة بالكامل من المرتزقة أومن القوات المعاونة لكنها بالطبع أقل من القوات الوطنية.

ولعل هذا المثال كاف فى حد ذاته، لأن فرنسا كانت ستظل منيعة لو حاولت الإبقاء على نظام (تشارلز) العسكرى أو تطويره لكن الرجال الذين يفتقدون الحكمة عندما يبدءون أمراً جديداً يجنون ثماره الطيبة لا ينتبهون إلى السم الموجود بداخله، وذلك يشابه ما أشرت إليه سابقاً.

ولذا فالأمير الذى يخفق فى أن يلاحظ مشكلات إمارته فى مهدها لا يمكن وصفه إلا بأنه غير حكيم، فالحكمة توهب للقليلين فقط. وإذا ما نظرنا إلى أسباب الانهيار الأول للإمبراطورية الرومانية فسنجد أنه كان بسبب استئجار

قوات مرتزقة من (الغوت)، لأنه منذ ذلك والوقت بدأت القوات الرومانية فى الضعف وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى (الغوت).

لذلك فإنى أنهى حديثى بالتأكيد على أنه لا سلامة لأمير يحتمى بقوات مسلحة غير قواته الوطنية فبدون قواته المسلحة الوطنية يتوقف مصيره على حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك بها الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحوال. لقد قال الحكماء: (لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قواتها الوطنية) وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو من أتباعه هو، وأى قوات أخرى غير هؤلاء هى إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونة ومن السهل أن تعرف كيفية إدارة القائد للجيوش الوطنية لو أننا درسنا طرق الأمراء الأربعة الذين ذكرتهم، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التى نظم بها فيليب - أبو الإسكندر الأكبر- وكثير من الحكام والجمهوريات قواتهم وبعد هذه الأمثلة لا توجد حاجة لتناول الموضوع بالتفصيل.

واجبات الأمير فيما يتعلق بالقوات المسلحة كما يراها مكيافيللي

يقول مكيافيللي: ينبغى للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر سواها فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة فهو فن له من المزايا ما يكفى للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم فى مناصبهم كما أنه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون فى مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم فى الأسلحة والسبب الأول لضياع الولايات هو إهمال هذا الف ن فهى تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن.

وقد توصل (فرانسشكو سفورتسا) بحسن تسلحه إلى أن أصبح دوق ميلانو، وقد كان فيما قبل فرداً عادياً وقد انحدر أبناؤه إلى أن أصبحوا أشخاصاً عاديين بعد أن كانوا أمراء، وذلك لابتعادهم عن متاعب الحروب ومشقتها وذلك لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة وهذا أمر لابد على الأمير أن يتجنبه وهذا ما سنشرحه فيما بعد فشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلاً مسلحاً يطيع رجلاً أعزل، وهو بكامل إرادته، ولن نر أعزل سالماً بين أتباعه المسلحين فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً فى سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك ولهذا فمن المستحيل أن يحترم الجنود أميرهم الذى يجهل الشئون الحربية، أو أن يكونوا محل ثقته، فضلاً عن المشكلات الأخرى التى ذكرتها قبل قليل.

ولذلك لابد للأمير ألا ينسى التدريب العسكري، فهو يتدر ب فى وقت السلم أكثر مما يفعل فى وقت الحرب، وهذا ممكن تطبيقه بطريقتين إحداهما عملية والأخرى نظرية ومن الناحية العملية، يجب عليه بجانب تنظيمه لقواته وتدريبه لهم أن يشغل نفسه بالصيد باستقرار، فهذا أمر يعود جسده على المشقة والتعب، كما أنه يجعله يدرس طبيعة البلاد فى نفس الوقت، فهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديان، وهناك مواقع السيول، ويفهم طبيعة المستنقعات والأنهار، وعليه أن يلم بجميع هذه الأمور إلماماً تاماً ولهذا العلم فوائد من ناحيتين: أولها: أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعة أقاليم أخرى والأمير الذى لا يملك هذه الصفات يفقد أو ضروريات القائد فهذه المعارف تعلمه كيف يلقى عدوه، وكيف يقيم المعسكرات؟ وأين يقيمها؟ وكيف يضع الخطط للمعارك؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر بها.

ومن بين الصفات الحميدة التي وصف بها الكُتاب (فيلوبومين) أمير (الآخيلين) من بين أمراء آخرين، هي أن قالوا عنه: إنه لم يكن يفكر وقت السلام سوى في الشئون العسكرية وكثيراً ما كان يقف بين أصحابه خارج المدينة ويسألهم إذا كان العدو فوق هذا التل ووجدنا أنفسنا هنا مع قواتنا، فأي منا ذو وضع مميز؟ وكيف يمكننا الاقتراب من العدو مع الحفاظ على نظامنا؟ وإذا أردنا الانسحاب.. ماذا يجب أن نفعل؟ وإذا انسحب العدو فكيف يمكننا أن نتبعه؟ ثم كان يحدثهم أثناء السر عن كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث للجيش وكان يستمع لآرائهم ويعطيهم رأيه ويؤكده بالبراهين لذلك فهو لم يتعرض لأي حادث لم يكن يتوقعه أثناء قيادته للجيوش وذلك بفضل هذه المناقشات الدائمة.

أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب، ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسببات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذى سبقوهم قدوة لهم فيقال إن الإسكندر الأكبر قد قلد أعمال (أخيلس) واقتدى (اسكيبيو) بكورش كما أن كل من يقرأ حياة (كورش) التي سجلها (اكسينوفون) سيتضح له كيف أن (سكيبيو) قد اقتدى (بكورش) في حياته وقلده بشدة، فتحلى بصفاته من طهر ورقة وعظيم صفات وكرم.

وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلى الكسب أبداً وأن يصر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان حتى أنه يستطيع أن يكون مستعداً لضربات القدر حين تتغير الأحوال وأن تكون له السيادة وقت الشدائد.

ولم يبق الآن سوى أن ننظر فيما يخص طريقة الأمير في اختيار رعاياه وأصحابه

وأنا أعلم أن هناك الكثير ممن سبقونى للكتابة فى هذا الموضوع وأخشى أن يعتبر ما أكتبه نوعاً من الغرور حين يختلف عما كتبه الآخرون لكننى لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها وأن الأصح هو أن تكتب ما يفيد الآخرين وليس ما تتخيله فقد تخيل الكثيرون جمهوريات لم ترها عين إنسان أو تخطر على ذهن آخرين غيرهم، وليس لها وجود فى الحياة التى نحياها وشتان بين حياتنا كما نحياها، وبين ما ينبغى أن تكون ولا يجب علينا أن نترك ما نقوم به من أفعال فى سبيل تحقق ما ينبغى تحقيقه على أتم وجه فهذا سعى للفناء وليس للبقاء فى أفضل حال فمن يريد الخير لن ينعم أبداً إذا كان حوله الكثير من الأشرار لذلك يجب على الأمير الذى يريد الحفاظ على نفسه أولاً، أن يعرف كيف يكون خيراً وليس شريراً ومتى يستخدم هذه الصفة؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة؟.

لهذا فإننى حين أتخلى عن الحديث فى الأمور التى تخص الأمير من ناحية الخيال فقط وأتكلم عن الأمور الواقعية فكل الناس يذكرون لأعمالهم المجيدة، وخاصة الأمراء حيث إنهم أعلى منزلة من غيرهم وهناك خصال معينة تجلب عليهم اللوم، وأخرى تكسبهم المديح والثناء فالناس يعتبرون هذا سخياً وذلك مقتراً، وهذا معطاء يعطى بسخاء وذلك جشع هذا قاس، وذلك عطوف هذا لا يصون وعوده وهذا جدير بالثقة، وهذا جبان رعديد، وذاك مقدام وعنيف، هذا رقيق وذلك متغطرس، هذا فاسق، وذلك عفيف هذا صريح وذاك ماكر، هذا صعب المراس وذلك سهل الانتقاد هذا جاد جداً فى كل أموره، وذاك ساخر، وهذا متدين، والآخر غير ملتزم بأمور دينه وغيرها من أمثلة ومن الواضح أن كل أمير يتصف بكل الصفات الخيرة السابقة سينال ثناء كبيراً من الناس ولكن لما كان من غير الممكن أن يحوز كل هذه الصفات وذلك لأن صفات البشر لا تسمح بذلك كان من الضرورى بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية، تمكنه من

تحاشى أى فضيحة بسبب رذيلة من هذه الرذائل، والتى قد تفقده الولاية ويقى نفسه من شرور الصفات الأخرى.

وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تماماً هذه الرذائل، ويحترس جداً فقط من تلك التى قد تسبب هلاكه ويجب عليه ألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التى يصعب بدونها المحافظة على الولاية وذلك لأننا إذا نظرنا للأمور نظرة صحيحة لوجدنا أن بعض ما يبدو فضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذى يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعادته.

من الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص هذا ما قاله ويؤكده مكيافيللي

حيث يقول مكيافيللي: والآن إذا تناولنا أولى هاتين الصفتين فإنى أقول: من الأفضل للأمير أن يكون كريماً سخياً إلا أن السخاء بمعناه عند العامة قد يؤذى صاحبه وذلك لأنه إذا استخدم الكرم بالطريقة الصحيحة وبمعناه الحقيقي، فلن يعلم أحد عنه أى شيء، وبالتالى يوصم صاحبه بالرذيلة المضادة وهى الشح والتقتير لكن على من يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس ألا يتخلى عن كل المظاهر الفخمة، لأن سخاء الأمير إذا وصل إلى هذا الحد سيستهلك جميع موارده، فيضطر إلى فرض الضرائب الباهظة على شعبه وجباية الأموال فى سبيل المحافظة على هذه الشهرة وهذا يبدأ الكراهية له فى صدور رعاياه، فهو قليل الاحترام حين يصبح فقيراً، كما أنه سيكون قد اضر الكثيرين بسخائه ال ذى لن يستفيد من سوى القلة ويؤثر فيه أول اضطراب بسيط، ويحيط به الخطر عند حدوث الشدائد بسرعة، فإذا ما أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يغير من طبعه، فإن يتهم بالشح والتقتير.

لذلك يجب على الأمير الذى يستطيع ممارسة عادة السخاء بطريقة تضره ألا يخشى أن يوصم بالتقتير، لأنه سيعتبر سخياً مع مرور الزمن، حين يعرف أن

اقتصاده جعل الدخل كافياً للدفاع عن النفس ضد من يريد أن يشن على حرباً كما يمكنه القيام بالكثير من الأعمال العظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه، فيصبح سخياً فى نظر من لم يحصل منهم مالاً، وعددهم لا يحصى، وهو مقتر بالنسبة لمن لم يعطهم، وهم قليلون ونحن لم نر فى أيامنا أعمالاً عظيمة إلا لمن كانوا فى عداد المقترين، وقضى على جميع من عداهم إن البابا جوليوس الثانى كان فى حاجة لهذه السمعة حتى يتمكن من شن الحرب كما أن ملك فرنسا الحالى قد استطاع شن عدة حروب كثيرة دون فرض أى ضريبة استثنائية على شعبه، وذلك لأن ما وفره فى فترة طويلة زاد عما أنفقه عليها ولو عرف عن ملك أسبانيا الحالى أنه كريم لما تمكن من أن يقوم بكل هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولكل هذه الأسباب لابد للأمير ألا يعبأ إذا ما وصف بالبخل، إذا أراد ألا يفقد رعيته، وأن يكون قادراً على حماية نفسه، وألا يصبح حقيراً وفقيراً، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً إن الشح رذيلة تمكنه من الحكم فإذا قيل أن القيصر قد بلغ الإمبراطورية بالسخاء وصعد كثيرون غيره إلى أعلى مترلة بالسخاء أو باشتهارهم به، فإنى أرد على ذلك قائلاً إنك إما أن تكون أميراً حديث العهد، أو فى طريقك لأن تكون أميراً ففى الحالة الأولى يكون الكرم مضراً، أما فى الحالة الثانية فيجب عليك دائماً أن تكون من شديدى الكرم لقد كان القيصر من هؤلاء الذين يريدون أن يصبحوا أسياد روما لكنه لو بقى على قيد الحياة ولم يغير من طريقة إنفاقه بعد أن بلغ مراده فربما تهدمت الإمبراطورية وسقطت وقد يقال: إن كثيراً من الأمراء الذين حققوا فتوحات عظيمة بجيوشهم كانوا يوصفون أيضاً بشدة السخاء، فإنى أرد قائلاً: إن الأمير قد ينفق من أمواله الخاصة ومن ثروات الآخرين وأموال الرعية ففى الحالة الأولى وهى إنفاقه من أمواله الخاصة لابد أن يعرف عنه الاقتصاد فى الإنفاق، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخياً،

وهو أمر ضروري لأمير يسير بجيوشه، ويعيش على سلب الملكيات، والغنائم، والفدية، فهو ينفق من ثروة غيره كما أن جنوده لن يساندون دون أن يكون سخياً جداً معهم ومن الممكن لك أن تكون سخياً جداً بما لا تملك أو لا يملكه رعاياك، وذلك كما فعل كورش والإسكندر فالإنفاق من ثروات الآخرين لن يحط من سمعتك بل إنه سيعلي من قدرك، ولن يؤذيك سوى الإنفاق مما تملك فقط ولا توجد صفة تحطم نفسها بنفسها مثل صفة الكرم، لأنه كلما زاد كرم المرء فإنه فقد القدرة على المزيد منه، فيتحول إلى إما فقير حقير، أو جشع مكروه حتى يتحاشى الفقر وأهم ما يجب أن يتحاشاه الأمير من هذه الأمور هو أن يصبح فقيراً أو مكروهاً، والسخاء هو ما يقود إلى إحدى هاتين الصفتين ولهذا فمن الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص الذى يجلب له اللعنة وليس الكراهية، وألا يضطر إلى أن يكون جشعاً لأن ذلك يجلب له العار والكراهية معا.

الأمير يجب أن يوصف بالرحمة وليس بالقسوة

هذا ما اكده مكيافيللي: وقال عندما أريد أن أتحدث عن الشدة واللين أقول إنه على الأمير أن ى سعى لأن يوصف بالرحمة وليس الشدة وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأى حال من الأحوال كان قيصر (بورجيا) يوصف بالشدة وشدته هى سبب جالب النظام إلى (رومانا) وتوحيدها، واستتاب الأمن فيها، وضمان ولائها وإذا نظرنا لهذه المسألة نظرة صحيحة، فإننا نرى أن القيصر كان فى الحقيقة أكثر رحمة من الشعب (الفلورنسي) الذى سمح بتدمير (بستويا) تجنباً لأن يوصف بالشدة لذا يجب على الأمى ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة ما دامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديد مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون فى اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات وتسيل الدماء ويحدث النهب

والسلب وهذه أمور تضر الكثيرون بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام فى عدد قليل من الناس لن يؤذى أحداً غيرهم والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من فى حاجة شديدة دون نقية الأمراء للاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة تعانى دائماً من الأخطار يقول (فيرجيل) على لسان ديدو:

حالة بلادى وشئونى مستعصية

دولة فى المهد وعرش متزعزع الأركان

هذه الظروف قاسية

تمنعنى من نشر قواتى فى كل اتجاه

لأحمى أملاكى بقوة وأحرس شواطئى عن كثب

ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر من كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل.

ومن هنا تبزغ مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوباً أكثر منه مهاباً أم مهاباً أكثر منه محبوباً والجواب هو أنه ينبغى على الإنسان يكون محبوباً ومهاباً فى نفس الوقت ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معاً، فإن المهابة فى هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معاً لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر أنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة فى الحديث ومرائين، حريصون على تجنب الخطر، راغبون فى الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك، إن الأمير الذى يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التى يمكن شراءها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة

إن البشر يترددون فى الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم فى إيذاء من يهابون وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التى تتفكك عندما تؤدى غرضها (وذلك بسبب أنانية الناس) لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً.

ما زلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أى حال وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معاً ويستطيع تحقيق ذلك كل من يمتنع عن التدخل فى أمور أملاك رعاياه ونسائهم وعليه ألا يأمر بإعدام أى شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك ويوضح أسبابه لكنه يجب عليه - قبل كل شيء - الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبه بسهولة عن نسيانه لضياع ميراثه كما أنه لا حاجة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغير فمن يعيش على النهب سيجد دائماً سبباً يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعدام أقل بكثير وتزول سريعاً.

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنود فإنه يتحتم عليه أن يعرف بالشدة لأنه بدون هذه السمة لن يحافظ على وحدة الجيش أو يؤدى أى مهمة إن من بين منجزات (هانيبال) الجديرة بالذكر أنه على الرغم من وجود جيشه العرمرم ووجود الجنود فيه من دول كثيرة ومحاربته فى دول أجنبية، إلا أنه لم يقع بينهم أى مشكلات أو يثوروا ضد الأمير سواء كان ذلك فى السراء أم فى الضراء وهذا لا يرجع إلى أى سبب سوى شدة (هانيبال) التى جعلته (بالإضافة إلى فضائله الأخرى التى لا تحصى) عظيماً بين جنوده ومهاباً باستمرار وما كانت قدراته كافية لتحقيق هذا الأثر لو لم يكن شديداً والكُتاب الذين لا يفكرون جيداً يعجبون بأعماله جهة، ومن جهة أخرى يلومونه على

شدته وهى السبب الرئيس لإنجاز هذه الأعمال.

ومن الممكن أن نلاحظ أن بقية خصاله لم تكن كافية وحدها فى حالة (سكيبو (وهو مشهور ليس فقط فى عصره، لكن ذكراه باقية فى كل العصور فقد ثارت عليه قواته فى أسبانيا، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى شفقته المفرطة، مما أتاح لجنوده قدراً من الفوضى، لا يتفق مع الحياة العسكرية وقد لامه (فابيوس ماكسيموس) على ذلك، وأطلق عليه لقب (مفسد الجندية الرومانية) فقد دمر أحد ضباط سكيبوط (لوكرا) فلم يقتص منه لذلك، ولم يعاقبه، والسبب ببساطة هو طبيعته المتساهلة لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ أراد أن يلتمس له العذر فقال: إن هناك أناساً كثيرون يعرفون كيف يتجنبون الأخطاء، أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين وكان من الممكن لهذا الاستعداد أن يقلل من شهرة (سكيبو) لو استمر على ذلك فى عصر الإمبراطورية، لكن فى ظل مجلس النواب لم تختف هذه الصفة فقط ولكنها كانت سبباً لشهرته فى نفس الوقت.

ولذلك فإنى أختم حديثى عن مهابة الأمير، وحب الناس له فأقول: إن الناس يحبون بمحض إرادتهم الحرة لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العا قل أن يعتمد على ما له من سلطان، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة كما سبق أن أوضحت.

أفضل طرق القتال؛ كما يراها مكيافيللي

يقول مكيافيللي: كلنا نعرف مدى الثناء الذى يناله الأمير الذى يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة دون مكر لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلاً وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم.

ويجب أن نعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية للحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية فى أغلب الأحوال، فإن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية ولهذا فمن الضرورى للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين وقد علم الكُتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا له به فهم يرون أن (أخيليس) وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلو إلى (كيرون) ليربيهم ويعلمهم بطريقته وهم يقصدون من صورة هذا المعلم ذى النصف البشرى والنصف الحيوانى أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معاً، فواحدة منهما لن تدوم بدون الأخرى.

ولهذا السبب كان الأمير يضطراً إلى أن يعلم جيداً كيف يتصرف كالحيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب على المرء إذن أن يكون ثعلباً ليواجه الفخاخ ويكون أيضاً أسداً ليخيف الذئاب ومن يريد أن يكون أسداً فقط لا يفهم الأمور جيداً فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهداً يكون الوفاء به ضد مصلحته وألا يستمر فى الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريراً لكن هذا يصدق فقط فى حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار لكن إذا كانوا جميعاً من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك فهذا يسمح لك أن تكون فى حل من عهودهم فلم يفشل أى حاكم فى اختلاق الأعذار المقبولة التى يبرر بها عدم الوفاء بالعهد. وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة فى العصر الحديث تؤكد ذلك، وتوضح أن هناك وعوداً كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء بها. كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققوا أفضل نجاح ولكن لابد لك أن تكون قادراً على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتستطيع التمويه

والخداع حيث إن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أى أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل (الإسكندر السادس) شيئاً سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائماً ما واتته الفرصة لتحقيقه فلم يتفوق عليه أحد فى قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أحد فى عدم الوفاء بالعد، وكانت حيله دائماً موفقة تحت أى ظروف، لأنه كان يفهم هذا الأمر جيداً.

وليس من الضرورى للأمير أن تكون لديه كل الخصال التى سبق ذكرها، على أنه من الضرورى أن يبدو عليه أنه يتصف بها وأستطيع أن أقول: إن المحافة على التحلى بهذه الصفات، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أى حال وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيماً، وفياً حلو الصفات، صادقاً، متديناً، وأن يكون كذلك فعلاً، وليس مظهراً فقط ولكن يجب أن يتهيأ عقلك لكى تتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيراً، وذلك لأنه فى سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين ولذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أى ريح قد تهب عليه، ومع تغييرات المستقبل كما يجب عليه (كما سبق أن قلنا) أن لا يبتعد عن الخير قدر الإمكان مع قدرته على ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها.

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطق إلا بما يسبغ عليه من الصفات الخمس الطيبة السابق ذكرها ولابد له أن يبدو رحيماً وصادقاً ومستقيماً ومتديناً أمام من يراه ويسمعه وهذه الصفة الأخيرة ضرورية جداً لأن الناس يحكمون على ما يرونه بأعينهم، وليس على ما يدركونه، فكلنا يستطيع الرؤية، لكن قلة قليلة

منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذى أنت عليه، وهى غير قادرة على مواجهة الكثرة التى تحميها مهابة الأمير وفى كافة الأعمال البشر -وخاصة الأمراء- فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه؛ فعلى الأمير إذن أن يهدف للفوز بالولاية والمحافظة عليها، وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنه شريفة ويمدحونها أيضاً فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجى وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة أما غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير وهناك أمير فى عصرنا - لا داعى لذكر اسمه- كان كل ما يفعله هو الدعوة للسلام والوفاء، وهو فى الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأى منهما فى مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

يسقط الأباطرة بسبب الكراهية أو الاحتقار

هذا ما اكده مكيافيللي: أما وقد تحدثنا عن أهم الصفات التى نتناولها فى هذا الكتاب، فسأعالج الآن بالتفصيل كافة الصفات الأخرى فيجب على الأمير، كما قلت سابقاً أن يجتنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه ولا يكون قد قام بدوره إلا حين يوفق فى هذا الأمر ولن يكون فى بقية الرذائل أى خطر وأول ما يجعل الأمير مكروها -كما قلت من قبل- هو أن يكون جشعاً، وأن يغتصب ممتلكات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجب عليه أن يمتنع عنه ومادام الأمير لا يتعدى على ملكية عامة الناس أو نساءهم، فإنهم سيعيشون فى رضا، ولن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة من الناس الذين يمكن السيطرة عليهم بطرق عديدة ويكون الأمير محتقراً حين يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمة وهذا يجب تجنبه كما يتج نب القبطان صخرة قاتلة ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة، والقدرة، والمجد وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا

يفكر إنسان فى أن يضلله أو يخدعه.

إن الأمير الذى يخلق هذا الرأى عن نفسه عند الناس يحظى بسمعة عظيمة ومن الصعب أن يتآمر عليه أى إنسان ولن يعتدى عليه أى معتد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، وتحترمه رعيته ويجب على الأمير أن يخشى شيئين: الأول داخلى وله علاقة بالرعايا، والثانى خارجى وله علاقة بالقوى الأجنبية يستطيع الأمير أن يحمى نفسه من الأمر الثانى بالأسلحة الجيدة والأصدقاء والمخلصين، وهؤلاء الأصدقاء يتوافرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة أما الأحوال الداخلية، فإنها ستظل هادئة دائماً ما لم تثيرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب فى الخارج وحتى إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائماً ويتمكن من مواجهة كل الصعاب، وذلك مثلما حدث مع (نابيس) الإسبرطي. أما بالنسبة للرعايا فيجب عليه أن يحتاط من تآمرهم عليه سراً، وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقاً لنصائح أجنبية وهذا من الممكن له تجنبه جيداً بالبعد عن أن يكون محتقراً أو مكروهاً، وذلك ببقاء العب راضياً عنه، ومن الضرورى تحقيق هذا الأمر، وكما قلت تفصيلاً من قبل كما أن أفضل علاج للأمير ضد أى مؤامرات هو حب الشعب له لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضى العش إذا اغتال الأمير لكنه لو علم أن سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنه سيتجنب تلك الفعلة لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى وهذا ما يجعل كثيراً من المؤامرات تقع دون أن تنجح، وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكاً سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين له نية المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء إتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولابد لكى يستجيب لك أن يكون واحداً من اثنين: إما صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير

ولتوضيح هذا الأمر بإيجاز أقول: إن المتآمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقد والشك والعقاب أما ألأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أى إنسان على أن يتآمر عليه كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضاً بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدواً له فى هذه الحالة، ولا ملاذ منه.

ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، ولكنى سأكتفى بمثال يذكره آباؤنا لقد تآمر (الكنسكي) على (هانيبال بنتوفلي) أمير بولونيا، وهو جد (هانيبال) الحلى ولم يكن له أى أقارب سوى (جيوفاني) وكان لا يزال طفلاً فى ذلك الوقت ولكن بعد الاغتيال ثار الشعب وقتل (الكنسكي) جميعاً وذلك بسبب السيرة الطيبة التى تتمتع بها عائلة (بنتيفولي) فى ذلك الوقت وقد كانت عالة عظيمة لدرجة أن أهل بولونيا حين عرفوا أن هناك فرداً من أسرة (بنتيفولي) يعيش فى (فلورنسا)، وكان يعتقد أنه ابن حداد، ذهبوا إليه ليحضروه ونصبوه حاكماً على المدينة، وظل يحكمها حتى أصبح (جيوفاني) شاباً وفى سن مناسبة لتولى الحكم، حيث لم يكن هناك خليفة آخر لهانيبال سواه.

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء إن الولايات التى تقوم على نظام جيد وأمراء ذوى عقل أولى همة لا يجعلون النبلاء يضيقونهم، ويجعلون الشعب راضياً عنهم، ويحافظون على هذا الرضا وهذا من أهم الأمور التى يجب أن يهتم الأمير بها.

وفرنسا من الممالك التى تتمتع بنظام حكم جيد فى عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة، وهى ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحريته

وأول هذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، وذلك لأن من أقام هذه المملكة يعرف مطامع علية القوم، وغطرستهم، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جماحهم وهو يعرف -من ناحية أخرى - الكراهية التي يشعر بها الشعب تجاه علية القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنشأ حكماً ثالثاً (البرلمان) يكبح جماح النبلاء دائماً ويجامل البسطاء وما كان من الممكن فعل ما هو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والمملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختاماً أقول: إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضاً ألا يجعل عامة الشعب يعادونه.

وقد يبدو للبعض أننا عندما نتناول حياة كثير من الأباطرة الرومان أنها تعارض رأيي، فبعضهم قد عاش حياة النبلاء وأظهروا قوة عظيمة، مع ذلك فقدوا إمبراطورياته، وقتلهم من تآمر عليهم من رعاياهم وعندما أود الرد على هذه الاعتراضات، فإني سأناقش صفات بعض الأباطرة مبيناً أسباب هلاكهم التي لن تختلف عم اقتل، وسأتناول أيضاً بعض الأمور التي يجب أن يلاحظها كل من يقرأ عن هذه العصوز وأكتفي بالحديث عن جميع الأباطرة الذين تعاقبوا على الإمبراطورية بداية من (ماركوس) الفيلسوف حتى (ماكسيمينوس) وهم: (ماركوس) وولده (كومودوس) و(برتينكس) و(جوليانوس) و(سيفروس) وولده (أنطونيوس) وولده (كراكلا) و(ماكرينوس) و(هاليوجابالوس) و(الإسكند) و(ماكسيمينوس) وأول ما يمكن هو أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهي ضرورة تحمل قسوة الجنود وجشعهم، وهذا قد بلغ مداه حين أصبح سبباً في سقوط الكثير من الأباطرة، فلم يكن من المستطاع إرضاء الشعب والجيش معاً بسهولة، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة أن

يواجهوا مطامع الطبقة الراقية ومغالاة الشعب فقط فالشعب يحب الهدوء، وبالتالى يحب الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية والكبرياء والشدة والجشع، وهم يرون أن يمارس هذه الصفات مع الشعب كى يحصلوا منه على رواتب مضاعفة ويجدوا لشجاعتهم وشدتهم متنفساً ولذلك حدث أن هلك كل الأباطرة الذين لم يعرف عنهم القدرة على ضبط الطرفين معاً حيث اقتصر عدد كبير منهم (وهم من كانوا حديثى العهد بالإمبراطورية وعرف صعوبات هذين الاتجاهين المتضادين) على إرضاء الجند ولم يفكر فى أن يسيء إلى شعبه، وهو اختيار حتمى إذا كان الأمير غير قادر على تجنب كراهية طرف من الطرفين وعليهم أولاً ألا تكرههم جموع الشعب، فإن لم يستطيعوا تحقيق ذلك فعليهم أن يفعلوا كل ما هو مستطاع لتجنب كراهية الجانب الأقوى لهم ولذلك فإن الأباطرة حديثى العهد، كانوا فى حاجة إلى اشياء محددة، فناصروا الجنود أكثر من مناصرتهم للشعب وتتوقف فائدة ذلك من عدمها على إدراك الأمير لكيفية المحافظة على سمعته الطيبة بين أفراد الشعب وهذه هى الأسباب التى أدت إلى النهايات السيئة ل (ماركوس) و(برتيناكس) و(الإسكندر) فقد كانوا جميعاً متواضعين، يحبون العدل، ولا يحبون الشدة وأهل لطف ولين وقد عاش (ماركوس) وحدة عزيزاً ومات كريماً، لأنه وصل إلى الإمبراطورية بحقه الموروث، دون تفضل من الشعب أو الجيش، بالإضافة إلى أنه كان يتصف بكثيرة من الفضائل التى جعلته محترماً، وقد حافظ طيلة حياته على الفريقين ولم يتجاوز أى منهما حدوده ولم يكن مكروهاً أو محتقراً أبداً لكن تنصيب (برتيناكس) إمبراطوراً بغير رغبة من الجنود الذين قد ألفوا الفوضى فى عهد (كومودوس) فلم يستطيعوا مجاراة الحياة الشريفة التى أرادها (كومودوس)، ولذلك اصبح مكروهاً، وإضافة إلى احتقاره لكبر سنه، فسقط سريعاً فى بداية حكمه.

ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية، كالأعمال الشريرة، ولذلك فإن الأمير الذي يريد يحافظ على ولايته أن يقترف بعض الشرور، كما سبق أن أوضحت وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب، أو الجيش، أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة.

وإذا تحدثنا عن الإسكندر الذي كان طيباً لدرجة أنهم أثنوا عليهم بقولهم: إنه لم يعدم أحداً خلال الأربع عشرة سنة التي قضاها في الحكم دون إجراء محاكمة عادلة له لكنه اعتبر مخنثاً وأنه أجاز لوالدته أن تسيطر عليه، وهكذا احتقره الناس وسقط في الهاوية، فتآمر عليه جيشه وقتله.

وحين تنظر بتمعن إلى صفات (كومودوس) و(سيفيروس) و(أنطونيوس) و(كاراكلا) و(ماكسيمينوس) تجد أنهم قد وصلوا في القسوة والجشع إلى أقصى حد، ولم يفرضوا على الشعب أي شيء يسيء إليه إرضاء للجنود، وكانت نهايتهم جميعاً سيئة عدا (سيفيروس) حيث كانت له القدرة التي مكنته من أن يحكم حكماً موفقاً بأن حافظ على جنوده كأصدقاء له، بالرغم من بطشه بالشعب، وذلك لأن صفاته جعلته يحوز إعجاب الشعب والجنود معاً، حتى أصبح الشعب مدهوشاً لأعماله بين ما تابعه الجنود وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة باحترامه كأمير حديث العهد، فإني سأوضح باختصار كيف أنه أجاد استخدام صفات الثعلب والأسد، حيث يجب على الحاكم أن يقلدهما بها أن (سيفيروس) قد كان قائداً للجيش في (سلافونيا) ويعرف تكاسل الإمبراطور (جوليانوس)، لذلك فقد أقنع القوات بأنه من الأفضل أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل (برتيناكس) الذي كان الحرس البريتوري قد قتله وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الإدعاء ولم يكشف

عن مطامعه فى العرش، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف عنه أنه قد تحرك إليها وعندما وصل روما انتخبه مجلس الشيوخ إمبراطوراً بدافع من الخوف، وقتل (جوليانوس) وبعد هذه البداية، لم يكن أمامه للسيطرة التامة على الإمبراطورية سوى عقبتين، إحداهما فى أسبانيا حيث يوجد (نجرينوس) على رأس جيوش آسيا وقد نصب نفسه إمبراطوراً والأخرى كانت فى الغرب حيث (البينوس) الذى يطمع فى الإمبراطورية وكان إظهاره للعداء لهما معاً أمراً خطيراً، فقرر أن يخدع (ألينوس) الذى أرسل إليه راغباً فى أن يشاركه الفخر باختيار مجلس الشيوخ له ولقبه بالقيصر، ونودى به كشريك ل (سفيروس) وذلك بأن عرض الأمر على مجلس الشيوخ. وقد صدق (البينوس) كل هذا واعتبره صادقاً. ولكن بعد أن هزم (سفيروس) (نجيروس) وقتله، واستتبت الأمور فى الشرق، عاد إلى روما، واتهم (البينوس) فى مجلس الشيوخ بأنه سعى إلى اغتياله، ولم يراع النعم التى تفضل بها عليه، وأنه مضطر للذهاب إليه، ومعاقبته على ذلك الجحود ثم ذهب لملاقاته، وجرده من منصبه وحياته معاً.

وكل من يتنازل أعمال (سفيروس) بدقة سيجده أسداً مفترساً وثعلباً ماكراً، وهو مهاب وجليل عند الجميع، لا يكرهه الجيش، وكان له سلطان كبير كما أن سمعته الطيبة حمته من كراهية شعبه التى من الممكن أن تحدث بسبب جشعه لكن ابنه (أنطونيوس) كان صاحب قدرات عظيمة، وصفات جعلته جديراً بإعجاب الشعب، ومحبوباً من الجند فى نفس الوقت فقد كان رجل حرب، وقادراً على تحمل الصعوبات الشديدة، لا يحب تناول ما لذ وطاب من طعام، وكل أنواع الترف الأخرى هى خصال جعلت الجيوش جميعها تحبه إلا أن وحشيته وقسوته كانتا واضحتين جداً، ولم يكن لهما مثيل، وقد تسبب فى قتل عدد كبير من روما، وبعد أن أعدم الكثير من الناس، أصبح كافة الشعب يمقته، ويخشاه من حوله،

حتى قتله قائد فرقة من فرقة المائة بين أفراد جيشه.

والآن ننتقل إلى (كومودوس) الذى كان باستطاعته أن يحتفظ بالإمبراطورية بكل سهولة فقد كان وريثاً لها، فهو ابن (ماركوس) وقد كان من الممكن أن يكتفى بإتباع ما كان يفعله أبو، حتى يرضى عنه الشعب والجيش معاً ولكنه مال إلى أن يكون صارماً بوحشية، وعمل على مجاملة الجيش، حتى يستطيع أن ينهب شعبه ولكنه من ناحية أخرى أصبح حقيراً فى نظر جنوده بسبب عدم حفاظه على مركزه وذلك لأنه كان يترل فى أحيان كثيرة إلى حلبات المصارعة، ويتحدى المصارعين، بالإضافة إلى أعمال مشينة أخرى لا تليق بعظمة الإمبراطور ولما كان مكروهاً من ناحية، ومحتقراً من ناحية أخرى، تآمروا عليه وقتلوه.

أما إذا أردنا وصف شخصية (مكسيمينوس). فقد كان رجل حرب بارعاً وكانت الجيوش قد ضاقت بتخنث الإسكندر الذى تحدثنا عنه قبل قليل فانتخب (مكسيمينوس) بعد موت الإسكندر إمبراطوراً، لكنه لم ينعم بذلك طويلاً، فهناك شيئان قد جعلاه مكروهاً وحقيراً، الأول: هو أصله الوضيع المعلوم للجميع، مما سبب احتقاره فى جميع الأحوال والثاني: أنه وفى بداية عهده أجل الذهاب إلى روما ليعتلى العرش الإمبراطوري، وقد عرف عنه الصرامة الشديدة كما اقترف على يد نواب الحكام أعمالاً قاسية متعددة، وذلك فى روما وفى نواح متفرقة من الإمبراطورية لذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله، والكراهية خوفاً من وحاشيته، دفعا الجميع إلى السخط عليه، فبدأ التآمر فى إفريقيا أولاً ثم فى مجلس الشيوخ، وكل شعب روما وايطاليا فيما بعد انضم إليهم الجنود الذين غضبوا من قسوته حين كانوا يحاصرون (أخيلية) وكان حصارها أمراً شاقاً وحين أدركوا أن له أعداء كثيرون، لم يخافوا منه وقتلوه.

ولن أتطرق للحديث عن (هليوجالوباس) و(ماكرينوس) و(جوليانوس)

فقد أخذوا جميعاً على حين غرة، وكانوا غاية فى الاحتقار، لكنى أختتم هذا المقال بقولي: (إن أمراء عصرنا هذا يلقون صعوبات أقل بكثير ممن ذكرت، فهم مضطرون لإرضاء جيوشهم بدرجة كبيرة، وهم إن كانوا ذوى وضعخا ص إلا أن ما يواجهونه من صعوبات سرعان ما ينتهي، حيث لا يوجد من بينهمن من يملك جيشاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإمارات الحكم والمقاطعات كما كان الحال فى الجيوش الرومانية فحينذاك لم يكونوا حريصين على إرضاء الجند قبل إرضاء الشعب سوى لأن الجند أقدر على أن يفعلوا ما لا يمكن للشعب أن يفعله والآن وفيما عدا الأتراك ومماليك مصر، فإن إرضاء الشعب أكثر من الجنود أمر يلتزم به الأمراء كافة لن الشعب يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الجنود وأنا استثنى سلطان الأتراك من ذلك لأنه يحتفظ باثنى عشر ألفاً من المشاة حوله دائماً، وخمسة عشر ألفاً من الفرسان، وعليهم تتوقف سلامة المملكة وقوتها. وكان من الضرورى بالنسبة له أن يؤجل أى شيء آخر حتى يتأكد من ولاء هؤلاء جميعاً له وكذلك الحال بالنسبة للمالك، فالسلطان ملزم بالحفاظ على ود الجنود، دون النظر إلى الشعب. ويمكننا أن نلاحظ أن ولاية السلطان تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين فهى تشبه البابوية المسيحية، فهى لا يمكن أن تسمى ولاية ملكية وراثية، ولا هى مملكة حديثة العهد، فأبناء الأمير الذى يرحل لا يرثونه ولكن يرثه خليفة فى الحكم ويختاره أصحاب النفوذ وهو نظام قديم ولا يمكن اعتباره مملكة حديثة العهد، لأنه يخلو من الصعاب التى توجد فى الإمارات الجديدة وعلى الرغم من أن الأمير يكون جديداً إلا أن قواعد الولاية قديمة ومنتظمة، وهو يستقبل كما لو كان وريثاً للعرش.

وإذا عدنا إلى موضوعنا فإنى أقول: كل من يدرس الحجج السابقة سيعرف أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم كانت إما الكراهية، أو الاحتقار، وسيعرف أن بعضهم قد سار على طريق والبعض الآخر سار على طريق آخر وفى كلا الطريقين نجح

البعض، وفشل البعض الآخر لقد حالو (برتيناكس) و(الإسكندر) تقليد (ماركوس) بلا فائدة بل إنها كانت محاولات ضارة فقد كان كلاهما أميراً حديث العهد، وكان (ماركوس) أميراً موراثياً وهو نفس حال (كاراكلا) و(كمودوس) و(ماكسيمينوس) فقد أضيروا جميعاً من تقليدهم ل (سفيروس) فلم تكن لهم القدرة الكافية التى تمكنهم من السير على منهجه ولذلك فإن الأمير حديث العهد لا يستطيع تقليد أعمال (ماركوس) أثناء ولايته، ولا لزوم لأن يقلد (سفيروس) لكنه عليه أن يأخذ من هذا وذاك ما يفيده ويرفعه ليحافظ على ولاية وصل إليها وهى قائمة وسالمة بالفعل.

الأمير يصبح عظيماً حين يتغلب على المعارضة وعلى الصعاب

يقول مكيافيللي: لقد تعمد بعض الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم بينما حفاظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أ ولئك الذين شكوا فيهم فى بداية الحكم إلى جانبهم وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها، وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً فى هذه الأمور دون أن يتعمق فى تفاصيل حياة الولاية التى سيتحدث عنها، ولذلك سأتحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان.

لم يشتهر أى أمير بأنه يترع سلاح رعاياه، بل إنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزلاً، وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكاً لك وسيخلص لك من كان فى قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم، وسيتحول من كان مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل، لكنك عندما تسلح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف فى المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاءً لك كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون

بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديراً أكبر أما إذا نزعت منهم السلاح، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبدو بمظهر غير الواثق منهم، إما لأنهم من الجبناء أو لقلة ثقتك فيهم، وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك فى نفوسهم وبما أنك لا تستطيع أن تبقى أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء، وضد رعايا مشكوك فى أمرهم، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد فى مملكة جديدة يكونوا دائماً مسلحين حينما يستولى على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

ولكن الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمن الضرورى أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب، ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة فى أيدى الجنود الذين يعيشون بالقرب منه فى ولايته القديمة.

إن أجدادنا والذين يعتبرون من الحكماء اعتادوا أن يقولوا: الأحزاب السياسية ضرورة للسيطرة على (بستويا)، والقلاع وسيلة للسيطرة على (بيزا) وهم قد أثاروا الخلافات فى بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا حكمها بسهولة وهذا أمر صالح فى ذلك الوقت الذى كانت فيه إيطاليا تنافس القوى الكبيرة ولكنه لا يبدو لى مناسباً فى الوقت الحاضر وذلك لاعتقادى بأن الأحزاب التى تنشأ هذه الطريقة لا تأتى بأى فائدة.

وأعتقد أيضاً أن البنادقة قد رحبوا بالتفرقة بين كتلتى (الجولف) و(الجبلين) فى المدن الخاضعة لهم ومع أنهم لم يسمحوا لهم بإراقة الدماء إلا أنهم شجعوا وجود الخلافات وذلك لأن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يتحركون ضد البنادقة لكنهم لم يصلوا إلى أى فائدة من ذلك على أى حال،

فكما رأينا أنه بعد الهزيمة فى (فايلا) تشجعت جماعة من المواطنين وقامت فجأة بالاستيلاء على كامل الولاية.

وما من شك فى أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العداء بين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليهم ويكبحهم.

إن الأمراء وخاصة حديثى العهد منهم - قد وجدوا من هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم بشك فى بداية عهدهم إخلاصاً أكثر مما وجدوه فيمن كانوا موضع ثقتهم منذ البداية وقد حكم (بانولفوبتروتشي) ولايته بمن شك فيهم أكثر من حكمه لها بغيرهم ولكننا لن نسهب فى هذا الموضوع ولكننى أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأى السيئ الذى سبق للأمير أن كونه عنهم وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها لاطمئنانهم إليه.

ولكنى أغفل ذكر الأمير الذى أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سراً، لأن الموضوع يتطلب ذلك، وأرى أن عليه أن يضع فى اعتباراته تلك الدوافع التى أدت بهم إلى ذلك فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات كثيرة، وذلك لأن رضاهم عنه من المستحيل.

وحين نتناول أسباب الأمثلة التى استخرجتها من الأزمة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك فى النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا فى بداية العهد، أسهل كثيراً من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم.

وقد تعود الأمراء على إقامة القلاع حتى يستطيعوا السيطرة على ولاياتهم بسلام، وهى تعتبر وسائل دفاعية قوية ضد من ينوى لهم شراً، كما أنها ملاجئ آمنة عند حدوث هجوم مفاجئ وأنا مع هذه الطريقة التى استخدمت منذ القدم إلا أننا نرى أن (نيقولا فيتللي) يهدم فى عصرنا الحالى قلعتين فى (سيتا دى كاستللو) لكى يحتفظ بالولاية، كما أن دوق أوربينو (جيدو بالدو) يدمر كافة الحصون فى أراضيه التى طرده منها قيصر (بورجيا) لكنه حين عاد إليها وجد أن ضياع بلاده مرة أخرى وهى بدون حصون أصعب مما لو كانت لازالت باقية وعلى هذا فإن فائدة القلاع تتوقف على الفترة الزمنية التى تمر بها وهى إن كانت ذات قيمة جيدة فى وقت ما، نجدها مضرة فى وقت آخر وعلى ذلك يمكننا أن نتناول الأمر بهذه الطريقة: على الأمير الذى يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع، وعلى من يخشى الأجانب أكثر من خشيته لشعبه أن يظل بدونها إن قلعة ميلانو قد تسببت وسوف تسبب لعائلة (سفورتسا) متاعب تفوق أى اضطراب آخر شهدته هذه الولاية ولهذا فإن أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأميرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهى لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيشهر السلاح فى وجهك ولن يكون فى حاجة لأجانب يساعدونه ولم نر أى مثل فى عصرنا الحاضر لحصون استفاد منها الحاكم فيما عدا الكونتيسة (فورلي) عندما مات زوجها الكونت (جيرولامو) فقد استطاعت بفضل حصنها أن تفر إليه من الشعب، وتنتظر المساعدة من (ميلانو) من ثم تستعيد الولاية وقد كانت الظروف فى ذلك الوقت لم تسمح للأجنبى بأن يساعد الشعب وفيما بعد لم تستفد الكونتيسة مما تملك من قلاع أى فائدة، وذلك حين هاجمها قيصر (بورجيا) وكان شعبها يعاديها فتحالف مع الأجنبى وقد كان من الأفضل للكونتيسة أن تكون محبوبة من شعبها بدلاً من أن تملك القلاع والحصون وعلى ذلك فإنى أمتدح من

يقيم الحصون ويستخدمها استخداماً صحيحاً في وقت مناسب، كما أمتدح من لا يقيمها عندما يكون في إقامتها خطر عليه وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويثق بها ولا يهتم كثيراً بكراهية الشعب له.

أعمال الأمير العظيمة وحدها تكسبه الاحترام

يقول مكيافيللي: لا شيء يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة وفي عصرنا هذا لدينا مثال وهو (فرديناند) ملك (أرجون)، وملك (أسبانيا) الحالي ويمكننا أن نسميه أميراً حديث العهد، فقد أصبح أول ملك في العهد المسيحي، بعد أن كان ملكاً ضعيفاً، وذلك بعدما اكتسب الشهرة والمجد وإذا ما تناولنا أعماله كلها فسنجدها كلها أعمالاً عظيمة جداً، وبعضها خارق للعادة فقد هاجم غرناطة في بداية عهدهن وكانت هذه الحملة أساساً لمجده فقد عمل ذلك وهو لا يزال خالي البال، لا يخشى تدخل أحد كما جعل عقول بارونات (كاستيل) تنشغل بهذه الحملة، فلم يخطر ببالهم تجديد الأوضاع السياسية، ولم ينتبهوا إلى أنه بذلك قد نال شهرة وسلطاناً على حسابهم كما أنه صان جيشه بأموال الكنيسة والشعب، ومن خلال تلك الحرب الطويلة وضع أسساً لقوته العسكرية التي اشتهر بها فيما بعد بالإضافة إلى استخدامه للشدة الدينية، مما مكنه من أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، فقضى على المغاربة قضاء مبرماً، وطردهم من مملكته، كل ذلك تحت شعار الدين وهو مثال سياسي نادر، حيث هاجم إف ريقيا بنفس الطريقة أيضاً، كما قام بحملته على إيطاليا، وعلى فرنسا فيما بعد وكان يصطنع مشكلات كبيرة ألهت عنه الرعية، وجعلتهم مشغولين بصفة دائمة وقد نتجت هذه المشكلات عن بعضها البعض فلم يعط الناس فرصة للاستقرار والعدل ضده.

ويستفيد الأمير أيضاً فائدة كبرى عندما تكون له أعمال عظيمة وبارزة في

الإدارة الداخلية، مثل ما ينسب إلى (برنابو الميلاني) ومن الناحية الدينية يجب على الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب، وهو أمر كثر الحديث عنه، وهما يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فذ سواء كان خيراً أم شراً وعلى الأمير أيضاً أن يسعى فى كل الأعمال التى تكسبه شهرة بالعظمة والتميز.

ويحترم الأمير بشدة إذا كان خلصاً فى الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداءه لفرد ما وهى سياسة أكثر نفعا له من أن يبدوا محايداً دائماً فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أى منهما، أو لا يخشاه وأياً كانت الحال من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتلعن الحرب فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر فى الحالة الأولى وهذا يرضى الدولة المنتصرة ويقنعها ولن تستطيع تبرير موقفك أن الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك فى أمره، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة كما أن المقهور لن يقابلك أيضاً لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته.

لقد أرسل الأيتوليون (أنتيوكس) إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها، كما أرسلوا الخطباء إلى الآخيين لاذين كانوا أصدقاء الرومانيين لتشجيعهم على البقاء على الحياد ومن ناحية أخرى، طلب منهم الرومانيون أن يحملوا السلاح ويعاونوهم وعرض الأمر على مجلس الآخيين للبحث، وسعى سفير (أنتيوكس)، ورد السفير الرومانى على ذلك بقوله: (إن ما يقال عنه خير لدولتكم وذو فائدة لها، هو أبعد شيء عن الحقيقة، لأنكم إن لم تتدخلوا فى الحرب ستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولن يذكر لكم أى فضل أو تنالوا أى ذكر).

وفى أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقاً لك فسيطلب منك البقاء على الحياد والأمراء

ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشياً للأخطار، وهى طريقة غالباً ما تدمرهم لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قوياً وبقيت أنت تحت سلطانه، وستستمر الصداقة بينكما بعد أن بدأت ولن تصل خيانة الرجال بأى حال من الأحوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم فى يوم من الأيام بالإضافة إلى أنه يندر أن يتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل أما إذا هزم حليفك فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادراً على ذلك وتشتركان فى قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد أما فى الحالة الثانية التى يخشى فيها أى من المتحاربين من أى ناحية، يل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغى له أن ينقه لو كان عاقلاً، فإن انتصر - وهذا مضمون بمساعدتك له- فإنه يظل طوع أمرك.

وهنا يتحتم علينا أن نلحظ أن من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هو أقوى منه حتى يعتدى على غيره، إلا إذا كان مضطراً لذلك كما سبق أن أوضحنا، لأنه إذا ظفر هذا الحليف بالنصر، فستظل أنت تحت سلطانه ومن واجب الأمراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع لقد اتحد البنادقة مع دوق ميلانو ارغم أنه كان باستطاعتهم تجنب هذا التحالف الذى أدى إلى تدميرهم ولكن إذا لم يستطع الأمير تجنب ذلك مثلما حدث فى حالة الفلورنسيين عندما ذهب البابا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على (لمبارديا)، وينبغى للأمير حينئذ أن يتحالف مع الآخرين للأسباب السابق ذكرها ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنا أن نجعلها تعتقد أن كل السياسات مشكوك فيها وهذا الأمر من طبيعة كل شيء فالإنسان

عندما يحاول تجنب صعوبة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمة أن نكون قادرين على معرفة طبيعة الصعاب التى تواجهنا وتحديد أقلها ضرراً.

وعلى الأمير أيضاً أن يكرم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمى البارزين فى كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب، وينبغى مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة، أو الولاية بأى طريقة بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهى شعبه بالمهرجانات، والمعارض فى المواسم السنوية المختلفة ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغى للأمير أن يغض بصرة عن كل هذه الطوائف والفئات ويجتمع معهم من وقت لآخر وأن يكون مثالاً أمامهم لعظيم الكرم، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبداً فى أى وقت.

اختيار أمناء الأمراء أمر عظيم الأهمية

يقول مكيافيللي: إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمراً قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وها يتوقف على حكمة وذكاء الأمير ويمكننا أن ن قيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائماً أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمثاله، وأن يحافظ على إخلاصهم له ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأياً غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الاختيار.

وما من أحد تعرف على (أنطونيو دافنافرو) كوزير لباندولفو بتروتشى أمير (سيينا) إلا واعتبره رجلاً حكيماً، وذلك لأن أمينه هو أنطونيو و للرجال ثلاثة

عقول مختلفة: الأول يفهم الأمور دون أن يحتاج لمساعدة من أحد والثانى يفهمها حين يوضحها له غيره، والثالث لا يفهم الأمور بمفرده ولا حين يشرحها له أحدهم والنوع الأول هو أكثر تميزاً والثانى ممتاز أيضاً، أما الثالث فهو عديم المنفعة، ولذا فإن باندولفو إن لم يكن من النوع الأول، فإن من النوع الثانى على أى حال فالأمير دائماً يستطيع الحكم على أعمال الآخرين سواء كانت خيراً أم شراً حتى وإن كان عقل الأمير غير جيد كما أنه يستطيع التمييز بين الأعمال السيئة والأعمال الصالحة ويصحح الأولى، ويحض على الثانية وإذا كان الأمين الأمين لا يستطيع أن يأمل فى خداع الأمير، لذلك فهو يظل صالحاً.

وهناك صفة أخرى يمكن للأميرها أن يعرف وزيره وهى طريقة صائبة دائماً فإذا وجدت الوزير فكر فى نفسه أكثر مما يفكر فى الأمير، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية فى جميع أعماله فإن لن يكون وزيراً صالحاً، ولا يمكنك أن تعتمد عليه فواجب من يمسك بزمام الأمور فى ولاية غيره أن يفكر فى الأمير فقط، ولا يفكر فى نفسه أبداً وألا يهتم بشيء سوى ما يخص الأمير ومن ناحية أخرى ينبغى للأمير أن يصون وفاء أمينه له، فيفكر فى أحواله ويكرمه ويغدق عليه، ويرفع مترلته، ويسند إليه الأعمال الكبرى ويستطيع الأمراء وأمناؤهم الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة، أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هى المضرة دائماً سواء لهذا أو لذاك.

كيف يمكن تجنب المتملقين؟

يقول مكيافيللى فى كتابه الأمير: يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذى لا يمكن تجنبه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسيء الاختيار، وهو الموضع المتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ بهم كل بلاط فالناس يسعدون بما يخصهم، ويخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة وهم يغامرون باحترامهم حين

يودون مواجهته، ويصبحون مزدرين. وليس هناك طريقة أخرى أمام المرء يقيها نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يجب أن يسمع منهم الحقيقة لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهى أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس ويمنحهم الحرية التامة كى يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أى شيء آخر وعليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع رأيهم، ثم يت ناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأى حر كان أكثر قبولاً عند الأمير ولا يجب على الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأن ويفكر جى داً وأن يكون حازماً فيما يتخذه من قرارات ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدى به التملق على التعجل، أو أنه لا يستقر على رأى أبداً، ونتيجة كل ذلك أنه يفقد اعتباره وهيبته.

وسوف أضرب مثالاً حديثاً فقد قال القديس (لوقا) مندوب الإمبراطور الحالى عن جلالته وهو يتحدث عنه: (إنه لم يستشر أحداً أبداً، إلا أنه لم يفعل أى شيء بناءً على رغبته) وهذا يعنى أن أتباعه يفعلون عكس ما تم ذكره ولما كان الإمبراطور رجلاً كتوماً لا يحكى لأحد ما يريد حين ينفذه ويتكشف للجميع، فيخرج الإمبراطور قليلاً عن هدفه ومن هنا يكون ما يفعله اليوم لا يفعل ه غداً ولا يعرف أى أحد ما يريد أن يفعله الإمبراطور ولا ما يقصده وبالتالى لا يستطيع أحد الاعتماد على قراراته.

ولكل هذا ينبغى للأمير أن يستشير دائماً عندما يكون هو فقط فى حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره وينبغى أن يكون الأمير سائلاً محنكاً، ومستمعاً متأنياً لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هى تماماً وهو يحدثه ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقط، لكن ذلك يرجع

أيضاً للمستشارين المحيطين به والقاعدة الثابتة تقول: إن نصيحة المسداة إلى الأمير غير الحكيم لن تجدي، إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلى عن ذاته وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تماماً فى كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفى هذه الحالة سيكون حكمه صالحاً لكن هذا الأمر لا يطول، لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عد د كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعاً فى مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم، ولا يمكن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك ولهذا يجب أن تكون النتيجة التى نصل إليها هي: تعود النصائح الحكيمة لأى ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.

الإهمال وراء ضياع أمراء إيطاليا

يقول مكيافيللى فى كتابه (الأمير) إن مراعاة ما سبق أن ذكرناه من أمور بحكمة يجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم فى الحكم، كما أنه يصبح فوراً أكثر ثباتاً فى الولاية وأكثر سلامة كما لو كان أميراً منذ سنوات عديدة والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذى ورث الإمارة، وحين نعتبر هذه الأعمال أعمالاً فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطاً أوثق مما لو كان أميراً قديماً لأن ما يحدث حالياً يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث فى الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضونها ولا يبحثون عن غيرها ولكن وعلى العكس من ذلك تماماً، فهم سوف يبذلون كل ما فى وسعهم للدفاع عن الأمير وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهداً جديداً وهذا مجد يحسب له، والمجد الآخر يتمثل فى إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقدوة الصالحة بينما يتضاعف عار الأمير الذى يولد أميراً ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة.

وإذا تناولنا من فقدوا عرشهم فى عصرنا بإمعان، مثل ملك نابولى ودوق ميلانوا وغيرهما، فإننا سنجد نقصاً فى أسلحتهم بصفة عامة لأسباب سبق أن ناقشناها بالتفصيل، وأن بعضهم يعاديه شعبه وإذا لم يكن الأمر كذلك فقد يكونون على غير ثقة من النبلاء، فهذه هى الأسباب التى تضيع الولايات ذات الجيوش إن فيليب المقدونى (ليس فيليب أبو الإسكندر الأكبر) بل إنه هو من هزم على يد (تيتوس كونتيوس) لم يكن له دولة عظيمة يمكن مقارنتها بعظمة روما وبلاد الإغريق التى شنت عليه هجوماً قوياً، وكلنه كان رجل حرب يعرف كيف يحصل على مساندة الشعب، وكيف يأمن علِيه قومه، فاستطاع أن يستمر فى الحرب ضد الأعداء سنوات طويلة وإذا كان قد فقد سيطرته على بعض المدن فى النهاية إلا أنه ظل قادراً على الاحتفاظ بالمملكة.

ولذلك على الأمراء الذين يسيطروا على مملكاتهم لسنوات طويلة ألا يتهموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يتهموا إهمالهم، لأنهم لم يحسبوا حساباً للاضطرابات التى د تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم فى ذلك شأن حافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلاً) وحين تتغير الأحوال فوراً بدلاً من الدفاع عن أنفسهم وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء من غطرسة المعتدين وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها ولكن من السيئ جداً إهمال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه الطريقة، فما من عاقل يرغب فى السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث لك هذا الأمر فلا تكن مطمئناً، لأنك لم تعتمد على نفسك ولكن ساعدك الآخرون كما يساعدون الجبناء إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هى تلك الطرق التى تعتمد عليك وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين.

الحظ يحكم نصف أعمالنا ويترك لنا النصف الآخر

يقول مكيافيللي: أعرف أن العديد من الكتاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث

هذا العالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أياً كانت، ولذلك فإن كثرة التعب فى الحياة غير مفيدة لنذر الصدفة تحكم الأمور وهذا الرأى يجد تأييداً كبيراً فى أيامنا هذه بسبب ما يحدث من تغييرات كبيرة وأحدث إنسانية لكنى حين أفكر فيها أميل أحياناً إلى الانضمام إلى هذا الرأى إلى حد ما لكن، وحتى لا نقضى على إرادتنا قضاءً تاماً، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريباً وإنى أشبه الحظ بالنهر الهائج القوى سريع التيار، الذى يفيض على السهول، ويقتلع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لأخر، يفر الناس أمامه، ويستسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظنون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئاً، فإذا ما هاج يجرى فى قناة أو تقل خطورته واندفاعه وبالمثل نجد أن الحظ تظهر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تدابير ضده أو موانع تعوقه وإذا ما نظرنا إلى إيطاليا التى كانت مسرحاً لهذه التغييرات، وكانت سبباً فيها، فسنجدها بلداً بلا أى حواجز أو جسور من أى نوع ولو أنها محمية بطريقة صحيحة مثل ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، لما استطاع فيضان أن يؤثر فيها بشدة هكذا، وربما لم يكن ليحدث أصلاً.

وهذا كاف للتصدى للحظ بصفة عامة ولكنى حين أقتصر على حالات خاصة فإنى أشير إلى مثال يحدث وهو أن المرء قد يرى أميراً يأتيه الحظ اليوم، ثم يحطمه غداً، والأمير على حاله لم يتغير أخلاقه أو غيرها وأول أسباب بذلك هو أن الأمير الذى يعتمد تماماً على الحظ يهلك إذا تغير حظه وأعتقد أيضاً أن السعيد هو من تتفق أعملاه مع متطلبات العصر، وفى المقابل فإن التعيس هو من لا تساير أعماله عصره وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم، وبطرق مختلفة فهذا يصل بالحذر، وذلك يصل بالتسرع،

وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تماماً وقد ترى رجلين حذرين ينجح أحدهما فى الوصول إلى ما يريد، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا متوقع وذلك حذر والسر فى هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا وعلى هذا الأمر تتوقف أيضاً التغيرات التى تحدث فى مدى الرفاهية فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح، ولكن إذا تغير الزمان والظروف فإنه يهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أياً كانت وذلك إما لفشله فى التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة.

وقد كانت كل أعمال البابا (جوليوس) متسرعة، وكان الوقت والأحوال المحيطة ملائمين، فكان دائماً ما يصل إلى نتيجة طيبة فإذا نظرنا إلى أول حرب قامها ضد بولونيا وذلك أثناء حياة (جيوفانى بنتيفوجلي) وهى لم تلق ترحيباً لا من البنادقة ولا من ملك أسبانيا، كما أن فرنسا قد أجرت معه حواراً بشأن الحملة ومع ذلك قام بالإعداد للحملة بنفسه لما لديه من استعدادات جيدة وما يتصف به من تعجل ولذلك توقفت أسبانيا والبنادقة وترددوا وكان دافع البنادقة فى ذلك هو الخوف بينما كانت أسبانيا ترغب فى استعادة جميع مملكة نابولى لكنه أشرك معه ملك فرنسا الذى لاحظ إقدامه فرغب فى مصادقته ليكسر شوكة البنادقة، وأدرك فى نفس الوقت أن ا لبابا لن يرفض مساعدته له بقواته لأن فى ذلك إهانة شديدة وهكذا تمكن (جوليوس الثاني) بتعجله ما لم يكن باستطاعة أى بابا آخر أن ينجزه مهما أوتى من حكمة لأنه لو انتظر حتى تتم كل الترتيبات وبعد كل شيء قبل أن يغادر روما لما نجح أبداً حيث أنه من المحتمل أن يجد

مثلك فرنسا ألف عذر، وأن يوحى إليه الآخرون بألف من المخاوف وإنى أكتفى بعمله هذا دون بقية أعماله الأخرى، وجميعها من هذا النوع وكلها نجح نجاحاً كبيراً فهو لم يجرب الفشل وحياته كانت قصيرة وربما كان قد هلك لو أنه واجه ظروفاً كان من الضرورى له فيها أن يعمل بحذر وتأن.

والخلاصة هى أنه: إن تغير الحظ وبقى البشر على طرقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحاً طالما تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف المحيطة فإنهم لا يحققون نجاحاً وإنى أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تظفرها إلا بالقوة ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعملون بروية ولهذا فالحظ كالمرأة يصادق الشباب دائماً، لأنهم أكثر عنفاً وأقل حذراً، ولذلك فهم يسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة الآخرين.

دعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة

فى نهاية كتاب الأمير يقول نيقولا مكيافيللي: والآن فإنى قد تناولت كل الأمور التى تحدثت عنها وتأملتها فى داخلي، وقلت فى نفسى هل الوقت الحاضر ملائم لظهور أمير جديد فى إيطاليا، وإن كانت الأوضاع غير مناسبة لذلك لكنى أرى أن الأحوال تتلاقى وتتشابك حتى يستفيد منها حاكم جديد يقوم بهذا العمل المجيد ولا أجد أن هناك وقتاً أنسب من الوقت الحاضر وإذا كان من الضرورى أن يكون بنو إسرائيل عبيداً فى مصر حتى تظهر لنا قدرات موسى - عليه السلام - إذن لابد أيضاً لإيطاليا أن تصل إلى و ضع أحط من عبودية بنى إسرائيل، وأن يبطشها أكثر مما حدث مع الفرس، وأن يتفرق شملها وتصبح بلا حاكم وبلا نظام ومهزومة ومنهوبة وممزقة الأشلاء ومغلوبة على أمرها بعدما مرت بكل أنواع الدمار.

إلا أن هناك بارقة أمل فى فرد محدد قد يهيئه الله لخلاص البلاد، إلا أن حظ ه قد تعثر وهو فى قمة مهمته، وأصبحت إيطاليا الآن بعد أن فارقت الحياة فى انتظار من

يضمد جراحها ويضع حداً لما يحدث فى (لمبارديا) وللسلب والنهب فى مملكة (نابولي) و(توسكانيا) ويبرئ إيطاليا من هذه الجروح المتقيحة إن إيطاليا تتضرع إلى الله كى يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة وإهاناتهم كما أنها مستعدة للعمل تحت لواء يرفعه أى إنسان ولا أمل لإيطاليا الآن إلا أن يتزعم مقامكم العالى هذا التحرير، فهو عال بنفوذه وطالعه السعيد، ويناصره الله والكنيسة التى يستمد منها سلطانه وهذا الأمر لن يكون شاقاً لو وضعت نصب عينيك ما ذكرته من أعمال الرجال وقصص حياتهم، وإن كان هؤلاء الرجال فرادى وقلة نادرة، إلا أنهم بشر مثلنا على أى حال، والفرصة التى أتيحت لكل منهم كانت أقل من الفرصة الحالية، فأعمالهم لم تكن أكثر عدلاً من هذا العمل العظيم أو أشد سهولة منه، كما أن الله فى عونك لأن قضيتك عادلة إضافة إلى أن هناك معجزات كثيرة قد حدثت من قبل فى مثل هذه القضايا التى تدافع عن العدل مثل انشقاق البحر، والغمامة، وتفجير الماء من الصخر، ونزول المن من السماء والآن تكاتفت كل الظروف لإعلائك، وما عليك إلا أن تكمل ما تبقى، فالله - سبحانه وتعالى- لا يفعل لنا كل ما نريد حتى تصبح لدينا إرادة حرة وتنجزه وبذلك ننال نصيبنا من المجد.

وليس من العجيب أن أحداً ممن ذكرت من الإيطاليين لم يقم بما نأمل أن يفعله مقامك العالى وإذا كانت القدرات العسكرية قد قضى عليها تماماً فى ثورات إيطالية كبيرة جداً وفى العمليات العسكرية الكبيرة فإن سبب ذلك هو الأساليب القديمة غير الصالحة، ولا شيء يحقق للرجال المجد الكبير سوى سن القوانين الجديدة، هى أمور تجعله موضع إعجاب واحترام ويوجد فى إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة ولننظر كيف ان فئة من الإيطاليين قد تفوقت فى القتال الفردى والمبارزات، إلا أن جيوشها كانت ضعيفة، والسبب يعود بالكامل إلى ضعف القادة، فلم يظهر من بينهم حتى الآن من يجعل الاخرين يطيعونه دون تذمر ولذلك كان الفشل هو حليف الجيوش الإيطالية لفترة طويلة من الزمن،

وفى كل الحروب التى قامت خلال العشرين عاماً الأخيرة وهذا واضح فى كل من (تارو) و(كابو) و(وجنوا) و(فايلا) و(بولونيا) و(مستري).

ولهذا إذا أراد سموكم أن يقتفى آثار العظماء من القادة الذين حرروا أوطانهم، فلابد لك أولاً أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لما ستقوم به، وهو قواتك الوطنية، فلن تجد جنوداً يخلصون لك أكثر منهم، ولن تجد أفضل منهم وإذا كانت الجيوش جميعاً جيدة وهى فرادى، فإنها ستكون أجود إذا اتحدت تحت قيادة أمير يكرمها وتنال رضاه ولهذا فمن الضرورى أن تكون هذه القوات التى تدافع عن الوطن من الإيطاليين وعلى الرغم من أن المشاة السويسريين والأسبان أقوياء جداً إلا أن لكل منهما عيوبهما، ويمكننا أن نتصدى لهما بتنظيم عسكرى مختلف، ولابد من أن نكون على يقين من النصر عليهما، فالأسبان لا يستطيعون الصمود أمام هجوم الفرسان، والسويسريين لابد أن يخافوا ملاقاة مشاة أقوياء مثلهم وأمامنا أمثلة كثرة منها موقعة (رافنا) حيث هاجم مشاة الأسبان على الكتائب الألمانية المنظمة بنفس طريقة تنظيم السويسريين إلا أن الأسبان بخفتهم، وباستخدام ما لديهم من تروس قد تمكنوا من اختراق الصفوف، وأن يحصنوا أنفسهم فى مواقع يهاجمون منها هجوماً موفقاً، ولولا إغارة الفرسان عليهم لتمكنوا من القضاء على الجميع بالكامل وإذا عرفنا عيوب هذ ين النوعين من المشاة فإننا ستمكن من تشكيل نوع ثالث قادر على مقاومة الفرسان، ولا يخشى المشاة، وهذا يتم باختيار الأسلحة والتنظيم الجيد وهى الأمور التى تمنح الأمير الجيد سمعة طيبة ينالها العظمة حين يطبقها لأول مرة.

لهذا لا يجب أن تفوت هذه الفرصة دون اقتناص، حتى تجد إيطاليا من يحررها أخيراً وأنا لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذى سيقابل به من يحرر كل هذه الولايات التى ذاقت الأمرين بسبب الغزو الأجنبي، وعن المتعطشين للثأر وما سيلاقيه المحرر من ولاء ثابت، وعقيدة قوية، ودموع الشكر والعرفان بالجميل

فأى باب يمكن أن يغلق فى وجه هذا المحرر؟ ومن ذا الذى يرفض أن يطيعه؟ وأين الإيطالى الذى لا يقبل يسانده؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تزكم كل الأنوف، فهل لمقامكم العالى أن يؤدى هذا الواجب بشجاعة وأمل كبير فى هذه القضية العادلة، حتى ينهض وطن آباءنا وأجدادنا تحت راية الوطن ويصدق فى ذلك الحين تماماً قول الشاعر بترارك:

استثار الغضب حمية الأبطال

فحملوا السلاح وسعوا للنزال

جمعت أرض الأجداد أيادى الرجال

فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال



فهرس المحتويات